الذريعة

إلى مكارم الشريعة

للشيخ أبي القاسم الحسين بن محمد
ابن المفضل الراغب الأصفهاني
رحمه الله
آمين

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م
بيروت - لبنان

الذريعة

إلى مكارم الشريعة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

نسأل الله تعالى أن يجعل لنا بجوده الذي هو سبب الوجود نوراً يهدينا الى الاقبال عليه ويميل بنا الى الاصغاء اليه ، ويدلنا على حسن معاملته والقوّة على النفاذ في طاعته وأن يجعلنا من جملة من ضمن أن يحرسهم من غائلة الشيطان حيث قال : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان »[1] وجعلهم الشيطان مثنوية اليمين حيث قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين »[2] (قال الشيخ) **أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب** رحمه الله : كنت قد أشرت فيما أمليته من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن الى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها ، وان المكارم المطلقة هي اسم لما لا يتحاشى من أن يوصف الباري جل ثناؤه بها أو بأكثرها نحو الحكمة والجود والحلم والعلم والعفو وإن كان وصفه تعالى بذلك على حد أشرف مما يوصف به البشر ، وان الأحكام تتناول ذلك في العبادات وانه باكتساب المكرمة يستحق الانسان أن يوصف بكونه خليفة الله تعالى المعني بقوله عز وجل

١ ـ الحجر ـ ٤٢
٢ ـ ص ـ ٨٢

: « إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً »[1] وبقوله تعالى : « وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »[2] وبقوله تعالى :« هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم »[3] وأشرت ان خلافة الله عز وجل لا تصح إلا بطهارة النفس ، كما أن أشرف العبادات لا تصح إلا بطهارة الجسم وقد استخرت الله تعالى الآن وعملت في ذلك كتاباً يكون ذريعة الى مكارم الشريعة وبينت كيف يصل الانسان الى منزل العبودية التي جعلها الله تعالى شرفاً للأتقياء وكيف يترقى عنها إذا وصلها الى منزلة الخلافة التي جعلها الله تعالى شرفاً للصديقين والشهداء فبالجمع بين أحكام الشرع ومكارمه علماً وإبرازهما عملاً يكتسب العلى ويتم التقى وتبلغ الى جنة المأوى ، ورغبتي أيها الأخ الفاضل وفقك الله وأرشدك وأعاذك من شر نفسك في تصنيفه ما رأيت من تشوقك بأن تزين ما ولاه الله تعالى من حسن خلقك وخلقك بما يتولاه من تحسين أدبك وإكمال مروءتك فما أجدر محياك الصبيح أن يحصل وراء الرأي الصحيح شعر :

حتى تصادف اترجا يطيب معاً * حملا ونوراً فطاب العود والورق

فما أقبح المرء أن يكون حسن جسمه باعتبار قبح نفسه جنة يعمرها بُوم وصرمة يحرسها ذئب كما قال حكيم لجاهل صبيح الوجه : أما البيت فحسن ، وأما ساكنه فرديء وأن يكون باعتبار كثرة ماله وحسن أثاثه ثوراً عليه حلي فقد سمى بعض الحكماء الأغنياء الأغبياء تيوسا صوفها

---

١ ـ البقرة ٣٠
٢ ـ الاعراف ـ ١٢٩
٣ ـ فاطر ـ ٣٩

درر ، وحمرا أجلالها حبر ، ودخل حكيم على رجل فرأى داراً منجدة وفرشا مبسوطة ورأى صاحبها خلواً من الفضيلة فبزق في وجهه فقال له : ما هذا السفه أيها الحكيم ؟ قال : بل هذه حكمة ان البصاق ليرمى في أخس مكان في الدار ولم أر في دارك أخس منك فنبه بذلك على دناءة الجهل وأن قبحه لا يزول بادخال القنيات ،وكن أيها الأخ عالماً وبعلمك عاملاً تكن من أولياء الله الذين « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[1] » واحذر الشيطان أن يسبيك ويغويك باعراض الدنيا وزخارفها فيجعلك من أوليائه ويخوفك بوساوسه كما قال عز من قائل : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه[1] » واعلم أنه قبيح بذي العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنساناً أو إنساناً وقد أمكنه أن يكون ملكاً ، وان يرضى بقنية مستعارة وحياة مستردة وله أن يتخذ قنية مخلدة وحياة مؤبدة كما قيل :

فلم ير في عيوب الناس شيء * كنقص القادرين على التمام

وإن أردت أن تعرف بقاء العلماء الأتقياء فاعتبر ما قال أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه : مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر وأعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة ، وإن أردت أن تشاهدهم في الجنة يتنعمون فاستعد حال حارثة حيث قال للنبي عليه السلام : أصبحت مؤمناً حقاً فقال عليه السلام : « لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك »؟ فقال في جملة جوابه :وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فصدقه النبي عليه الصلاة والسلام وقال له : « عرفت

---

١ ـ الانعام ٦٥

فالزم ولا يخدعنك عن طلب ذلك وإدراكه الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون » فقد وصفهم الله بالصمم والعمى إذ قال: « مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ »(١) ثم ذمهم بقوله : «أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٢)» . ثم فرق بينهم وبين من ضادهم فقال : « مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(٣)» فاخبر تعالى انهم لا يسمعون ولا يبصرون لفقدان سمع القلب وبصره الذين بهما تنال حقائق المسموعات والمبصرات وهذا الكتاب يشتمل على سبعة فصول وأبواب .

الفصل الأول
﴿ في أحوال الانسان وقواه وفضيلته وأخلاقه ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ مثل أهل الدنيا وما رشحوا له ﴿ الباب الثاني ﴾ ماهية الانسان وكيفية تركيبه ﴿ الباب الثالث ﴾ في قوى الانسان ﴿ الباب الرابع ﴾ تعاون القوى الروحانية وكيفية إدراكها ﴿ الباب الخامس ﴾ بيان فضيلة الانسان على سائر الحيوان ﴿ الباب السادس ﴾ بيان ما به يفضل الانسان ﴿ الباب السابع ﴾ كون منزلة الانسان بين البهيمة والملك ﴿ الباب الثامن ﴾ ما لأجله أوجد الانسان

---

١ ـ هود ٢٠
٢ ـ هود ٢١
٣ ـ هود ٢٤

وتحري الفضائل ﴿ الباب الثاني والثلاثون ﴾ الموانع من تحري الفضائل ﴿ الباب الثالث والثلاثون ﴾ الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار عنها الى أقصى الرذائل ﴿ الباب الرابع والثلاثون ﴾ بيان عبادة الله في تهذيب الذين ترددوا في الرذائل حتى فسدت أخلاقهم.

الفصل الثاني
﴿ في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ فضيلة العقل ﴿ الباب الثاني ﴾ أنواع العقل ﴿ الباب الثالث ﴾ المكتسب من العقل الدنيوي والأخروي ﴿ الباب الرابع ﴾ منازل العقل واختلاف أساميها بحسبها ﴿ الباب الخامس ﴾ جلالة العقل وشرف العلم ﴿ الباب السادس ﴾ الفرق بين العقل والعلم والمعرفة والدراية والحكمة ﴿ الباب السابع ﴾ توابع العقل ﴿ الباب الثامن ﴾ ثمرة العقل من معرفة الله تعالى الضرورية والكسبية وغاية ما يبلغه الانسان ﴿ الباب التاسع ﴾ وجوب بعثة الأنبياء عليهم السلام وقلة الاستغناء عنهم ﴿ الباب العاشر ﴾ ما تعرف به صحة النبوة ﴿ الباب الحادي عشر ﴾ كون العقل والرسل هاديين للخلق الى الحق ﴿ الباب الثاني عشر ﴾ تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتدرب في العلوم العقلية ﴿ الباب الثالث عشر ﴾ في الايمان والاسلام والتقوى والبر ﴿ الباب الرابع عشر ﴾ في الايمان ﴿ الباب الخامس عشر ﴾ في أنواع الجهل ﴿ الباب السادس عشر ﴾ في قول النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ الايمان بضع وسبعون باباً ﴿ الباب السابع عشر ﴾ كون العلم

مركوزاً في نفوس الناس ﴿ الباب الثامن عشر ﴾ حصر أنواع المعلومات ﴿ الباب التاسع عشر ﴾ ما تعرف به فضيلة العلم ﴿ الباب العشرون ﴾ استحسان معرفة أنواع العلوم ﴿ الباب الحادي والعشرون ﴾ معاداة بعض الناس لبعض العلوم ﴿ الباب الثاني والعشرون ﴾ الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه ﴿ الباب الثالث والعشرون ﴾ أحوال الناس في استفادة العلم وإفادته ﴿ الباب الرابع والعشرون ﴾ ما يجب على المتعلم أن يتحراه ﴿ الباب الخامس والعشرون ﴾ ما يجب على المعلم أن يتحراه مع المتعلمين منه ﴿ الباب السادس والعشرون ﴾ وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر أفهامهم ﴿ الباب السابع والعشرون ﴾ وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة إهمال ذلك ﴿ الباب الثامن والعشرون ﴾ ذكر من يصلح لوعظ العامة ﴿ الباب التاسع والعشرون ﴾ الحالة التي يجب أن يكون عليها الواعظ ﴿ الباب الثلاثون ﴾ صعوبة المعيار التي تعرف به حقائق العلوم ﴿ الباب الحادي والثلاثون ﴾ ذكر كراهية الجدال للعوام وذمه على كل حال ﴿ الباب الثاني والثلاثون ﴾ ما يجب أن يعامل به ذو الجدال المماحك ﴿ الباب الثالث والثلاثون ﴾ في الوجوه التي يقع من أجلها الشبه والاختلاف ﴿ الباب الرابع والثلاثون ﴾ بيان اختلاف الناس في الأديان والمذاهب ﴿ الباب الخامس والثلاثون ﴾ النطق والصمت ﴿ الباب السادس والثلاثون ﴾ في مدح الصدق وذم الكذب ﴿ الباب السابع والثلاثون ﴾ ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب ﴿ الباب الثامن والثلاثون ﴾ أنواع الكذب والداعي اليه ﴿ الباب التاسع والثلاثون ﴾ الذكر الحسن من المدح والثناء ﴿ الباب الأربعون ﴾

الفصل الثالث
﴿ فيما يتعلق بالقوى الشهوية ﴾

الفصل الرابع
﴿ فيما يتعلق بالقوى الغضبية ﴾

مداواة الغم وإزالة الخوف ﴿ الباب السادس ﴾ أحوال الناس في محبة الموت والاحتيال لقلة المبالاة به ﴿ الباب السابع ﴾ السرور والتوبة ﴿ الباب الثامن ﴾ العذر والتوبة ﴿ الباب التاسع ﴾ الحلم والعفو ﴿ الباب العاشر ﴾ ثوران الغضب وفضل كظمه ﴿ الباب الحادي عشر ﴾ الغيرة والجور ﴿ الباب الثاني عشر ﴾ الغبطة والمنافسة والحسد.

الفصل الخامس
﴿ في العدالة والظلم والمحبة والبغض ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ ذكر العدالة وفضيلتها ﴿ الباب الثاني ﴾ أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه ﴿ الباب الثالث ﴾ ما يحسن ترك العدالة فيه ﴿ الباب الرابع ﴾ ذكر الظلم ﴿ الباب الخامس ﴾ الأسباب التي يحصل منها الإضرار ﴿ الباب السادس ﴾ ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة ﴿ الباب السابع ﴾ ماهية المحبة وأنواعها ﴿ الباب الثامن ﴾ فضيلة المحبة ﴿ الباب التاسع ﴾ فضيلة الصداقة ﴿ الباب العاشر ﴾ ذكر المحبة في الناس ﴿ الباب الحادي عشر ﴾ الحث على مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار ﴿ الباب الثاني عشر ﴾ فضيلة التفرد عن الناس ورذيلته ﴿ الباب الثالث عشر ﴾ في العداوة .

الفصل السادس
﴿ فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والإنفاق والجود والبخل ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ حاجة الناس الى اجتماعهم للتظاهر ﴿ الباب الثاني ﴾ تسخير الله همم الناس للصناعات المختلفة وعناية كل أحد بما يتحراه ﴿ الباب الثالث ﴾ كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس ﴿ الباب الرابع ﴾ مناسبة الابدان للصناعات ووجوب التكسب ﴿ الباب الخامس ﴾ مدح السعي وذم الكسل ﴿ الباب السادس ﴾ تقاسم الصناعات وفضيلة بعضها على بعض ﴿ الباب السابع ﴾ في أن أصول الصناعات مأخوذة عن وحي ﴿ الباب الثامن ﴾ في شأن الناض المتعامل به وبيان حكمة الله تعالى ﴿ الباب التاسع ﴾ مدح المال وذمه ﴿ الباب العاشر ﴾ ذكر المال والأدب في اقتنائه والوجوه التي منها يحصل ﴿ الباب الحادي عشر ﴾ سبب إخفاق العاقل وإنجاح الجاهل ﴿ الباب الثاني عشر ﴾ تحقيق كون المال في أيدي الناس ﴿ الباب الثالث عشر ﴾ تفاوت أحوال المتناولين للأعراض الدنيوية ﴿ الباب الرابع عشر ﴾ في بيان ما ورد من الآيات المتفاوتة الظاهر في شأن الدنيا ﴿ الباب الخامس عشر ﴾ في مراعاة أمور الدنيا والآخرة ﴿ الباب السادس عشر ﴾ بيان حال من يجوز له الاستكثار من أعراض الدنيا ، ومن لا يجوز له ذلك ﴿ الباب السابع عشر ﴾ ما ينال أرباب الدنيا من العقوبات الدنيوية ﴿ الباب الثامن عشر ﴾ ذكر الانفاق الممدوح والانفاق المذموم ﴿ الباب

التاسع عشر ﴾ حقيقة السخاء والجود والشح والبخل ﴿ الباب العشرون ﴾ فضيلة الجود وذم البخل ﴿ الباب الحادي والعشرون ﴾ أنواع الجود والمجود به .

الفصل السابع
﴿ في ذكر الأفعال ﴾

﴿ الباب الأول ﴾ أنواع الأفعال ﴿ الباب الثاني ﴾ الفرق بين الفعل والعمل والصنع ﴿ الباب الثالث ﴾ أنواع الصناعات ﴿ الباب الرابع ﴾ الأفعال الارادية وغير الإرادية ﴿ الباب الخامس ﴾ ما يستحق به من الأفعال اللوم ، وما لا يستحق به ذلك ﴿ الباب السادس ﴾ الأسباب التي يمكن نسبة الفعل اليها .

الفصل الأول
﴿ في أحوال الانسان وقواه وفضيلته وأخلاقه وفيه أبواب ﴾

الباب الأول
﴿ مثل أهل الدنيا وما رشحوا له ﴾

الانسان في هذه الدار كما قال عليّ رضي الله عنه : الناس سفر

والدنيا دار ممر لا دار مقر ، وبطن أمه مبدأ سفره ، والآخرة مقصده ، وزمان حياته مقدار مسافته ، وسنوه منازله ، وشهوره فراسخه وأيامه أمياله ، وأنفاسه خطاه يسار به سير السفينة براكبها كما قيل:

رأيت أخا الدنيا وان كان خافضا * أخا سفر يسرى به وهو لا يدري

وقد دعي الى دار السلام كما قال الله تعالى : « لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ[1]» وقال تعالى: « وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ[2]» وتوجه به اليها نحو أشرف الزهرات وألذ الثمرات جنات تجري من تحتها الأنهار ، بل الى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، لكن لما كان الطريق اليها مضلة مظلمة قد استولى عليها أشرار ظلمة جعل الله عز وجل لنا من العقل الذي ركبه فينا وكتابه الذي أنزله علينا نوراً هادياً ، ومن عبادته التي أمرنا بها حصناً وافياً فقال في وصف نور الله: «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دريّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس »[3] فجعل المصباح مثلا للعقل والمشكاة مثلا لصدر المؤمن ، والزجاجة لقلبه والشجرة المباركة وهي الزيتونة للدين وجعلها لا شرقية ولا غربية تنبيهاً على انها مصونة عن التفريط والافراط كما قال : « إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ[4]» والزيت للقرآن ، وبين أن القرآن يمد العقل مد الزيت المصباح وانه يكاد يكفي لوضوحه وإن لم يعضده العقل ، ثم قال :

---

١ ـ الأنعام ١٢٧
٢ ـ يونس ٢٥
٣ـ النور ٣٤
٤ ـ الاسراء ٩

« نور على نور » أي نور القرآن ونور العقل ، وبين أنه يخص بذلك من يشاء وقال في وصف ما جعله الله تعالى لنا من الحصن : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ [1]» أي المتخصصين بعبادتي فمن لم يقم برعاية نوره وحماية حصنه عمه في دجاه وتمكنت من استغوائه عداه كما قال تعالى: « وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ [2]» فلم يتزوّد من دنياه زاده كما أمره بقوله تعالى: « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ [3]» وحانت رحلته فيسترجع منه ما أعير من جده وذات يده فيتحسر حين لا يغنيه تحسره ويقول: « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [4]» ويقول : « فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ [5]» فحينئذ لا ينفع نفسا ايمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً ، وأيضاً فان الانسان من وجه : في دنياه حارث ، وعمله حرثه ، ودنياه محرثته ، ووقت الموت وقت حصاده والآخرة بيدره ولا يحصد إلا ما زرعه ولا يكيل إلا ما حصده ولهذا قال تعالى: « مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ [6]» وكما أن في البيدر مكاييل وموازين وأمناء وحفاظاً ومشاهدين وكتاباً كذلك في الآخرة مثل ذلك كما قال تعالى: « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ

---

١ - الحجر ٤١
٢ - الزخرف ٣٦
٣ - بقرة ١٩٦
٤ - الانعام ٢٧
٥ - الأعراف ٥٣
٦ - الشورى ٢٠

فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ »[1] وقال: « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ »[2] وقال: «وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ »[3] وكما أن في البيدر تذرية وتمييزاً بين النقاوة والحطام فكذلك في الآخرة تميز بين الحسنى والآثام كما قال الله تعالى:« لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ»[4] وقال في أعمال الكفار : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء »[5] وقال : « وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا »[6] فمن عمل للآخرة بورك في كيله ووزنه وجعل له زاد الآخرة كما قال تعالى : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » ومن عمل لدنياه خاب سعيه وبطل عمله كما قال تعالى : « مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ »[7] فأعمال الدنيا كشجرة الخلاف بل كالدفلي والحنظل في الربيع ترى خضر الأوراق ، حتى إذا حان حين الحصاد لم ينل طائلاً ، وإذا حضر مجتناه البيدر لم

---

١ ـ الأنبياء ٤٧
٢ ـ الانفطار ٩
٣ ـ الزمر ٦٨
٤ ـ الأنفال ٣٧
٥ ـ الفرقان ٢٣
٦ ـ هود ١٥

يفد نائلاً ، ومثل أعمال الآخرة كشجرة الكرم والنخل والمستقبح المنظر في الشتاء فاذا حان وقت القطاف والاجتناء أفادتك زاداً وأدخرت منه عدة وعتاداً وإلى نحوهما أشار الله تعالى بقوله : « ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ »[1] ولما كانت زهرات الدنيا رائقة الظاهر خبيثة الباطن نهى الله تعالى عن الاغترار بها فقال : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ»[2] والله تعالى يؤيد بفضله من يشاء وهو الباري .

الباب الثاني
﴿ ماهية الانسان وكيفية تركيبه ﴾

الانسان مركب من جسم مدركه البصر ، ونفس مدركها البصيرة واليهما أشار بقوله تعالى : « إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ »[3] فالاشارة بالروح الى النفس وإضافته تعالى الروح اليه تشريفاً لها وعنى به النفس المذكورة في

١ - ابراهيم ٢٤
٢ - طه ١٣١
٣ - ص ٧١

قوله تعالى : «أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ»[1] ووجود النفس في الانسان لا يحتاج أن يدل عليه لوضوح أمره بل يتنبه الجاحد لها والغافل عنها بأنها هي التي بحصولها في الجسم تحصل الحياة والحركة والحس والعلم والرأي والتمييز ويكون الجسم متصرفاً بها وحاملاً ومستحسناً ومستطاباً محباً ، وبفقدها عدم هذه الأشياء فيصير جيفة محتاجاً الى عدة تحمله وهي محل الأعراض ، والروحانية كالجسم في كونه محلا للاعراض الجسمانية ، وقد حث الله تعالى على تدبر النفس والتفكر فيها وجعل معرفتها مقرونة بمعرفته تعالى في قوله: «وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»[2] وقال تعالى : «سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ»[3] وكان يقال في الأمم السالفة من أنكر الباري رجم لكونه جاحداً ، ومن أنكر النفس رجم لكونه جاهلا ، وقيل كان في كتب الله تعالى المنزلة اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم « أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه » بل قال الله تعالى : «وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ»[4] تنبيهاً انهم لما نسوه تعالى دل نسيانهم إياه على نسيانهم لها ، وقالت الحكماء قد ركب الله تعالى الانسان تركيباً محسوساً معقولاً على هيئة العالم وأوجد فيه شبه كل ما هو موجود في العالم حتى قيل الانسان هو عالم صغير ومختصر للعالم الكبير ، وذلك ليدل به على معرفة العالم فيتوصل بهما الى معرفة صانعهما ، فغاية معرفة الانسان لبارئه تعالى أن يعرف العالم

---

١ ـ الأنعام ٩٣
٢ ـ الذاريات ٢١
٣ ـ وصلت ٥٢
٤ ـ الحشر ١٨

فيعلم انه موجود وان له موجداً ليس مثله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الباب الثالث
﴿ في تعديد قوى الانسان وصفاته ﴾

قد جعل الله تعالى للانسان خمس قوى يدل على وجودها فيه ما يظهر من تأثيراتها .

(قوة الغذاء) وبها النشور والتربية والولادة .

(وقوة الحس) وبها الاحساس واللذة والألم .

(وقوة التخيل) وبها تصور أعيان الأشياء بعد غيبوبتها عن الحس .

(وقوة النزوع) وبها يكون الطلب للموافق والهرب من المخالف والرضى والغضب والايثار والكراهة .

(وقوة التفكر) وبها يكون النطق والعقل والحكمة والرؤية والتدبير والمهنة والرأي والمشورة .

فأما القوى المدركة منها فخمس :
الحواس الخمس والخيال والفكر والعقل والحفظ .

فأما الحواس
فلكل واحد منها إدراك مخصوص فللحس عشرة إدراكات :

الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة .

وللذوق

سبع : الحلاوة والمرارة والملوحة والحموضة والحرافة والعفوصة واللثغة

وللشم اثنان : الطيب والنتن.

وللسمع اثنان : الصوت الخفيف والصوت الثقيل .

وللبصر أحد عشر : إدراكات النور والظلمة واللون والجسم وسطحه وشكله ووضعه ورفعه وابعاده وحركاته وسكناته واعداده ، فأدون هذه الادراكات اللمس ثم الذوق ثم الشم ، فالنفس لا تكاد تستعين بها إلا فيما يعود نفعها الى صلاح الجسم ، وأرفع الادراكات العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس ، إلا أن العقل والفكر يدركان الأشياء الروحانية .

فأما السمع والبصر فمتوسطان لأنهما يخدمان النفس والجسم وخدمتهما للنفس أكثر ويدركان الأشياء الجسمانية ، والتخيل متوسط بين العقل والفكر وبين السمع والبصر فيأخذ تارة من السمع والبصر ويسلمها الى العقل والفكر وذلك في حال اليقظة ، ويأخذ تارة من العقل والفكر ويسلمه الى السمع والبصر وذلك في حال النوم ولما كان مبدأ تأثير هذه القوى من الدماغ قيل مسكن الفكر وسط الدماغ ، ومسكن الخيال مقدمه ، ومسكن الحفظ والذكر مؤخره ، ولما كان قوام الدماغ بل قوام الجسم كله من القلب الذي منه منشأ الحرارة الغريزية

صار في كلام الناس يعبر عن هذه القوى تارة بالدماغ فيقال : لفلان دماغ إذا قويت منه هذه القوى المدركة ، وفلان خالي الدماغ إذا ضعفت فيه هذه القوى ويعبر عنها تارة بالقلب والثاني أكثر وعلى ذلك قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ »[1]

ولما كان إدراك أكثر الحقائق بهذه القوى المدركة وكانت الفكرة خادمة للعقل والتخيل خادماً للعقل والفكر تارة ، وللسمع والبصر تارة خص الله تعالى بالذكر القلب وهو أحد الطرفين والسمع والبصر وهو الطرف الآخر ، ولذلك عظم الله تعالى المنة على الانسان باعطائه إياه هذه الثلاث وحمد من استعملها وذم من أهملها فقال عز من قائل : « وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ »[2] وقال في ذم من لا ينتفع بها : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ »[4] وقال : « صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »[3] أي لا يفهمون المعنى لا انهم لا يستمعون الأصوات ولا يبصرون الذوات وجعلهم بكما من حيث انهم لا يوردون معنى مستنبطاً بالفكر ومدركاً بالعقل .

وأعلم أن السمع والبصر كالأخوين يخدم كل واحد منهما صاحبه في إدراكه فقد ينوب السمع عن البصر في إبلاغ القلب بما يأخذه عن اللفظ فيدرك في ساعة ما لا يدركه البصر في برهة ، وينوب البصر عن السمع في إبلاغ القلب بمطالعة الكتب ما لا يدركه السمع في مدة

---

١ ـ قٓ ٣٧
٢ ـ النحل ٧٨
٣ ـ الاعراف ١٧٩
٤ ـ البقرة ١٧١

سيما إذا كان المخاطب ناقص العبارة ، أو غير متثبت في الكلام أو دق المعنى وغمض.

الباب الرابع
﴿ في تعاون القوى الروحانية وكيفيات إدراكها ﴾

القوى الروحانية متعاونات في إدراكهن رسوم المعلومات فان الخيال يتصور عن المحسوس فتبقى صورته الروحانية فيه فينتقش بها نقش الشمع بصورة الختم ، ثم يأخذه الفكر فيميز بعضها عن بعض بنور العقل فيبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ثم يؤديه الى القوّة الحافظة فان أراد إبرازه قولاً سلط عليه القوّة الناطقة فيعبر عنه باللسان وإن أراد إبرازه فعلا سلط عليه القوة الباطشة فيوجده بالجوارح ، وقد ضرب بعض الحكماء مثلا لهذه القوى يقرب منه تصور تأثيراتها فقال .

إن القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ بمنزلة الملك تسكن وسط المملكة .

والخيالية ومسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى صاحب بريده .

والحافظة ومسكنها مؤخر الدماغ جارية مجرى خازنه.

والقوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه .

والعاملة جارية مجرى كاتبه .

والحواس جارية مجرى الجواسيس وأصحاب الأخبار الصادقي اللهجات فيما يرفعونه من الأخبار فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع

الذي وكل به فيرفعه الى صاحب البريد وصاحب البريد يسقط ما يراه حشواً ويرفع الباقي صافياً الى حضرة الملك فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ويسلمه الى خازنه الى وقت الحاجة فحينئذ يتقدم باخراجه. قالوا : وكما ان للملك أفعالاً يستعين فيها بغيره وأفعالاً ينفرد فيها هو بنفسه والأفعال التي يتولاها بنفسه أشرف من التي يفوضها الى غيره ، كذلك للقوة المفكرة أفعالا تفوضها الى غيرها وأفعال تختص هي بها وهي الرؤية والفكر والاعتبار والقياس والفراسة فبهذه الأشياء تدبير الأمور فبالفكر استخراج الغوامض وبالاعتبار يحصل التجربة وبالقياس استنباط المجهول بتوسط المعلوم ، والفراسة الاطلاع على الأسرار ونحو هذا المثل ما رؤي أن كعب الاحبار قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت:الانسان عيناه هاد ، وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك ، فاذا طاب الملك طاب جنوده فقال : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الباب الخامس
﴿ في بيان فضيلة الانسان على سائر الحيوان ﴾

للانسان فضل على الحيوانات كلها في نفسه وجسمه .

أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتدبير والرأي فان البهائم وإن كان كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ولا رؤية ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف علل الأشياء ولا أسبابها وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية ، وإنما يتعلم

بعضها بعض الصناعات المتخيلة فأقواها في ذلك الفيل والقرد .

وأما فضله في جسمه فباليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما أوجد في هذا العالم وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله : «لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »[1] وقوله : « وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ »[2] ولم يعن الصورة التخطيطية فقط ، بل عناها والصورة المعقولة،ولتشريفه تعالى إياه بذلك قال : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا»[3] ومن زعم ان الانسان خلق خلقة ناقصة عن الوحشيات من حيث انه لم يكف الملبس كما كفيته ولم يعط سلاحاً في ذاته كما أعطى كثير منها فنظره ناقص إذ قد أعطى الانسان بدل ذلك التمييز الذي يمكنه أن يتخذ به كل ملبس وكل سلاح حسب ما يريده فيتناوله متى أراد ويضعه متى أحب ، ثم لو أعطي الانسان بعض الأسلحة التي أعطيته لم يمكنه أن يستعمل غيره كالوحشيات ، وأيضاً فلو أعطي ذلك لكان من الحق أن لا يعطى التمييز لأنه حينئذ كان يستغني عنه فتبطل فائدته وفعل الله تعالى منزه عن ذلك إن قيل كيف قال تعالى : « وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا »[4] فاستضعفه قيل:ضعفه بالاضافة الى الملأ الأعلى لما فيه من الحاجات البدنية التي كفيها .

واعلم أن كل ما أوجد في هذا العالم فانما أوجد لأجل

١ ـ التين ٤
٢ ـ غافر ٦٤
٣ ـ الاسراء ٧٠
٤ ـ النساء ٢٨

الانسان .

إما لانتفاعه به كالخيل والبغال والحمير ، أو الأغذية له كالبقر والغنم والحبوب والثمار .

وإما لانتفاع ما ينتفع به الانسان كالعشب والحشرات وما لا يعرف الانسان نفسه فليس يخرج من كونه نافعاً ، وقد بين الحكماء نفع جلها وما لا سبيل لبعضنا أو لكلنا الى معرفة نفعه ، فليس جهلنا به قادحاً في حكمة الله تعالى جده في إيجاده ، ورب شيء جهلنا نفعه وقد سخر لمعرفته بعض الحيوانات كالشجر الذي فيه العسل بالقوة وما سخر لمعرفته واستخراجه إلا النحل ، وما أليق من أنكر حكمته تعالى بجهله بأن ينشد

عليّ نحت القوافي من مقاطعها * وما علي بأن لا يفهم البقر

والله أعلم .

الباب السادس
﴿ في بيان ما يفضل به الانسان ﴾

الانسان وإن كان هو بكونه انساناً أفضل موجود فذلك بشرط أن يراعى ما به صار انساناً وهو العلم الحق والعمل المحكم فبقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضل ، ولهذا قيل الناس أبناء ما يحسنون ، أي ما يعرفون ويعملون من العلوم والأعمال الحسنة يقال أحسن فلان إذا علم وإذا عمل حسناً .

فأما الانسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات .

ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان .

ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار .

وأما فضيلته فبالنطق وقواه ومقتضاه ولهذا قيل ما الانسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة فالانسان يضارع الملك بقوة النطق والعلم والفهم ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح فمن صرف همته كلها الى تربية الفكر بالعلم والعمل فخليق بأن يلحق بأفق الملك فيسمى ملكا وربانيا كما قال تعالى : «إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ»[1] .

ومن صرف همته كلها الى تربية القوة الشهوية باتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الانعام فخليق بأن يلحق بأفق البهائم فيصير إما غمراً كثور ، وإما شرهاً كخنزير ، وإما ضرعاً ككلب ، أو حقوداً كجمل ، أو متكبراً كنمر ، أو ذا روغان كثعلب ، أو جامعاً كديك ، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد وعلى ذلك قوله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ »[2] ولكون كثير ممن صورته صورة الانسان وليس هو في الحقيقة إلا كبعض الحيوان قال الله تعالى في الذين لا يعقلون عن الله عز وجل : « إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »[3] وقال : « إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »[4] فبين ان الذين كفروا ولم يستعملوا القوة التي جعلها الله

---

١ ـ يوسف ٣١
٢ ـ المائدة ٦٠
٣ ـ الفرقان ٤٤
٤ ـ الأنفال ٥٥

تعالى لهم هم شر الدواب وقال : « وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ينعق بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً »[1] أي مثل واعظ الكافرين كناعق الأغنام تنبيهاً انهم فيها يقال لهم كالبهائم ولهذا النظر عبّر الشاعر عن بعض من ذمه فقال :

اللــؤم أكرم من وبــر ووالده * واللـؤم أكرم من وبــر ومــا ولدا

ولم يقل ومن ولدا تنبيهاً أنه لا يستحق أن يقال له من لكونـه بهيمة وعلى هذا قال المتنبي :

حولي بكل مكان منهــم خلق * تخطي إذا جئـت في استفهامـه بمن

ولما ذكرنا لم يكن بين بعض هذه الأنواع وبعضها من التفاوت ما بين انسان وانسان ، فانك قد ترى واحداً كعشرة وعشرة كمائة بل واحداً كمائة وعشرة أخرى هدره دون واحد ، كما قيل لامرأة في منامها أعشرة هدره أحب اليك ، أم واحد كعشرة ؟ فقالـت بل واحـد كعشرة قال الشاعر :

ولــم أر أمثــال الرجــال تفاوتاً * لدى المجـد حتـى عَد ألف بواحد

بل نرى واحداً كعشرة آلاف : « ونرى عشرة آلاف دون واحد » كما قال عليه السلام وهو أصدق قيلا : «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » والابل في تعارفهم اسم لمائة بعير فمائة ابل هي عشرة آلاف بعير ، بل لو قيل قد نرى واحداً كعالم وعالماً كواحد لجاز كما قال عليه السلام : « وزنت بأمتي فرجحتهم ».

---

١ - البقرة ١٧١

وعلى هذا قال أبو نواس :

ليس على الله بمستنكـر * أن يجمـع العالـم في واحـد

الباب السابع
﴿ في كون الانسان بين البهيمة والملك ﴾

الانسان لما ركب تركيباً بين بهيمة وملك ، فشبهه للبهائم بما فيه من الشهوات البدنية من المأكل والمشرب والمنكح ، وشبهه للملك بما فيه من القوى الروحانية من الحكمة والعدالة والجود ، صار واسطة بين جوهرين رفيع ووضيع ، ولهذا قال تعالى : « وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ »[1] فالنجدان من وجه العقل والهوى .

ومن وجه الآخرة والدنيا .

ومن وجه الايمان والكفر .

ومن وجه الهدى والضلالة .

ومن وجه موالاة الله عز وجل وموالاة الشيطان المذكورتان في قول الله عز وجل : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات »[2] ومن وجه النور والظلمة المذكورتان في هذه الآية أي الفضيلة والنقيصة ، ومن وجه الحياة والموت المذكوران في قوله تعالى :

---

١ ـ البلد ١٠
٢ ـ النور ـ ٢٥٧

«أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ»[1] فمن وفقه الله تعالى عز وجل للهدى وأعطاه قوة ليبلغ المدى فراعى نفسه وزكاها ، فقد أفلح ومن حرمه التوفيق فأهمل نفسه ودساها فقد خاب وخسر كما قال الله سبحانه وتعالى : «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا»[2]

الباب الثامن
﴿ ما لأجله أوجد الانسان ﴾

الانسان من حيث هو انسان كل واحد كالآخر كما قيل :

فالأرض من تربة والناس من رجل * وإنما تشرف بأن يوجد كاملا في المعنى الذي وجد لأجله وبيان ذلك أن كل نوع أوجده الله تعالى في هذا العالم أو هدى بعض الخلق الى إيجاده وصنعه فانه موجد لفعل يختص به .

كالبعير إنما خص به ليبلغنا وأثقالنا الى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس .

والفرس ليكون لنا جناحاً نطير به .

والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما .

والباب لنحرز به البيت فالفعل المختص بالانسان ثلاثة : عمارة

---

١ - الانعام ١٢٢
٢ - الشمس ٨

الأرض المذكورة في قوله تعالى : «وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا »[1] وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره وعبادته المذكورة في قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »[2] وذلك هو الامتثال للباري تعالى في عبادته في أوامره ونواهيه وخلافته المذكورة في قوله تعالى : « ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون »[3] وغيرها من الآيات وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة ومكارم الشريعة ، هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم والاحسان والفضل والقصد منها أن يبلغ بذلك الى جنة المأوى وجوار رب العزة تبارك وتعالى وكل ما أوجد لفعل ما فشرفه لتمام وجود ذلك المعنى منه ودناءته لفقدان ذلك منه كالفرس للعدو والسيف للعمل المختص به في القتال ، ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي لأجله أوجد كان ناقصاً ، فاما أن يطرح طرحاً أو يرد الى منزلة النوع الذي هو دونه كالفرس إذا لم يصلح للعدو اتخذ حمولة ، أو أعد أكولة والسيف إذا لم يصلح للقطع اتخذ منشاراً ، فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا لعبادته ولا لاستعمار أرضه فالبهيمة خير منه ولذلك قال الله تعالى في ذم الذين ثكلوا هذه الفضيلة : « إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »[4] .

الباب التاسع

﴿ السياسة التي يستحق بها خلافة الله تعالى ﴾

قد تقدم ان الخلافة تستحق بالسياسة وذلك بتحري مكارم

١ ـ هود ٦١
٢ ـ الذاريات ٥٥
٣ ـ النور ٥٥
٤ ـ الفرقان ٤٤

الشريعة والسياسة ضربان : أحدهما سياسة الانسان نفسه وبدنه وما يختص به .

والثاني سياسة غيره من دونه وأهل بلده ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه ، ولهذا ذم الله تعالى من ترشح لسياسة غيره فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو غير مهذب في نفسه فقال : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ »[1] وقال تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ »[2] وقال : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ »[3] أي هذبوها قبل الترشح لتهذيب غيركم ، وبهذا النظر قيل : تفقهوا قبل أن تسودوا وتنبيهاً انكم لا تصلحون للسيادة قبل معرفة الفقه والسياسة العامة ولأن السائس يجري من المسوس مجرى ذي الظل من الظل ومحال أن يعوج ذو الظل ويستقيم ظله ولاستحالة أن يهتدي المسوس والسائس ضال قال الله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ »[4] فحكم انه محال أن يكون مع اتباعه الشيطان يأمر إلا بالفحشاء .

---

١ ـ البقرة ٤٤
٢ ـ الصف ١
٣ ـ المائدة ١٠٥
٤ ـ النور ٢١

الباب العاشر
﴿ في الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض ﴾

أما مكارم الشريعة فمبدأها طهارة النفس بالتعلم واستعمال العفة والصبر والعدالة ، ونهايتها التخصص بالحكمة والجود والحلم والاحسان ، فبالتعلم يتوصل الى الحكمة ، وباستعمال العفة يتوصل الى الجود ، وباستعمال الصبر يدرك الشجاعة والحلم ، وباستعمال العدالة يصحح الأفعال ، ومن حصل له ذلك فقد تدرع المكرمة المعنية بقوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ »[1] وصلح لخلافة الله تعالى عز وجل وصار من الربانيين والشهداء والصديقين . واعلم أن العبادة أعم من المكرمة ، فان كل مكرمة عبادة وليس كل عبادة مكرمة ، والفرق بينهما أن للعبادات فرائض معلومة ، وحدوداً مرسومة ، وتاركها يصير ظالماً متعدياً ، والمكارم بخلافها ، وأن يستكمل الانسان مكارم الشريعة ما لم يقم بوظائف العبادات . فتحري العبادات من باب العدالة . وتحري المكارم من باب الافضال والنفل ، ولا يقبل تنفل من أهمل الفرض ، ولا يفضل من ترك العدل ، بل لا يصح تقاضي الفضل إلا بعد العدل ، فان العدل فعل ما يجب ، والتفضل الزيادة على ما يجب ، وكيف يصح تصور الزيادة على

١ - الحجرات ١٢

شيء هو غير حاصل في ذاته ، ولهذا قيل : لا يستطيع الوصول من ضيع الأصول ، فمن شغله الفرض عن النفل فمعذور ، ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور ، وقد أشار تعالى بالعدل الى الأحكام ، وبالاحسان الى المكارم ، بقوله : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ »[1] وقوله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[2] ففعل الخير هو الزيادة على العبادة ، وأما عمارة الأرض والقيام بما فيه تزجية حياة الناس وصلاح معاشهم فالانسان الواحد من حيث لم يكف أمر معاشه بانفراده من مأكله وملبسه ومسكنه وليس له سبيل الى ثباته في الدنيا إلا بما يسد جوعته ويستر عورته ويقيه من الحر والبرد ، لم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له ، ولذلك قال تعالى : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ »[3] ومتى كان سعي العبد في ذلك على الوجه الذي يجب وكما يجب يكون سعيه عبادة وجهاداً في سبيل الله تعالى ، كما قال عليه السلام : من طلب الرزق على ما يسن فهو في جهاد ، ومن لم يكن على ذلك فسعيه يكون هباء منثوراً ، كما قال تعالى : « هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا »[4] وكان فيما يتولاه خادماً للناس مسخراً بلا إرادة منه لخدمتهم حتى كأنه من جملة البهائم التي

---

١ ـ النحل ٩٠
٢ ـ الحج ٧٧
٣ ـ طه ١١٨
٤ ـ الكهف ١٠٣

سخرها الله تعالى لعباده فامتن عليهم بها في قوله : « وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً »[1] .

الباب الحادي عشر
﴿ كون طهارة النفس شرطاً في صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته ﴾

لا يصلح لخلافة الله ، ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس ، قد أزيل رجسها ونجسها ، فللنفس نجاسة كما ان للبدن نجاسة . لكن نجاسة البدن قد تدرك بالبصر ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة، وإياها قصد تعالى بقوله : « إنما المشركون نجس »[2] ولقوله تعالى : « وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ »[3] وبقوله كَذَٰلِكَ « يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ »[4] وإنما لم يصلح لخلافة الله إلا من كان طاهر النفس ، لأن الخلافة هي الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية في تحري الأفعال الالهية ، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل ، فكل اناء بالذي فيه يرشح . ولن يخلو مسك سوء عن عرف سوء . ولهذا قيل : من طابت نفسه طاب عمله : ومن خبثت نفسه خبث عمله . وقال عليه السلام : « المؤمن أطيب من عمله والكافر أخبث من عمله » بل قد أشار تعالى الى ذلك بقوله :

١ ـ النحل ٨
٢ ـ التوبة ٢٨
٣ ـ المدثر ٥
٤ ـ الأنعام ١٢٥

«ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ »(١) وقوله : « وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا »(٢) ولأجل انه لا يطيب عمل من خبثت نفسه قال تعالى : «أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ »(٣) وقال بعضهم في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب » . إنه أشار بالبيت الى القلب ، وأشار بالكلب الى الحرص والحسد ونحوهما . ونبّه ان نور الله تعالى لا يدخله إذا كان فيه ذلك ، واستدل على صحته بأن الحرص يقال له الكلب ، وانه يقال فلان أحرص من كلب ، ويقوي ذلك ما روي أن التقوى لا تسكن إلا قلباً نظيفاً والى الطهارتين أشار بقوله تعالى : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ »(٤) وكنى بالثياب عن البدن كقول الشاعر :

ثياب بني عوف طهارى نقية * وأوجههم عند المشاهد غران

وقال تعالى : « إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »(٥) وقال : « مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ »(٦) وقال : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ »(٧) وقد قال بعض الحكماء العلماء : إنما سميت الحواريون

---

١ ـ النور ٢٦
٢ ـ الاعراف ٥٨
٣ ـ الحجرات ٣
٤ ـ المدثر ٥
٥ ـ الأحزاب ٣٢
٦ ـ المائدة ٦
٧ ـ البقرة ٢٢٢

بذلك لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بافادتهم الدين والعلم من قولهم حورته أي بيضته وما روي انهم كانوا قصارين فاشارة الى هذا المعنى ، وإن كان من لم يتخصص لمعرفة الحقائق تصور من هذا التفسير المهنة المعروفة بين العامة .

الباب الثاني عشر
﴿ فيما يفزع اليه من طهارة النفس ﴾

الذي به يطهر النفس حتى يترشح لخلافة الله تعالى ويستحق به ثوابه هو العلم والعبادات الموظفة التي هي سبب الحياة الأخروية ، كما ان الذي يطهر به البدن هو الماء الذي هو سبب الحياة الدنيوية ، ولذلك سماها الحياة ، وسمى ما أنزل الله تعالى في كتابه الماء فقال : « ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »[1] فسمى العلم والعبادة حياة من حيث ان النفس متى فقدتها هلكت هلاك الأبد كما قال في وصف الماء : « وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ »[2] وقال: « أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا »[3] قال ابن عباس رضي الله عنهما : عنى بالماء القرآن ، إذ كان به طهارة النفس ، قال والأودية القلوب احتملته بحسب ما وسعته .

قال بعض العلماء في قوله تعالى : « أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً »[4]

---

١ ـ الأنفال ٢٤
٢ ـ الأنبياء ٣٠
٣ ـ الرعد ١٧
٤ ـ النحل ٦٤

وقوله تعالى : « وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا »[1] انه عنى به القرآن وكقوله : « وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ »[2] وأجدر بصحة قوله تعالى فان الماء المنزل من السماء المختص بالطهارة الذي لا يسد غيره من المياه مسده هو هذا الماء أعني كلام رب العزة ، فأما المختص بطهارة البدن فقد يسد غيره مسده في الطهارة ، لأن الذي ينبع من الأرض يعمل عمله ، والذي يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلاث .

قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم .

وقوة الشهوة بقمعها حتى تحصل العفة والجود .

وقوة الحمية باستيلائها حتى ينقاد للعقل فيحصل الشجاعة والحلم فيتولد من اجتماع ذلك العدل : فجميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى الثلاث ، أما من فساد الفكرة فيتولد الجربزة والبله ، وأما فساد الشهوة فيتولد الشره أو خمود الشهوة ، وأما من فساد الحمية فيتولد التهور أو الجبن .

ومن حصول هذه الأشياء أو حصول بعضها يحصل : إما الظلم وإما الانظلام فجميع رؤوس الفضائل الخلقية أربعة ، وجميع رؤوس الرذائل الخلقية ثمانية .

---

١ ـ الفرقان ٤٨

٢ ـ الاسراء ٨٢

الباب الثالث عشر
﴿ بيان ملازمة الهوى للعقل ﴾

أعلم أن مثل الانسان في بدنه كمثل والٍ في بلده .

وقواه وجوارحه بمنزلة صناع وعمله .

والعقل له بمنزلة مشير عالم ناصح ، والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة . والحمية له كصاحب شرطة والعبد الجالب للميرة خبيث ماكر يتمثل للوالي بصورة الناصح وفي نصحه ذنب العقرب ، ويعارض الوزير في تدبيره ، ولا يغفل ساعة عن منازعته ومعارضته ، وكما أن الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث وأدب صاحب شرطته وجعله مؤتمراً لوزيره وسلطه على هذا العبد وتباعه حتى يكون هذا العبد مسوساً لا سائساً ، ومدبراً لا مدبراً ، استقام أمر بلده فكذا أيضاً النفس متى استعانت بالعقل في التدبير ، وأدّبت الحمية وسلطته على الشهوة وقواها ، استتب أمرها وإلا فسدت ، ولهذا قد حذرنا الله تعالى غاية الحذر من اتباع الهوى فقال : « وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ »[1] وقال تعالى في ذم من اتبعه : « أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ »[2] وقال : «أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب»[3] وقال

١ - ص ٢٦
٢ - الجاثية ٢٣
٣ - الأعراف ١٧٦

تعالى في مدح من أطاعه : «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ(١)» وقال عليه الصلاة والسلام : أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك . اشارة الى الهوى ، فالعقل وإن كان أشرف القوى وبه صار الانسان خليفة الله عز وجل في العالم فليس دأبه إلا الاشارة الى الصواب كطبيب يشير الى المريض بما يرى فيه برءه ، فان قبل منه المريض وإلا سكت عنه ، ولذلك جعل له الحمية لتكون نائبة عنه في المدافعة والممانعة ، ولهذا لا يتبين فضيلة العدل لمن لا حمية له ، ولهذا النظر قيل : المهين من لا سفيه له وقال:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتقي مِرْبضَ المستأسد الحامي

وأيضاً مثل النفس في البدن مثل مجاهد بعث الى ثغر يراعي أحواله وعقله خليفة مولاه ضم اليه ليسدده ويرشده ، ويشهد له وعليه بما يفعله إذا عاد الى حضرة مولاه ، وبدنه بمنزلة فرس دفع اليه ليركبه ، وشهوته سائس خبيث ضم اليه ليتعهد فرسه ولا قدرة لهذا السايس عند المولى ، والقرآن بمنزلة كتاب أتاه من مولاه وقد ضمن كل ما يحتاج اليه عاجلاً وآجلاً كما وصفه الله تعالى بقوله : «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً»(٢) وقوله : «مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ»(٣) والنبي عليه الصلاة والسلام بمنزلة رسول أتاه اليه بالكتاب ليبين له ما يشكل عليه مما يقرؤه من الكتاب ، وقبيح أن ينسى هذا الوالي مولاه ويهمل خليفته فلا يراجعه فيما يبرمه وينقضه ويصرف همه

١ - النازعات ٤٠
٢ - النحل ٨٩
٣ - الأنعام ٣٨

كله الى تفقد فرسه وسائسه ، ويقيم سايس فرسه مقام خليفة ربه .

ومن وجه آخر الانسان من حيث ما جعله الله تعالى عالماً صغيراً وجعل بدنه كمدينة .

والعقل كملك مدبر فيها .

وقواه من الفكر والخيال والحواس كجنده ، وأعوانه والأعضاء كرعيته .

والشهوة كعدو ينازعه في مملكته وسعى في إهلاك رعيته .

صار بدنه كرباط وثغر .

ونفسه كمقيم فيه مرابط .

فان جاهد أعداءه فهزمهم أو أسرهم أو قهرهم على ما يجب وكما يجب ، حمد أثره اذا عاد الى حضرته ، كما ضمنه تعالى حيث يقول: «فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا»[1] فَدِفَاعُ الهوى أعظم جهاد كما قال عليه الصلاة والسلام : وقد سئل أي الجهاد أفضل ؟ قال : « جهادك هواك » وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره إذا عاد اليه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ، وقال : « إن الله تعالى يقول للكافرين يوم القيامة : يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ، ولم تؤْوِ الضالة ولم تجبر الكسير ، اليوم انتقم منك » .

---

١ ـ النساء ٩٥

وأيضاً مثل العقل مثل فارس مُتصيِّد وشهوته كفرسه . وغضبه ككلبه .

فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضاً وكلبه معلماً فهو قمين بادراك حاجته من الصيد ، ومتى كان أخرق وفرسه جموحاً أو حروناً وكلبه عقوراً ، فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ، ولا كلبه يستلين معه مطيعاً ، فهو قمين أن يعطب فضلاً عن أن يدرك ما طلب .

وللانسان مع هواه ثلاثة أحوال الأولى : أن يغلبه الهوى فيملكه كما قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه »[1] **والثانية** : أن يغالبه فيقهره مرة ويقهره مرة أخرى ، وإياه قصده لمدح المجاهدين وعناه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » **والثالث** : أن يغلب هواه ككثير من الأنبياء وبعض صفوة الأولياء ، وهذا المعنى قصد بقوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ »[2] وقصد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « ما من أحد إلا وله شيطان ، وان الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكته ، فان الشيطان يتسلط على الانسان بحسب وجود الهوى فيه ، والله أعلم بالحقيقة » .

الباب الرابع عشر
﴿ الفرق بين ما يسومه العقل وبين ما يسومه الهوى ﴾

من شأن العقل أن يرى ويختار أبداً الأفضل والأصلح في

١ - الجاثية ٢٣
٢ - النازعات ٤٠

العواقب ؛ وإن كان على النفس في المبدء مؤونة ومشقة ، والهوى على الضد من ذلك فانه يؤثر ما يدفع به المؤذي في الوقت ، وإن كان يعقب مضرة من غير نظر منه في العواقب كالصبي الرمد الذي يؤثر أكل الحلاوات واللعب في الشمس على تناول الأهليلج والحجامة .

ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » وأيضاً فان العقل يرى صاحبه ما له وما عليه ، والهوى يريه ما له دون ما عليه ، ويعمي عليه ما يعقبه من المكروه ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « حبك الشيء يعمي ويصم » ولذلك ينبغي للعاقل أن يتهم رأيه أبداً في الأشياء التي هي له لا عليه ويظن انه هوى لا عقل ، ويلومه وينبغي أن يستفتي النظر فيه قبل إمضاء العزيمة حتى قيل : إذا أعرض لك أمران فلم تدر أيهما أصوب ، فعليك بما تكرهه لا بما تهواه فأكثر الخير في الكراهة ، قال الله تعالى : « وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ »[1] وقال : « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »[2] وأيضاً فان ما يرى العقل يتقوى إذا فزع فيه الى الله عز وجل بالاستخارة ، وتساعد عليه العقول الصحيحة إذا فزع اليها بالاستشارة وينشرح له الصدر إذا استعين فيه بالعبادة ، وما يراه الهوى فبالضد من ذلك ، وأيضاً فان العقل يرى ما يرى بحجة وعذر ، والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل ، وربما تشبه الهوى بالعقل فيتعلق بشبهة مزخرفة ومعذرة مموهة كالعاشق إذا سئل عن عشقه والمناول لطعام رديّ إذا سئل عن فعله ، قال بعض العلماء :

١ ـ البقرة ٢١٦
٢ ـ النساء ١٩

إذا مال العقل نحو مؤلم جميل ، والهوى نحو ملذ قبيح ، فيتنازعان بحسب غرضيهما ويتحاكمان الى القوة المدبرة بادر نور الله عز وجل الى نصر العقل ، ووساوس الشيطان الى نصر الهوى ، كما قال الله تعالى : « ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ »(١) فمتى كانت القوة المدبرة من أولياء الشيطان ومحبيه لم تر نور العقل فعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل على علم ، ومتى كانت من حزب الله وأوليائه اهتدت بنوره واستهانت بلذة العاجل وطلبت سعادة الآجل كما قال تعالى :« وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون »(٢) ومما نبه الله تعالى به على فساد الهوى قوله : « وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ »(٣) ، أي لو أعطى كل انسان ما يهواه مع ان كل واحد يهوى أن يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة ، وأن ينال في الدنيا الخير الأبدي بلا مزاولة ولا طلب لكان في ذلك فساد العالم . وقيل في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ »(٤) الآية . إنه ضرب الشجرة الطيبة مثلاً للعقل ، والخبيثة مثلاً للهوى ، ففرع الطيبة النور والاسلام ، وفرع الخبيثة الكفر والضلال ، إن قيل ما الفرق بين

---

١ - البقرة ٢٥٧

٢ - فضلت ٣٦

٣ ـ المؤمنون ٧١

٤ ـ ابراهيم ٢٤

الشهوة والهوى : قيل الشهوة ضربان : محمودة ومذمومة ، فالمحمودة من فعل الله سبحانه ، وهي قوة جعلت في الانسان لتنبعث بها النفس لنيل ما يظن ان فيه صلاح البدن ، والمذمومة من فعل البشر وهي استجابة النفس لما فيه لذاتها البدنية،والهوى هي هذه الشهوة الغالبة إذا استتبعت الفكرة ، وذلك ان الفكرة بين العقل والشهوة ، فالعقل فوقها والشهوة تحتها ، فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن ، وإذا اتضعت ومالت نحو الهوى والشهوة صارت وضيعة وولدت المقابح ، والنفس قد تريد ما تريد بمشورة العقل تارة ومشورة الهوى تارة ولهذا قد تسمى الهوى إرادة.

الباب الخامس عشر
﴿ في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة العقل والهوى ﴾

أول ما يعرض من ذلك السانح ، ثم الخاطر والى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وان للملك لمة ، فاما لمة الملك فوعد بالخير وتصديق الحق بالحق ، وأما لمة الشيطان فأبعاد بالشر وتكذيب بالحق - ثم قرأ : « ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ »[1] الآية ثم من بعدهما الارادة ، ثم العزم ، ثم العمل . فالسانح علة الخاطر ، والخاطر علة الارادة ، والارادة وهي الهمة علة العزم . فالسانح والخاطر يعبر عنهما بالهاجس ،

---

١ - البقرة ٢٦٨

والهاجس متجاوز عنه ما لم يصر إرادة وعزماً . فحق الانسان إذا خطر له خاطر أن يسيره عاجلاً ، فان وجده خير أرباه حتى يجعله فعلاً ، وإن وجده شراً بادر الى قمعه وقلعه قبل أن يصير إرادة ، ويطهر منه قلبه تطهير أرضه من خبيثات النبات ، وهذا المعنى أراده الحسن رحمه الله بقوله : رحم الله عبداً وقف عند همه ، فان كان الله عز وجل مضى ، والا كف . قال بعض الحكماء : إن تداركت الخطرة اضمحلت وإلا صارت شهوة ، وإن تداركت الشهوة وإلا صارت طلباً وإن تداركت الطلب وإلا صار عملاً . وقال بعض الحكماء : ان وليّ الله إذا أتته لمة الشيطان انزعج لذلك ورأى ببصيرته ظلمة ووجد روعة ، وإذا أتته لمة الرحمن انشرح صدره وأولياء الشيطان بخلافه لقوله تعالى : «وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ»[1] والله ولي الرشاد).

الباب السادس عشر
﴿ حصول الخلق المحمود بطهارة النفس ﴾

قد تقدم ان طهارة النفس باصلاح القوى الثلاث ، فاصلاح المفكرة بالتعلم حتى يتميز بين الحق والباطل في الاعتقاد ، وبين الصدق والكذب في المقال ، وبين الجميل والقبيح في الفعال ، وإصلاح الشهوة بالعفة حتى تسلس بالجود والمواساة المحمودة بقدر

١ ـ الزمر ٤٥

الطاقة ، وإصلاح الحمية باسلاسها حتى يحصل التحلم ، وهـو كف النفس عن قضاء وطر الغضب ، وتحصل الشجاعة وهـي كف النفس عن الخوف وعن الحرص المذمومين ، وباصلاح القوى الثلاث يحصل للنفس العدالـة والاحسـان ، وهـذه جمـاع المكارم من طهـارة النفس وحسن الخلق الممدوح بقوله عليه الصلاة والسلام : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً وألطفهم بأهلـه » ويعنـي باللطافـة بالأهـل : تهذيبهم وتأديبهم المشار اليه بقوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا »[1] والممـدوح أيضـاً بقولـه عليه الصـلاة والسلام : « أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقـاً الموطئـون أكنافـاً الـذين يألفون ويؤلفون » وقيل : جماع المكارم في قوله تعالى : « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون »[2] وذلك انه بالايمان يحصل العلـم والحكمة ، وذلك باصلاح الفكرة وبالمجاهدة بالأموال والأنفس تحصل العفة والجود اللذان هما تابعان لإصلاح الشهوة ، والشجاعة والحلـم اللذان هما تابعان لاصلاح الحمية وعلى ذلك قوله تعالى : « خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ »[3] وقـال النبـي عليه الصـلاة والسلام في تفسير ذلك : « هو أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك » فالعفو عمن ظلمك نهـاية الحلـم والشجاعـة . وإعطاء المال من حرمك نهاية الجود ، ووصل من قطعك نهاية الاحسان والله أعلم .

---

١ - التحريم ٥
٢ - النور ٦٢
٣ - الاعراف ١٩٩

الباب السابع عشر

﴿ الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة ﴾

الطبع أصله من طبع السيف ، وهو اتخاذ الصورة المخصوصة في الحديد ، وكذلك الطبيعة والضريبة اعتباراً بضرب الدراهم ، والنحيبة اعتباراً بالنحت ، والنجر : اعتباراً بنجر الخشب ، والغريزة : اعتباراً بما غرز عليه ، **كل ذلك اسم للقوة التي لا سبيل الى تغييرها** ، والشيمة اسم للحالة التي عليها الغريزة اعتباراً بالشامة التي في أصل الخلقة ، والسجية : اسم لما سجى عليه الانسان من قولهم عين ساجية ، أي فاترة خلقة ، وأكثر ما يستعمل ذلك كله فيما لا يمكن تغييره ، وأما الخلق ففي الأصل كالخلق كقولهم الشرب والشرب ، والصرم والصرم ، لكن الخلق يقال في القوى المدركة بالبصيرة ، والخلق في الهيئات والأشكال والصورة المدركة بالبصر ، **وجعل الخلق تارة اسماً للقوة الغريزية** ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « فرغ الله من الخلق » والخلق والرزق والأجل .

وتارة يجعل اسماً للحالة المكتسبة التي يصير بها الانسان خليقاً أن يفعل شيئاً دون شيء ، كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه ، ولهذا خص كل حيوان بخلق في أصل خلقته ، كالشجاعة للأسد ، والجبن للأرنب ، والمكر للثعلب .

ويجعل الخلق تارة من الخلاقة وهي الملاسة ، فكأنه اسم لما مرن

عليه الانسان من قواه بالعادة ، وقد روي أفضل الأفعال الخلق الحسن وروي ما أعطى الله أفضل من خلق حسن ، فجعل الخلق مرة للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر ، وجعل مرة اسماً للفعل الصادر عنه باسمه ، وعلى ذلك أسماء أنواعها : نحو العفة والعدالة والشجاعة ، فان ذلك يقال للهيئة ، وللفعل جميعاً .

وربما سمي الهيئة باسم ، والفعل الصادر عنها باسم كالسخاء والجود ، فإن السخاء اسم للهيئة التي عليها الانسان ، والجود اسم للفعل الصادر عنها ، وإن كان قد يسمى كل واحد باسم الآخر .

وأما العَادة فاسم لتكرر الفعل ، أو الانفعال من عاد يعود ، وبها يكمل الخلق ، وليس للعادة فعل إلا تسهيل خروج ما هو بالقوة في الانسان الى الفعل ، وأما حدوث السجية الى خلاف ما خلقت له فمحال ، فالسجية فعل الخالق عز وجل ، والعادة فعل المخلوق ، ولا يبطل فعل المخلوق فعل الخالق ، لكن ربما يقوي العادة قوة محكمة حتى تعد سجية ، وبهذا النظر قيل : العادة طبيعة ثانية .

الباب الثامن عشر
﴿ إمكان تغير الخلق ﴾

إختلف الناس في الخلق فقال بعضهم : هو من جنس الخلقة ولا يستطيع أحد تغيير ما جبل عليه ان خيراً وإن شراً كما قال :

ولن يستطيع الدهر تغيير خلقه * لئيم ولا يسطيعه متكرم
وما هذه الأخلاق إلا غرائز * فمنهن محمود ومنها مذمم

ويعلق أيضاً بقوله عليه الصلاة والسلام : « من آتاه الله وجهاً حسناً وخلقاً حسناً فليشكر الله » وما روي فرغ الله من الخلق ، والخلق الخبر ، فمحال أن يقدر المخلوق على تغيير فعل الخالق عز وعلا ، فقال بعضهم : يمكن تغيير ذلك ، واستدل بما روي : « حسنوا أخلاقكم » فلو لم يكن لما أمر به قال : ولأن الله تعالى خلق الأشياء على ضربين : أحدهما بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملاً كالسماء والأرض والهيئة والشكل . والثاني خلقه خلقة وما جعل فيه قوة ترشح الانسان لإكماله وتغيير حاله ، وإن لم ترشحه لتغيير ذاته كالنوى الذي جعل فيه قوة النخل ، وسهل للانسان سبيلاً الى أن يجعله بعون الله تعالى نخلاً ، وأن يفسده إفساداً قال : والخلق من الانسان يجري هذا المجرى في انه لا سبيل للانسان الى تغيير القوة الى أن تصير سجية ، وجعل له سبيلاً الى أسلاسها ، ولهذا قال تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا »[1] ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والأمر والنهي ، ولما جوز العقل أن يقال للعبد لما فعلت ولم تركت ، وكيف يكون هذا في الانسان ممتنعاً وقد وجدنا في بعض البهائم ممكناً ، فالوحشي قد ينتقل بالعادة الى الناس ، والجامح الى السلاسة ، لكن الناس في غرائزهم مختلفون ، فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول ، وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول ، وبعضهم في الوسط ، وكل لا ينفك من أثر قبول وان قل ، فأرى أن من منع من تغيير الخلق ، فانه اعتبر القوة نفسها وهذا صحيح ، فان النوى محال أن ينبت منه الانسان تفاحاً .

---

١ ـ الشمس ٨

ومن أجاز تغييره ، فإنه اعتبر إمكان ما في القوة الى الوجود وإفسادهما له نحو النوى ، فانه يمكن أن يتعهد فيجعل نخلاً ، وأن يترك مهملاً حتى يعفن ويفسد ، وهذا صحيح أيضاً فإذن اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما .

الباب التاسع عشر
﴿ صعوبة إصلاح القوى الشهوية وما في هذه من المضرة والمنفعة ﴾

أصعب هذا القوى الثلاث مداواة قَمْعُ الشهوة ، لأنها أقدم القوى وجوداً في الانسان ، وأشدها به تشبثاً وأكثرها منه تمكناً ، فانها تولد معه وتوجد فيه وفي الحيوان الذي هو جنسه ، بل في النبات الذي هو جنس جنسه ، ثم يوجد فيه قوة الحمية ، ثم آخراً توجد فيه قوة الفكر والنطق والتمييز ، ولا يصير الانسان خارجاً من جملة البهائم وأسر الهوى إلا بإماتة الشهوة البهيمية لو بقهرها وقمعها ، إن لم يمكنه إماتته إياها ، فهي التي تضره وتغره وتصرفه عن طريق الآخرة .

ومتى قمعه ، أو أماته صار الانسان حراً نقياً بل يصير إلهيا ربانيا ، فتقل حاجاته ويصير غنياً عما في يد غيره ، وسخياً بما في يده ، ومحسناً في معاملاته ، فان قيل : فاذا كانت قوة الشهوة بهذه المثابة في الإضرار فأيّ حكمة اقتضت أن يبلى بها الانسان ؟ قيل : الشهوة إنما تكون مذمومة إذا كانت مفرطة وأهملها صاحبها حتى ملكت القوى ،

فأما إذا أُدِّبَتْ فهي المبلغة الى السعادة وجوار رب العزة ، حتى لو تصورت مرتفعه لما أمكن الوصول الى الآخرة وذاك ان الوصول الى الآخرة بالعبادة ولا سبيل الى العبادة إلا بالحياة الدنيوية ، ولا سبيل الى الحياة الدنيوية إلا بحفظ البدن ، ولا سبيل الى حفظ البدن إلا باعادة ما يتحلل منه ، ولا سبيل الى إعادة ما يتحلل منه إلا بتناول الأغذية ، ولا يمكن تناول الأغذية إلا بالشهوة ، فاذن الشهوة محتاج اليها ومرغوب فيها . وتقتضي الحكمة الالهية إيجادها وتزيينها كما قال تعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ »[1] الآية ، لكن مثلها مثل غدو وتخشى مضرّته من وجه ، وترجى منفعته من وجه ، ومع عداوته لا يستغنى عن الاستعانة به ، فحق العاقل أن يأخذ نفعه ، ولا يسكن اليه ولا يعتمد عليه إلا بقدر ما ينتفع به .

وما أصدق في ذلك قول المتنبي إذ تصور في وصف الشهوة ، وإن قصدها ، فما أجود ما أرادها شعر.

ومن نَكَدِ الدنيا على الحرِّ أن يَرى * عَـدوًّا لهُ ما مِنْ صدِاقتـه بُدُّ

وأيضاً فان هذه الشهوة هي المشوقة لعامة الناس الى لذات الجنة ، من المأكل والمشرب والمنكح ، إذ ليس كل الناس يعرف اللذات المعقولة ولو توهمناها مرتفعة لما تشوقوا الى ما وعدوا به من قول النبي صلى الله عليه وسلم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

---

١ ـ ال عمران ١٤

الباب العشرون
﴿ في ازدياد الانسان في الفضائل والرذائل بتعاطيهما ﴾

كلٌّ متعاطٍ لفعل من الأفعال النفيسة فانه يتقوى فيه بحسب الازدياد منه ، إنْ خيراً فخيراً ، وإن شراً فشراً ، فباحتمال صغار الأمور يمكن احتمال كبارها ، وباحتمال كبارها يستحق الحمد ، ولهذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : الايمان يبدو نكتة بيضاء في القلب كلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض ، وإذا استكمل العبد الايمان إبيض القلب كله ، وإن النفاق يبدو لمعة سوداء ، كلما ازداد النفاق اسود القلب كله ، فالانسان يكمل في الفضيلة بأربع درجات : **اثنين في الاعتقاد** : وهما أن يعتقد الجميل ويجعل اعتقاده عن براهين واضحة وأدلة قاطعة لا عن شبهات واهية وإقناعات متداعية . **واثنين في الفعل** وهما : أن يترك العادات السيئة فيجعلها بحيث يبغضها فيتجنب الرذيلة ليتوصل الى الفضيلة ، وأن يتعود العادات الحسنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعم بها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » وكما أنه يكمل بأربع درجات . **فانه ينتكس بأربع درجات** : درجتين في الاعتقاد .

وهما : أن لا يعتقدشيئاً من العلوم الحقيقية فيبقى عنها غافلاً ، وأن يعتقد عن تقليد إعتقاداً فاسداً فيتلطخ به .

ودرجتين في العمل وهما : أن لا يتعود العادة الجميلة رأساً ، وأن يتعود العادة القبيحة ، فمن صار في الفضيلة الى الدرجة الرابعة فهو ممن شرح الله صدره للاسلام ، فهو على نور من ربه.

ومن صار في الرذيلة الى الدرجة الرابعة فهو من الذين وصفهم الله بقوله : « أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ »[1] ثم قال : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ »[2] وقيل لحكيم : ألا تعظ فلاناً ؟؟ فقال : ذاك على قلبه قفل ضاع مفتاحه ، فلا سبيل الى معالجة فتحه ، وللانسان مع كل فضيلة ورذيلة ثلاثة أحوال :

إما أن يكون في ابتدائها فيقال : هو عبدها وابنها ولهذا قال بعضهم : من لم يخدم العلم لم يرعه ، والثاني : أن يتوسطها فيقال : هو أخوها وصاحبها ، والثالث : أن ينتهي فيها بقدر وسعه ويتصرف فيها كما أراد فيقال : هو ربها وسيدها ، ومنه قيل : فلان رباني في العلم ، فان رب الشيء هو الذي يربيه ، وسيده هو الذي يملك سواده أي جميعه ، وغاية الفاضل في الفضيلة أن يقع منه أفعال الفضائل أبداً من غير فكر ولا روية، لغلبة قواها عليه وبعد ما ينافيها عنه كالصانع الحاذق في صنعته ، وغاية الرذل في الرذيلة أن يقع منه أفعال الرذائل لغلبة قواها عليه ، ولهذا حُدَّ الخُلُقْ : بأنه حال الانسان الداعية الى الفعل من غير فكر ولا روية .

---

١ ـ محمد ٢٣

٢ ـ محمد ٢٤

الباب الحادي والعشرون
﴿ في الفرق بين ما يحمد ويذم من التخلق ﴾

الفرق بين الخلق والتخلق .

إن التخلق معه استثقال واكتساب ويحتاج الى بعث وتنشيط من خارج .

والخلق معه استخفاف وارتياح ولا يحتاج الى بعث من خارج .

والتخلق والتشبه بالأفاضل ضربان :

ضرب محمود : وذلك ما كان على سبيل الارتياض والتدريب ويتحراه صاحبه سراً وجهراً على الوجه الذي ينبغي ، وبالمقدار الذي ينبغي واياه قصد الشاعر بقوله :

ولن تستطيع الخلق حتى تخلقا * بل قد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « ما العلم إلا بالتعلم وما الخلق إلا بالتخلق » .

وضرب مذموم وذلك ما كان على سبيل المراءآة ولا يتحرى صاحبه إلا حيث يقصد أن يذكر به ، ويسمى ذلك رياء وتصنعاً وتشيعاً ولن ينفك صاحبه من اضطراب يدل على تشيعه ، كما وجد في كتاب كليلة : الطبع المتكلف كلما زدته تثقيفاً زاد تعقيفاً وعلى ذلك قول الشاعر :

وأسرع مفعول فعلت تغيراً * تكلف شيء في طباعك ضده

واياه قصد عمر رضي الله عنه بقوله : من تخلق للناس بغير ما فيه فضحه الله عز وجل ، وحال المتشيع كالجرح يندمل على فساد ، فلا بد أن ينبعث وإن كان بعد حين كما قيل :

فان الجرح ينفر بعد حين * إذا كان البناء على فساد

وكما أن العضو المفلوج لا يطاوع صاحبه في تحريكه ، وإن جاهد ، فمتى حرك الى اليمين تحرك نحو الشمال ، وكذا أيضاً الشره والظلوم والمتهور ، وإن جاهدوا أنفسهم في اخفائها فان قواهم تأبى مطاوعتهم ، وقد ذم النبي عليه الصلاة والسلام ذلك بقوله : « المتشيع بما ليس عنده كلابس ثوبي زور » تنبيهاً على انه كاذب بقوله وفعله فيتضاعف وزره وقد حمل على ذلك قوله تعالى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ » [1] وإياه قصد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء » وأقبح الرياء النفاق في الدين ، وأقبح النفاق ما كان في أصل الاعتقاد وهو إظهار الايمان مع استبطان الكفر ، ولذلك جعل الله عقابهم أعظم فقال : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار »[2].

الباب الثاني والعشرون
﴿ في سبب اختلاف الناس في أخلاقهم ﴾

جميع الفضائل النفسية ضربان : نظري وعملي . وكل ضرب

١ - يوسف ١٠٦ ٢ - النساء ١٤٥

منهما يحصل على وجهين :

أحدهما بشريّ يحتاج فيه الى زمان وتدرب وممارسة ويتقوى الانسان فيه درجة فدرجة ، وإن كان فيهم من يكفيه أدنى مدارسة وفيهم من يحتاج الى زيادة ممارسة ، وذلك بحسب اختلاف الطبائع والذكاء والبلادة .

والثاني يحصل بفضل إلهي نحو أن يولد انسان فيصير من غير تعلم من البشر عالماً كعيسى بن مريم ، ويحي بن زكريا عليهما السلام ، وغيرهما من الأنبياء الذين حصل لهم من المعارف من غير ممارسة ما لم يحصل للحكماء ، وقد ذكر بعض الحكماء أن ذلك يحصل لغير الأنبياء أيضاً في الغيبة ، فكل ما كان بتدرب فقد يكون بالطبع ، كصبي يوجد صادق اللهجة سخيا وجريئاً ، وآخر على عكس ذلك ، وقد يكون بالتعلم وبالعادة ، فمن صار فاضلاً طبعاً وعادة وتعلماً ، فهو كامل الفضيلة ، ومن كان رذلاً بثلاثتها فهو كامل الرذيلة .

الباب الثالث والعشرون
﴿ وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة ﴾

حق الانسان في كل فضيلة أن يكتسبها خلقاً ، ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك سواء أمكنه أن يبرز ذلك فعلاً ، أو لم يمكنه ، وذلك بأن يكون على هيئة الأسخياء والشجعان والحكماء والعدول ، وإن لم يكن ذا مال يبذله ، ولا عرض له مقام تظهر فيه

نجدته ، ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيه عدالته ، فقد قيل لبعض الحكماء : هل من موجود يعم الورى ؟ فقال : نعم ان تحسن خلقك وتنوي لكل أحد خيراً وقال عليه الصلاة والسلام : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم ».

واعلم ان كل فعل محتاج فيه الى إيجاده وتجويده وتزيينه دنيوياً كان أو أخروياً ، ولكن متى كان أخروياً يحتاج فيه مع ذلك الى أمور لا يتم ولا يكمل إلا بها ، وهو أن يحب أن يتعاطاها قصداً الى المكرمة والا لم يعتد بها ، كما قال تعالى : « وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ »[1] وأن يتحراه بخلوص طوية ، كما قال تعالى :« وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ »[2] وأن لا يقصد به جلب منفعة دنيوية أو دفع مضرة ، فانه يكون بفعله ذلك تاجراً . ويجب عند بعض المحققين أن لا يطلب به منفعة أخروية أيضاً فقد قيل : من عبد الله تعالى بعوض فهو لئيم ، ومن فعل ذلك بانشراح صدر فهو أولى ممن يفعله بمجاهدة نفس ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « إن استطعت أن تعمل لله في الرضا باليقين فاعمل وإلا ففيَ الصبر على ما يكره خير كثير ». وقولهم : الحق مر فهو باعتبار من لم تتهذب نفسه ولم يزل مرضه شعر :

فمن يك ذا فم مرٍّ مريضاً * يجد مراً به الماء الزلالا

وأما من كمل فانه يستطيب الحق وإن كان ثقيلاً ، كما قال النبي

---
١ - البقرة ٢٦٥
٢ - البنيه ٢

صلى الله عليه وسلم : « وجعلت قرة عيني في الصلاة ». ومن أصلح خلقه وهذب نفسه فهو أعظم الملكين . فمن ملك نفسه وقواه فهذبها وزكاها فقد أطلع بذلك على ملكوت السموات والأرض وملك أطوع جيش بلا عطاء يلزمه وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله : « إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ »[1] فجعل النبوة مخصوصة فيهم وجعل الملك عاماً لهم تنبيهاً على المعنى الذي ذكرت وعلى ذلك قوله تعالى : «أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا »[2] ونذكر بعد ذلك أنواع نعم الله تعالى وما يكتسب منها ، والله ولي الفضل والاحسان .

الباب الرابع والعشرون

﴿ نعم الله الموهوبة والمكسوبة ﴾

نعم الله عز وجل وإن كانت لا تحصى مفصلة كما قال الله تعالى : « وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ »[3] فانها بالقول المجمل خمسة أنواع :

الأول: وهو أعلاها وأشرفها السعادة الأخروية وإياها قصد تعالى بقوله : « وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

١ - المائدة ٢٠
٢ - النساء ٥٤
٣ - ابراهيم ٣٤

وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »[1] وذلك هو الخير المحض والفضيلة الصرف وهو أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وعلم بلا جهل ، وقدرة بلا عجز ، وغنى بلا فقر ، ولا يمكن الوصول الى ذلك إلا باكتساب الفضائل النفيسة واستعمالها كما قال تعالى : « وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا »[2] وأوصل ذلك الى أربعة أشياء : العقل وكماله العلم ، والعفة وكمالها الورع ، والشجاعة وكمالها المجاهدة ، والعدالة وكمالها الانصاف ، وهي المعبر عنها بالدين ويكمل ذلك بالفضائل البدنية وهي أربعة أشياء : الصحة والقوة والجمال وطول العمر ، وبالفضائل المطيفة بالانسان وهي أربعة أشياء : المال والعز والأهل وكرم العشيرة ، ولا سبيل الى تحصيل ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل وذلك بأربعة أشياء : هدايته ورشده وتسديده وتأييده . فجميع ذلك خمسة أنواع من عشرين ضرباً ليس للانسان مدخل في اكتسابها إلا فيما هو نفسي فقط .

واعلم ان الفضيلة الكاملة والسعادة الحقيقية هي الخيرات الأخروية ، وأما ما عداها فتسميته بذلك إما لكونه معاوناً في بلوغ ذلك أو نافعاً فيه ، وكل ما أعان على خير وسعادة ، فهو خير وسعادة وهذه الأشياء التي هي معينة ونافعة في بلوغ السعادة الأخروية متفاوتة الأحوال ، فمنها ما هو نافع في جميع الأحوال وعلى كل وجه ، ومنها ما هو نافع في حال دون حال وعلى وجه دون وجه ، ربما يكون ضرّه أكثر

---

١ - هود ١٠٨
٢ - الاسراء ١٩

من نفعه ، فحق الانسان أن يعرفها بحقائقها حتى لا يقع الخطأ عليه في اختياره الوضيع على الرفيع ، وتقديمه الخسيس على النفيس فالناس في متحرياتها طالب لخير ، وهارب من شركما قال :

كل يحاول حيلة يرجو بها * دفع المضرة واجتلاب المنفعة
والمرء يغلط في تصرف حاله * فلربما اختار العناء على الدعه

لكن قد يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، ويقدر في الشيء انه رزق نافع وحشوه سم ناقع ، فلذلك يحق على العاقل أن يجلي بصيرته ويعرف من كل ما يطلب حقيقته لئلا يكون كمن يريد حبلاً يتنطق به فرأى حية فظنها مبتغاه فأخذها فلدغته .

وقد قسمت الخيرات على وجه آخر فقيل : الخيرات ثلاث مؤثرة لذاتها ، ومؤثرة لغيرها ، ومؤثرة تارة لذاتها ، وتارة لغيرها .

فالمؤثرة لذاتها : السعادة الأخروية ، والنفسية .

والمؤثرة لغيرها : الدراهم والدنانير ، فانا لو تصورنا ارتفاع الضرورات التي يستدفع بها لكانت هي والحصباء سواء .

والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها ، كصحة الجسم ، فمعلوم ان الرجل وإن أزيلت للمشي فالانسان يريد أن يكون صحيح الرجل ، وإن استغنى عن المشي ، ويقال أيضاً الخيرات ثلاث ، نافع وجميل ولذيذ . والشرور ثلاث: ضار وقبيح ومؤلم ، وكل واحد من ذلك ضربان :

أحدهما : مطلق وهو الذي يجمع الأوصاف الثلاثة في الخير ،

كالحكمة فانها نافعة جميلة ولذيذة ، وفي الشر كالجهل ، فانه ضار وقبيح ومؤلم ، والثاني مقيد ، وهو الذي جمع شيئاً من أوصاف الخيرات وشيأ من أوصاف الشرور ، فرب نافع مؤلم كجدع قصير انفه ، فانـه وإن نفعه في إدراك الثأر فقد آذاه .

ورب نافـع قبيح كالحمـق ، فانـه وإن نفـع من حيث ما قيل استراح من لا عقل له ، فهو جد قبيح .

ورب نافع من وجه ضار من وجه ، كمن في سفينة فخاف الغرق فألقى متاعه في الماء فخلصت السفينة ، وكل ما نفعـه ولذتـه وجمالـه أطول مدة وأغمر عائدة فهو أفضل .

فحق العاقل أن يرغب الى الله تعالى في أن يعطيه ما فيه مصلحة مما لا سبيل له بنفسه الى اكتسابه ، وأن يبذل جهده مستعينـاً بالله عز وجل في اكتساب ماله وكسبه ، وبلوغ الأعلى فالأعلى منه على الترتيب ، فبذلك يشرف من ضيع أنفس السنيات مع التمكن من تحصيله ، فهو دني الهمة راض بخسيس الحال ، وأشرفها ما إذا حصل لم يغضب ولم يحتج في حفظه الى أعوان وحفظة ، وكان نافعاً عاجلاً وآجلاً ومطلقاً في كل حال وكل زمان ومكان وذلك هو الفضائل النفسية ولا سيما العقل والعلم ، فأما القنيات الخارجة نحو المال والجـاه ، فانهـا يقـال لهـا : الخيرات المتوسطة ، لأنها تنجذب الى الفضيلة مرة والى الرذيلة مرة لأنها سبب للخيرات إذا كانت مع العقل ، وسبـب للشرور إذا كانـت مع الجهل ، وقد نبه الله تعالى على كون ذلك سببـاً للشر بقولـه : «إِنَّمَآ

أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ »[1] وقوله: وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ ولا أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا »[2] ولـذلك قيل السعيد هو الخير العاقل ، غنياً كان أو فقيراً ، قوياً كان أو ضعيفاً .

إن قيل ما الخير والسعادة والفضيلة والنافع وهل بينهن فرق ؟ قيل : أما الخير المطلق فهو المختار من أجل نفسه ، والمختار غيره لأجله وهو الذي يتشوقه كل عاقل بل قد قيل : هو الذي يتشوقه الـكل بلا مثنوية ، فان الكل يطلب في الحقيقة الخير ، وان كان قد يعتقد في الشر انه خير فيختاره فمقصده الخير ويضاده الشر وهو المحبوب من أجل نفسه والمحبوب غيره من أجله قال النبي عليه الصلاة والسلام : « لا خير في خير بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة » .

فجعل الخير المطلق الجنة ، والشر المطلق النار كما ترى ، فقـد يقال : لكل ما يتوصل به الى الخير خير ولهذا سمى الله تعالى المال خيراً في قوله : « إن تَرَكَ خَيْرًا »[3] لكن المال في الحقيقة يكون خيراً لبعض الناس ، وشراً لبعضهم فمعلوم انه كان شراً لمن قال تعالى فيه : « الذي جمع مالاً وعدده يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ »[4] وأما السعادة المطلقة فحسن الحياة في الآخرة وهي الأربع التي تقدم ذكرها من : البقاء بلا فناء ، والقدرة بلا عجز ، والعلم بلا جهل ، والغنى بلا فقر . وقد يقال : لما يتوصل به الى هذه السعادات الأربع سعادة وهي الستة عشر المتقدمـة ويضادها الشقاوة.

---

١ ـ التغابن ١٤
٢ ـ التوبة ٨٥
٣ ـ البقرة ١٨٠
٤ ـ الهمزة ٢

وأما الفضيلة فاسم لما يحصل به للانسان مزية على الغير ، وهي إسم لما يتوصل به الى السعادة ويضادها الرذيلة ، وأما النافع فهو ما يعين على بلوغ الفضيلة والسعادة والخير والنافع في الشيء ضربان : ضروري وهو ما لا يمكن الوصول الى المطلوب إلا به كالعلم والعمل الصالح للمكلفين في البلوغ الى النعيم الدائم ، وغير ضروري وهو الذي قد سد غيره مسده كالسكنجبين في كونه نافعاً في قمع الصفراء ، فان ذلك قد يسد غيره مسده وكل نافع يسمى فضيلة وسعادة وخيراً ، لكونه مبلغاً الى ذلك وموصلاً اليه .

الباب الخامس والعشرون
﴿ حاجة بعض هذه الفضائل الى بعض ﴾

قد ثبت بما تقدم ان الخيرات والفضائل خمسة أنواع : أخروية ، ونفسية ، وبدنية وخارجية ، وتوفيقية ، فيجب أن يعلم أن بعض ذلك محتاج الى بعض إما حاجة ضرورية يجب لو لم يوجد لاختل حال الآخر ، وذلك أن السعادة الحقيقية الأخروية لا سبيل الى الوصول اليها إلا باكتساب الفضائل النفسية ولذلك قال تعالى : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » فنبه انه لا مطمع لمن أراد الوصول اليها إلا بالسعي ، ولا سبيل الى تحصيل الفضائل النفسية إلا بصحة البدن وقوته ، وانه لا غنى لكمال الفضائل النفسية والبدنية عن الفضائل الخارجية ، فانه وإن أمكن أن يتصور

حصولها لمن لا أهل له ولا مال له ولا عشيرة ، فانه لا يكمل إلا بها.

الباب السادس والعشرون
﴿ الفضائل المطيفة بالانسان ﴾

قد تقدم ان ذلك بالقول المجمل أربعة أشياء: المال ، والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة ، وان هذه الأشياء نافعة في بلوغ الفضيلة الحقيقية والسعادة الأخروية وجارية مجرى الجناح المبلغ ، وانه لم تكن الحاجة اليها في بلوغ ذلك ضرورية .

فأما المال ، فصاحبه يتمكن من فضائل إذا فقده ثكل بلوغها ، فمعلوم أن كثيراً من القرب كالزكاة والحج يثكله الفقير ، فالفقير في تحري المكارم * كساع الى الهيجاء بغير سلاح * وكباز متصيد بلا جناح .

وفضله مغطى كماء تحت الأرض ونار كامنة في الصخر وما أصدق ما قال الشاعر

والمرء يرفعه الغنى * والفقر منقصة وذل

وقول الآخر :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله * ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إني أسألك

الهدى والتقى والعفة والغنى » وقال صلى الله عليه وسلم : « نعم العون على تقوى الله المال » **وأما الأهل** فنعم العون على بلوغ السعادة فمن كثر أهله وخالصوه صار له بهم عيون وآذان وأيدٍ قال الله تعالى حاكياً عن لوط صلى الله عليه وسلم : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ »[1] قال الشاعر :

ألـم تر ان جمـع القـوم يخشى وان حريم واحدهـم مباح

وقال عليه الصلاة والسلام في نفع الولـد : « إذا مات الرجـل انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولـد صالح يدعو له » .

وقال : « ريح الولد من رائحة الجنة » وقال : « نعم العون على الدين المرأة الصالحة » فالمرأة مزرعة الرجل قبضها الله تعالى ليزرع فيها زرعه كما قال تعالى : « نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ »[1] وقال تعالى« ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا »[2] **وأما العز** فبه يتأبى عن تحمل الذل ومن لا عز له لا يمكنه أن يذود عن حريمه ، ولذلك قيل : الدين والسلطان إخوان توأمان وقريبـان مؤتلفـان ومـؤديان الى عمارة البلاد وصلاح العباد : وقيل : « الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع . وسمى الله تعالى الحجة سلطاناً لقهرها أولي البصائر وقال عز اسمه : « وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ

---

١ ـ البقرة ٢٢٣

٢ ـ النساء ١١

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ »[1] **وأما كرم العشيرة فإنه يقال له :** الحسب والشرف أخص بمآثر الآباء والعشيرة ، ولذلك قيل : العلوية أشراف ، ومن الناس من لا يعد الأصل فضيلة ، وقيل : المرء بنفسه ، واستدل بقول عليّ أمير المؤمنين رضي الله عنه : **الناس أبناء ما يحسنون** وقوله : **قيمة كل امرىء ما يحسنه** وقول الشاعر :

كن ابـن من شئت واكتسب أدباً * يغنيك محمـوده عن النسب

وقول الحكيم : الشرف بالهمم العالية لا بالعظام البالية ، وليس ذلك كما ظن ، لأن كرم الأعمام والأخوال مخيلة لكرم المرء ومظنـة له فالفرع وإن كان قد يفسد أحياناً فمعلوم ان أصله قد يورثه الفضيلة والرذيلة فانه لا يكون من النخل الحنظل ، ولا من الحنظل النخل ، ولذلك قال الشاعر :

ومـا يك من خـير أتـوه فانما * توارثـه آبـاء آبائهـم قبل
وهل ينبت الخطـيّ الأوشيجة * وتغرس إلا في منابتهـا النخل

وقيل :

ان السريّ إذا سرى فبنفسه * وابـن السري إذا سرى أسراهما

ويبين ذلك أن الأخلاق نتايج الأمزجة ، ومزاج الأب كثيراً ما يتأدى الى الابن كالألوان والخلق والصور ، ومن أجل تأديها اليه قال صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم الأكفاء ، وقـال : « إياكم وخضراء الدمن قيل : يا رسول الله وما خضراء الدمـن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء » وما ذكر من نحو قول أمير المؤمنين علي رضي

---

١ ـ البقرة ٢٥١

الله عنه، الناس أبناء ما يحسنون. فحث به الانسان على اقتباس العلى ، ونهى عن الاقتصار على مآثر الآباء ، وأن المآثر الموروثة قليلة الغناء ، سريعة الفناء ما لم تضم معها فضيلة النفس ، لأن ذلك إنما حمد لكي يوجد الفرع مثله ومتى أخلف الفرع وتخلف ، فكأنه يخبر بأحد شيئين : إما بتكذيب من يدعي الشرف بعنصره ، أو بتكذيبه في انتسابه الى ذلك العنصر ، وما فيهما حظ المختار والمحمود : أن يكون الأصل في الفصل راسخاً ، والفرع به شامخاً كما قال الشاعر :

زانوا قديمهم بحسن حديثهم * وكريم أخلاق بحسن خصال

ولم يجتمع له الأمران فلأن يكون شريف النفس دنيٌّ الأصل ، أحمدَ من أن يكون دني النفس شريف الأصل كما قيل :

إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبة * من المثمرات اعتده الناس في الحطب

فما الحسب الموروث لا درّ دره * بمحتسب لا بآخر مكتسب

وما كان عنصره في الحقيقة سنيا وفي نفسه دنيا ، فذلك أتى إما من إهماله نفسه وسومها ، وإما لتعوده عادات قبيحة وصحبة أشرار وغير ذلك من العوارض المفسدة للعناصر الكريمة ، فليس سببه سبباً واحداً .

الباب السابع والعشرون
﴿ الفضائل الجسمية ﴾

قد اشتهر قوم بذلك فقالوا : كفى بالمرء أن يكون صحيح البدن

بريئاً من الأمراض الشاغلة عن تحري الفضائل العقلية ، وليس كذلك فالبدن للنفس بمنزلة الآلة للصانع ، والسفينة للربان اللذين بهما صار صانعاً ورباناً . وجميع أجزاء البدن بالقول المجمل أربعة : العظام التي تجري للبدن كالألواح للسفينة ، والعصب الذي يجري له مجرى الرباط الذي شد به الألواح ، واللحم الذي يجري له مجرى الحشو للرباطات ، والجلد الذي يجري مجرى الغشاء لجميعها ، فاذا اعتدلت هذه الأربعة بأن يعتدل فيها الأربع القوى وهي : الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة ، سمي ذلك الصحة ، ولولا صحة البدن لما حصل الانتفاع ، وأما القوة فهي جودة تركيب هذه الأركان الأربعة وهي : العظام والعصب واللحم والجلد ، وما يتبعها وبها يصلح البدن للسعي والتصرف في أمور الدنيا والآخرة ، **وأما الجمال فنوعان** :

أحدهما امتداد القامة الذي يكون عن اعتدال الحرارة الغريزية ، فان الحرارة إذا حصلت رفعت أجزاء الجسم الى العلو كالنبات إذا نجم كلما كان أطلب للعلو في منبته كان أشرف في جنسه ، والاعتبار بذلك استعمل في كل ما جاد في جنسه العالي والفائق وكثر المدح بطول القامة نحو قولهم :

أشيم طويل الساعدين كأنما * يناط نجادا سيفه بلواء

الثاني من الجمال : أن يكون معدوداً قوي العصب طويل الأطراف ممتدها ، رحب الذراع غير مثقل بالشحم واللحم كما قال :

متى قدّ قد السيف لا متضائل * ولا زهل لباته وبآدله

ولا نعني بالجمال ههنا ما يتعلق به شهوة الرجال والنساء ، فذلك

أنوثية ، وإنما نعني به الهيئة التي لا تنبو الطباع عن النظر اليها ، وهو أدل شيء على فضيلة النفس ، لأن نورها إذا أشرق تأدى الى البدن إشراقها ، وكل شخص فله حكمان :

أحدهما من قبل جسمه : وهو منظره.
والآخر من قبل نفسه : وهو مخبره .

وكثيراً ما يتلازمان ، ولذلك فزع أصحاب الفراسة في معرفة أحوال النفس أولا : الى الهيئات البدنية حتى قال بعض الحكماء : قل صورة حسنة يتبعها نفس ردية ، فنقش الخواتيم مقروء من الطين ، وطلاقة الوجه عنوان ما في النفس ، وليس في الأرض شيء إلا ووجهه أحسن ما فيه ، قال النبي عليه الصلاة والسلام: « أطلبوا الحاجات من حسان الوجوه » . وقال عمر رضي الله عنه : إذا بعثتم رسلاً فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم ، فالوجه والعين يظهر فيهما آثرا النفس كالمرآة يستدل بها عليها ، ولذلك يظهر فيهما أثر سرور النفس وحزنها ورضاها وسخطها ، ولذلك عبر بالوجه عن الجملة وعن رئيس القوم بفلان وجه القوم وعينهم حتى قال تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »[1] وكون الوجه المقبول في دلالته على فضيلة النفس ، وإن لم يكن حكماً لازماً فهو على الأعم والأكثر . وحكي أن المأمون استعرض جيشاً فمر به رجل قبيح الوجه فاستنطقه فرآه ألكن فأمر باسقاطه وقال : إن الروح إذا كانت ظاهرة كانت صباحة ، وإذا كانت باطنة كانت فصاحة ، وأراه لا ظاهر له ولا باطن ، وكفاك من البيان في فضل

---

١ ـ القصص ٨٨

كمال الجسم قول الله تعالى : «إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ »[1] وقال : «وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ»[2] **وأما طول** العمر فلولاه لقل حظ الانسان من السعادات الدنيوية التي لولاها لما نيلت السعادة الأخروية والله ، وليّ الفضل والاحسان وعليه المعوّل والتكلان .

الباب الثاني والعشرون
﴿ ما يتولد من الفضائل النفسية ﴾

أمهات الفضائل النفسية وإن كن أربعاً فلها بنات هن أمهات لفضائل آخر ، وبيان ذلك : ان العقل متى تقوى تولد من حسن نظره جودة الفكر وجودة الذكر ، ومن حسن فعله الفطنة وجزالة الرأي ، وتولد من اجتماع أربعتها جودة الفهم وجودة الحفظ ، والشجاعة متى تقوّت تولد منها الجود في حال النعمة ، والصبر في حال المحنة ، والصبر يزيل الجزع ويورث الشهامة المختصة بالرجولية كما قال :

خلقنا رجالا للتجلد والأسى * وتلك الغواني للبكا والمآتم

والعفة إذا تقوّت ولدت القناعة ، والقناعة تمنع عن الطمع في مال غيره ، فولدت الأمانة .

---

١ - البقرة ٢٤٧
٢ - الاعراف ٦٩

والعدالة إذا تقوّت تولد الرحمة ، والرحمة هي الاشفاق من أن يفوت ذا حق حقه فهي تولد الحلم ، والحلم يقتضي العفو، فالانسانية والكرم يجمعان هذه الفضائل ، وذلك ان الانسانية هي الفضائل النفسية المختصة بالانسان وبقدر ما يكتسبه الانسان يستحقها وفيه تفاصيل كثيرة كما تقدم في الفرق فيما بين الانسان والانسان ، فمنهم من قد ارتفع حتى لحق أفق الأملاك ، فلو تصورنا ملكاً جسمياً لكان هو إياه لارتفاعه عن الانسانية إلا بالصورة التخطيطية ، وعلى هذا قوله تعالى : «إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ »[1] ومنهم من اتضع حاله حتى صار في أفق البهائم ، فلو تصورنا كلباً أو حماراً منتصب القامة متكلماً لكان هو إياه لانسلاخه عن الانسانية إلا بالصورة التخطيطية ، وعلى هذا قوله تعالى: «إن هم إلا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»[2] ومنهم من هو في وسط هذه في درجة من درجات لها كثيرة ولهذا صح أن يقال : فلان أكثر إنسانية من فلان ، وما يختص به لفظ الإنسانية فهي : الأخلاق والأفعال المحمودة .

فأما المذمومات من الأفعال فتشارك الانسان فيها البهائم والشياطين .

أما المروؤة : فلها اشتقاقان ، ففي احداهما ما يقتضي أن تكون هي والانسانية متقاربتين ، وهو أن يجعل من قولهم مرؤ الطعام وامرأه إذا تخصص المريء لموافقة الطبع ، وكأنها اسم للأخلاق والأفعال التي تقبلها النفوس السليمة فعلى هذا يكون إسماً للأفعال المستحسنة كالانسانية .

والثاني أن تكون من المرء فتجعل اسماً للمحاسن التي يختص بها الرجل دون المرأة ، فتكون كالرجولية ، وذلك أخص من الانسانية إذ

---

١ - يوسف ٣١
٢ - الأعراف ١٧٩

الانسانية يشترك فيها الرجال والنساء والمروءة أخص ، فكثيراً ما يكون فضيلة للمرأة ، يكون رذيلة للرجل كالبله والخفة والجبن ولهذا قيل : أفضل أخلاق الرجل أرذل أخلاق النساء ، فالكيس والشجاعة والجود رذيلة لهن . وقيل لمعاوية : ما المروءة ؟ فقال : إطعام الطعام ، وضرب الهام ، وقيل للأحنف ، فقال : أن لا يفعل في السرما يستحي منه في العلانية . وقيل لآخر فقال : جماعها في قول الله عز وجل : «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ»[1] وأما الكرم فاسم لجماعة الأخلاق والأفعال المحمودة إذا ظهرت بالفعل والحرية مثله ، لكن يقال ذلك فيمن لا تستعبده المطامع والأغراض الدنيوية ، وذكر بعض الحكماء ان الحرية تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة كمن ينفق مالاً في تجهيز جيش في سبيل الله تعالى ، أو يحمل حمالة برقابها دماء قبيلة فكل كرم حرية ، وليس كل حرية كرماً وأيضاً فالحرية تتعلق بالتلطف عن الأخذ وأكثر الكرم يتعلق بالانفاق أكثر ، ويضاد الكرم : اللؤم ، والحرية : العبودية ، أعني المذكورة في قول الشاعر :

والعبد لا يطلب العلاء ولا * يعطيك شيئاً إلا إذا رهبا

وكما أن الكرم أعم من الجود فاللؤم أعم من البخل ، ولا يدخل في الحرية والكرم النساء فانهن مستخدمات بل مستعبدات ، ولذلك روي لو أمر الله مخلوقاً بعبادة مخلوق لأمر النساء بعبادة أزواجهن . إن قيل ما حقيقة قول الله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ »[2] قيل لما كان الكرم اسماً للأفعال المحمودة التي تقدم ذكرها وهذه الأفعال إنما تكون

---

١ ـ النحل ٩٠

٢ ـ الحجرات ١٢

فاضلة إذا كان عن علم ، وقصد بها أشرف الوجوه أي وجه الله تعالى وذلك هو التقوى فليس التقوى إلا العلم وتحري الأفعال المحمودة كان كل من اتقى أكرم . والعزيز الذي يأبى تحمل المذلة ، **واشتقاقه** من العزاز كالمتظلف في الامتناع من تناول الشهوات المذلة . **وأصله** من الظلف وهي الأرض الصلبة .

وفرق بعض الحكماء بين العزيز والكريم فقال: الكريم يأبى أن يعصى له ، والعزيز يأبى أن يعصى عليه . **والظرف** إسم لحالة تجمع عامة الفضائل النفسية والبدنية والخارجة تشبيهاً بالظرف الذي هو الوعاء ، ولذلك قال إعرابي : فلان حاضن الشرف ومقر الفضل . ولكونه واقعاً على ذلك قيل لمن حصل له علم وشجاعة ظريف ، ولمن حسن لباسه وأثاثه ورياشه ظريف .

فالظرف أعم من الحرية والكرم.

وأما **الفتوة** فكالمروءة فانها اسم لما يختص به الفتى من الفضائل الانسانية لكن هي بالرجولية أشبه . وقد استعارت الصوفية لفظ الفتوة للتصرف ، لكونها مشاركة له في جميع أفعالها لا في الغرض ، فان غرض الفتيان استجلاب محمدة الأقران ، وغرض الصوفية استجلاب محمدة الرحمن ، بل مجرد مرضاته تعالى ، **وأما الحسب** فقد يقال فيما يختص الانسان به فيعده من مآثره وقد يقال فيما يؤثر عن آبائه والشرف نحوه لكن أكثر ما يقال فيما يؤثر عن الآباء .

الباب التاسع والعشرون
﴿ الفضائل التوفيقية ﴾

التوفيق : موافقة إرادة الانسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره ، وإن كان في الأصل موضوعاً على وجه يصح استعماله في السعادة والشقاوة ، فقد صار متعارفاً في السعادة فقط .

والاتفاق : مطاوعة التوفيق ، لكن قد يستعمل في السعادة والشقاوة جميعاً فيقال اتفاق جيد واتفاق رديّ ، والتوفيق مما لا يستغني الانسان عنه في كل حال كما قيل لحكيم ما الذي لا يستغني عنه أحد في كل حال فقال التوفيق وأنشد

إذا لم يكن عون من الله للفتى * فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

فالسعادة التوفيقية : هي الهداية والرشد والتسديد والتأييد ، فيجب أن يعلم أن لا سبيل لأحد الى شيء من الفضائل إلا بهداية الله تعالى ورحمته ، فهو مبدأ الخيرات ومنتهاها كما قال الله تعالى : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »[1] وخاطب فقال : « وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ »[2] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى ، أي بهدايته قيل ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا إلا أن

١ ـ الطور ٥٠
٢ ـ النور ٢١

يتغمدني الله برحمته » أي بهدايته تنبيهاً على انه لو توهمت رحمته مرتفعة ابتداء وانتهاء ما كان لنا سبيل الى ذلك .

وللهداية ثلاث منازل في الدنيا :

الأول : تعريف طريق الخير والشر المشار اليهما بقوله تعالى : « وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ »(١) وقد خول الله تعالى الهدى كل مكلف بعضه بالعقل ، وبعضه بألسنة الرسل وإياه عنى بقوله : « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ »(٢)

والثاني : ما يمد به العبد حالاً فحالاً بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح وإياه عنى بقوله : « وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ »(٣) .

والثالث : نور الولاية التي هي في أفق نور النبوة ، وإياه عنى بقوله تعالى : « قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ »(٤) فأضاف ذلك الى لفظة الله تعظيماً له ثم قال : « هو ٱلْهُدَىٰ »(٥) فجعله الهدى المطلق وبقوله: « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا »(٦) أي نوراً يفرقون به بين الحق والباطل وكل ذلك تسمى النور والحياة نحو: « أو من كان مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا »(٧) الآية وقال : « أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ »(٨) وبتحرى هذه المنازل الثلاثة يتوصل الى الهداية الى الجنة

---

١ ـ البلد ٩
٢ ـ فصلت ١٧
٣ ـ محمد ١٧
٤ ـ ال عمران ٧٣
٥ ـ الانعام ٧١
٦ ـ الانفال ٢٩
٧ ـ الانعام ١٢٢
٨ ـ الزمر ٢٢

المذكورة في قوله تعالى : « وقالوا الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله »[1] .

والرشد عناية إلهية تعين الانسان عند توجهه في أموره فتقويه على ما فيه إصلاحه وتفتره عما فيه فساده ، وأكثر ما يكون ذلك من الباطن نحو قوله تعالى : « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ »[2] وكثيراً ما يكون ذلك بتقوية العزم ، أو فسخه ، واليه توجه قوله تعالى : « وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ »[3] والتسديد أن يقوم إرادته وحركاته نحو الغرض المطلوب لتهجم عليه في أسرع مدة يمكن الوصول فيها اليه وهو المسؤول بقوله تعالى : « إهدنا الصراط المستقيم »[4] والنصرة من الله تعالى معونة الأنبياء والأولياء وصالحي العباد ، بما يؤدي الى صلاحهم عاجلاً وآجلاً ، وذلك يكون تارة من خارج يقيضه الله تعالى فيعينه ، وتارة من داخل بأن يقوي قلوب الأولياء ، أو يلقي رعباً في قلوب الأعداء ، وعلى ذلك قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ »[5] وقوله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ »[6] وأما ما يختص بسعادة الدنيا ولا يعتبر فيه العاقبة فيقال لها : الدولة ، وعلى هذا قوله تعالى : « وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ »[7] وقوله في وصف الفيء : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »[8]

---

١ ـ الأعراف ٤٣
٢ ـ الأنبياء ٥١
٣ ـ الانفال ٢٤
٤ ـ الفاتحة ٦
٥ ـ غافر ٥١
٦ ـ الصافات ١٧١
٧ ـ آل عمران ١٤٠
٨ ـ البقرة ٨٧

والتأييد تقوية أمره من داخل بالبصيرة ومن خارج بقـوة البـطش ومن الأول قوله تعالى : « وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ »[1] .

والعصمة فضل إلهي يقوى به الانسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع له من باطنه ، وإن لم يكن منعاً محسوساً وإياه عنى بقوله : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه »[2] وقد روي أن يوسف رأى صورة يعقوب عليهما السلام وهو عاض على إبهامه فأحجم وليس ذلك لمانع ينافي التكليف ، كما تصوره بعض المتكلمين ، فان ذلك تصور منه ، وتذكر لما كان قد حذره منه ، وعلى هذا قال تعالى : « كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ»[3] .

ومن عصمته تعالى أن يكرر الوعيد على من يريد عصمتـه لئـلا يغفل ساعة عن مراعاة نفسه كقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلـم : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ »[4] **واعلم أن رشده تعالى** للعبد وتسديده ونصرته وعصمته تكون بما يخوله من الفهم الثاقب ، والسمع الواعي ، والقلب المراعي ، وتقيض المعلم الناصح والرفيق الموافق ، وإمداده من المال ما لا تقعده به عن مغزاه قلته ولا تشغله عنه كثرته ومن العشيرة والعز ما يصونه عن سفه السفهاء وعن الغض منه من جهة الأغنياء وإن خوله من كبر الهمة وقوة العزيمة ما يحفظه عن الأشياء الدنية والتأخر عن بلوغ كل منزلة سنية .

---

١ ـ البقرة ٨٧
٢ ـ يوسف ٢٤
٣ ـ يوسف ٢٤
٤ ـ الحاقة ٤٤

الباب الثلاثون

﴿ في تلازم الفضائل النفسية بعضها بعضاً ﴾

العقل ، والعفة ، والشجاعة ، والجود ، والعدالة ، وسائر الفضائل تتلازم . فان العقل إذا أشرق عقل صاحبه عن الإقدام على ما يورثه مذمة ويحمله على الاقدام على المخاوف التي تورثه المحمدة وعلى أن يتمم تفضل ما في يده لمن يحتاج اليه ، وأن يبذل لكل ذي حق حقه ، وذلك هو العفة والشجاعة والجود والعدالة ، وكذا إذا كان عدلاً يحمله عدله على ترك تناول ما لا يجوز تناوله ، وأن لا يحجم عما يلزمه الإقدام عليه ، وأن لا يبخل بفضل ما في يده ، وإذا كان شجاعاً لا تقهره شهوته على تناول ما لا يجوز تناوله وعلى ظلم غيره ولا يخاف الفقر فيبخل ، ولهذا النظر جعل بعض الشعراء الشجاعة سماحة ، والسماحة شجاعة فقال:

أيقنت ان من السماح شجاعة * تدمي وإن من الشجاعة جودا

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم دفع الشهوة جهاداً فقال : « جهادك هواك » . وجعلت العفة جوداً فقيل : الجود جودان جود بما في يدك وجود عما في يد غيرك وهو أعظمهما ، وهذه الفضائل إذا حصلت حصل بها الانسانية والحرية والكرم وعنها يتأصل الاسلام والايمان والتقوى والاخلاص .

الباب الحادي والثلاثون
﴿ البواعث على فعل الخير وتحري الفضائل ﴾

البواعث على تحري الخيرات الدنيوية ثلاث:

أدناها الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره.

والثاني رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه.

والثالث تحري الخير وطلب الفضيلة.

فالأولى من مقتضى الشهوة وذلك من فعل العامة .

والثانية من مقتضى الحياء ، وهي من فعل السلاطين وكبار أبناء الدنيا .

والثالثة من مقتضى العقل وذلك من فعل الحكماء ولهذه المنازل الثلاث قيل : خير ما أعطي الانسان عقل يردعه ، فان لم يكن فحياء يمنعه ، فان لم يكن فخوف يقمعه ، فان لم يكن فمال يستره ، فان لم يكن فصاعقة تحرقه تريح منه العباد والبلاد.

وكذا البواعث على الخيرات الأخروية ثلاث:

الأول الرغبة في ثواب الله تعالى والمخافة من عقابه ، وذلك منزلة العامة .

والثاني رجاء حمده ومخافة ذمة ، وذلك منزلة الصالحين .

والثالث طلب مرضاتة تعالى في المتحريات ، وذلك منزلة النبيين

والصديقين والشهداء وهي أعزها وجوداً ، ولذلك قال بعضهم : أفضل ما يتقرب به العبد الى الله تعالى ان يعلم إنه لا يريد العبد من الدنيا والآخرة غيره قال الله تعالى : « وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ »[1] وقيل لرابعة [العدوية] : ألا تسألين الله تعالى في دعائك الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار ، فبهذا النظر قال بعضهم : من عبد الله تعالى بعوضٍ فهو لئيم .

وقال بعض العلماء : هذه المنازل الثلاثة منازل : الظالم والمقتصد والسابق ، وأجدر أن تكون هذه المنازل الثلاثة ما روي عنه عليه الصلاة والسلام : « سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء » فقد قال بعض العلماء : مساءلة العلماء ترغبك من الله تعالى في ثوابه وتخوفك من عقابه ، ومخالطة الحكماء تقربك من الحمد وتبعدك من الذم ، ومجالسة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل الباريء .

الباب الثاني والثلاثون
﴿ الموانع من تحري الفضائل ﴾

وذلك ضربان قصور وتقصير .

فأما القصور : فبأن لا تكون له المعاني العشرة التي قدمناها ولا التمكن من اكتسابها ، أو يكون له ذلك ولكن يعوقه عن استعماله عائق مرضي ، أو شغل ضروري لعذره كحاجة الى السعي فيما يسد به

١ ـ الكهف ٢٨

جوعته ويستر به عورته ، وهما عدم الوسع المذكور في قوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا »[1] ودواء الأمرين الفزع الى الله تعالى ، والتضرع اليه بأن يجبر نقصه بتمام جوده وسعة رحمته . وأما التقصير فأربعة أشياء :

الأول : أن يكون انساناً لا يعرف الحق من الباطل ، ولا الجميل من القبيح فبقي غفلا فدواءه سهل وهو التعليم الصائب .

والثاني : أن يكون قد عرف ذلك ، لكن لم يتعود فعل الصالح وزين له سوء عمله فرآه حسناً فتعاطاه ، وأمره أصعب من الأول ، لكن يمكن أن يقهر على العادة الجميلة حتى يتعودها ، وإن كان قد قيل : ترك العادة شديد .

والثالث : أن يعتقد في الباطل والقبيح انه حق وجميل فتربى على ذلك ومداواة ذلك صعب جداً ، فقد صار ممن طبع على قلبه إذا تنقش بنقش خسيس ككاغد كتب فيه ما يؤدي حذفه منه الى حرقهِ وفساده .

والرابع : أن يكون مع جهله وتربيته على الاعتقاد الفاسد شريراً في نفسه يرى الخلاعة وقهر النفس فضيلة ، وذلك أصعب الوجوه والى نحوه قصد من قال : من التعذيب تأديب الذيب ليتهذب ، وغسل المسح ليبيض ، فالأول من هؤلاء الأربعة يقال له : الجاهل .

والثاني يقال له : الجاهل والضال ، والثالث يقال له : جاهل وضال وفاسق ، والرابع يقال له جاهل وضال وفاسق وشرير .

---

١ ـ البقرة ٢٨٥

الباب الثالث والثلاثون
﴿ الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار عنها الى أقصى الرذائل ﴾

للانسان في منازل الفضائل مرتقى صعب ، ومنحدر سهل ، وعلى الارتقاء فيها حث ربنا تبارك وتعالى بقوله : «وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ »[1] وبقوله : «فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ »[2] ومدح قوماً بقوله : «يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ »[3] وعن الإنحدار منها نهى الله تعالى بقوله : « وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ»[4] وبقوله: «وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ»[5] وذم قوماً شأنهم ذلك بقوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ »[6] وبقوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ»[7] وبقوله:«وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا

١ - آل عمران ١٣٣
٢ - البقرة ١٤٨
٣ - المؤمنون ٦١
٤ - المائدة ٢١
٥ - النحل ٩٢
٦ - محمد ٢٥
٧ - محمد ٣٢

يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا »[1] فان الآية تقتضي هذا المعنى ، وإن كان ظاهرها يدل على الجهل الذي يورثه الهرم فالخيرات يترقى فيها فتبلغ الى أشرف المنازل بأربع درجات ، وينحدر فتبلغ الى أرذل المنازل بأربع درجات أيضاً ، **فأما درجات الارتقاء فأولها** : أن يرتدع الانسان عن المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على ترك مقاودتها ، **وذلك أول درجة التائبين المطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم** .

وثانيها : أن يقوم بالعبادات الموظفة عليه ، ويسارع فيها بقدر وسعه ، وذلك درجة الصالحين .

وثالثها : أن يتحرى بعلمه الحقيقي تعاطي الحسنات من غير تلفت منه الى المحظورات بمجاهدة هواه وإماتة شهواته ، وذلك منزلة الشهداء .

ورابعها : أن يكون مع هذه الأحوال المتقدمة يرضى ظاهراً وباطناً بقضاء الله تعالى فلا يتزعزع تحت حكمه ولا يتسخط شيئاً من أمره ويعلم ان الله تعالى أولى به من نفسه ، وذلك درجة الصديقين .

وهذه المنازل الأربعة المراد بقوله تعالى: « وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا »[2] وأجدر أن تكون هذه المنازل الأربعة هي المأمور بها في قوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟

---

١ ـ النحل ٧٠
٢ ـ النساء ٦٩

﴿وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] واعلم أن منزلة الرضاء أشرف المنازل بعد النبوة ، فمن رضي عن الله عز وجل فقد رضي الله عنه لقوله تعالى : « رضي الله عنهم ورضوا عنه »[2] فجعل أحد الرضائين مقروناً بالآخر ، فمن بلغ هذه المنازل عرف خساسة الدنيا واطلع على جنة المأوى وخطب مودة الملأ الأعلى وحظي بتحيتهم المعنية بقوله تعالى : « وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ »[3] .

وأما درجات الانحدار والارتداد عنها ، فأولاها : الكسل عن تحري الخيرات وتورثه ذلك الزيغ المعني بقوله : « فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ »[4] .

وثانيها : الغباوة وهي ترك النظر ونقض العمل فيورثه ذلك رينا على قلبه بقوله : « كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ »[5] .

وثالثها: الوقاحة وهو أن يرتكب الباطل ويراه في صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة قلب كما قال وتعالى: « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة »[6] .

ورابعها : **الانهماك في الباطل** وهو أن يستحسنه فيحبه ويحسنه ويحببه فيورثه ذلك ختماً على قلبه وأقفالا عليه كما قال تعالى : « خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ »[7] وكما قال :

١ ـ آل عمران ٢٠٠
٢ ـ البينة ٨
٣ ـ الرعد ٢٣
٤ ـ الصف ٥
٥ ـ المطففون ١٤
٦ ـ البقرة ٧٤
٧ ـ البقرة ٧

« أم على قلوب أقفالها »[1].

والكسل سبب الغباوة ، والغباوة سبب الوقاحة ، والوقاحة سبب الإنهماك ، كما أن الزيغ يوجب الرّين والرّين يوجب القساوة ، والقساوة توجب الختم والاقفال ، فحق الانسان أن يراعي نفسه في الابتداء ولا يرخص في ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك الى ارتكاب الكبائر كما قيل :

ان الأمور دقيقها * مما يهيج به العظيم

وقد قال الله تعالى :«فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ »[2] فدل أن قعودهم أول مرة أدى لهم الى أن صار محكوماً عليهم انه لا يتأتى منهم الخروج معه صلى الله عليه وسلم بوجه.

الباب الرابع والثلاثون
﴿ بيان عبادة الله تعالى في تهذيب الذين ترددوا في الرذائل حتى فسدت أخلاقهم ﴾

الناس متى تركوا تعاطي الإحسان والإفضال وتحري العدالة فيما بينهم فلا يأتوا بها لا خُلقاً ولا تَخَلُّقاً ولا رياء ولا سمعة ولا رهبة ولا رغبة فصاروا في تعاطي الشر سواء بسواء ثنيات كأسنان الحمار ، عدم

١ - محمد ٢٤   ٢ - التوبة ٨٣

فيهم الفضيلة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا فحينئذ إن بقي في نفوسهم أثر قبول الخير إن شاء الله تعالى فيهم من يهديهم باللسان والسيف المحق كبعثة النبي صلى الله عليه وسلم في العرب لما بقي فيهم من أثر الخير من تعظيم الشهر الحرام والبيت الحرام والوفاء بالذمام ، وإن قل فيهم أثر قبول الخير سلط الله عليهم سيفاً جائراً كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ »[1] وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله ينتصف من أوليائه بأوليائه ومن أعدائه بأعدائه » وعاملهم بما عامل به بني اسرائيل حيث سلط عليهم بخت نصر ، وقد ذكر ذلك في قوله تعالى : « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ »[2] الآية. وإن عدم منهم أثر القبول بعث فيهم عذاباً يفنيهم إما طوفاناً أو جائحة أو ناراً محرقة أو ريحاً فيها عذاب أليم فيطهر عنهم البلاد ويريح منهم العباد كما صنع الله بعاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح وذلك كالأرض إذا استولى عليها الشوك لا بد من تسليط النار عليها حتى تعود بيضاء .

الباب الخامس والثلاثون
﴿ أصناف الناس ﴾

الناس ضربان : خاص وعام

١ ـ الأنعام ١٢٩
٢ ـ الاسراء ٤

فالخـــاص : من قد تخصص من المعـــارف بالحقائـــق دون التقليدات ، ومن الأعمال ما يتبلغ به الى جنة المأوى ، دون ما يقتصر به على الحياة الدنيا .

والعام : إذا اعتبر بذلك فالذين يرضون من المعارف التقليدات ومن أكثر الأعمال بما يؤدي الى منفعة دنيوية وإذا اعتبر بأمور الدنيا .

فالخاص : **ما يتخصص بأمور البلد** بما ينحرم من افتقاده احدى السياسات المدنية **والعام** ما لا ينحرم بافتقاد شيء منها وهم من **وجه** آخر ثلاثة، خاصة وعامة، وأوساط، والأوساط هم المسمون في كلام العرب بالسوقة ، **فالخاص** هو الذي يسوس ولا يساس ، **والعام** هو الذي يساس ولا يسوس ، **والوسط** هو الذي يسوســه من فوقـه وهـو يسوس من دونه ومن وجه **آخر ثلاثة أضرب**.

أصحاب الشهوات وهممهـم الجـدة واليســار والأكل والشرب والبعال (البعال أي الوطء)، **وأصحاب الكرامة** والرياسة وهممهم المدح واستجلاب الصيت والمحمد ، **وأصحاب الحكمـة** وكل واحـد منها يستعظم من هو من جنسه ، ولهذا احتاج السلطان الى كل ذلك وتعنيته ليكون معظماً عند كل ضرب من الجميع من الناس ، فيعظمه أصحاب الحكمة لحكمته ، وأصحاب الكرامة لكرامتـه ، والرياسـة لرياسته ، وأصحاب الشهوات لماله وكثرة قنياته .

ومن وجه آخر ثلاثة أضرب : ملكي وشيطاني وانسي .

فالملكي : الذي يستعمل القـوة العاقلـة بقـدر جهـده ، وهـم المؤمنون حقاً .

والشيطاني : الذي يستعمل القوة الشهوية من غير تلفت الى مقتضى العقل ، والأنسي : الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئا وهم المذكورون في قوله تعالى : « فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ »[1] وهو المؤمن والفاسق والكافر،وهم المذكورون في قوله تعالى : « وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ »[2] ومن وجه آخر ضربان :أبرار، وفجار، فالأبرار ثلاثة **أضرب : ظالم ومقتصد وسابق.**

وهم المذكورون في قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا »[3] الآية وهم أيضاً أعني الأبرار **ثلاثة أضرب .**

أنبياء للمشاهدة والهداية لقوله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ »[4] وحكماء هم الأولياء للمراقبة والرعاية لقوله تعالى : « أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ »[5] **وعوام** للمجاهدة والكفاية وهم المذكورون في قوله تعالى : « يُجَٰهِدُونَ فِي

---

١ ـ الواقعة ٨٧
٢ ـ الواقعة ٦
٣ ـ فاطر ٣٢
٤ ـ الحديد ٢٥
٥ ـ يونس ٦٢

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ»[1] وهم أيضاً ضربان عبد بالطبع ، وإن كان ملكاً ، وملك بالطبع ، وإن كان عبداً مسترقاً ، والملك من حصل الفضائل النفسية التي بها يصير الانسان بحيث يصح أن يوصف بأنه رباني والهي وملكي ، ويصح أن يكون خليفة الله في أرضه ، والعبد من قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس ولا انتعش ، وإذا شيك فلا انتقش ». وقال بعض الحكماء : ما من انسان إلا وفيه خلق من أخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات ليكون الانسان مشاركاً لهما في الجنسية ، وإن كان مباينا لهما في النوعية ، فمن الناس غشوم كالأسد ، وعابث كالذئب ، وخب كالثعلب ، وشره كالخنزير ، وجامع كالنمل ، ووقح كالذباب ، وبليد كالحمار ، وألوف كطير الوفاء ، وصنع كالسلفة ، وأنف كالأسد ، والنمر ، وغيور كالديك ، وهاد كالحمام. ومنهم حسن المنظر والمخبر كالأترج ، ومنهم بخلاف ذلك كالعفص والبلوط ، ومنهم قبيح المنظر حسن المخبر كالجوز واللوز ، ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلي ، والمؤمن الخير هو في الحيوانات كالنحل يأخذ أطايب الأشجار ولا يقطف ثمراً ولا يكسر شجراً ولا يؤذي بشراً ، ثم يعطي الناس ما يكثر نفعه ويحلو طعمه ويطيب ريحه . وهو في الأشجار كالأترج يطيب حملاً ونوراً وعوداً وورقاً ، والمنافق الشرير هو في الحيوانات كالقمل والأرضة ، وفي الأشجار كالكشوت فلا أصل له ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا زهر يفسد الثمار وييبس الأشجار ، وكالثمرة التي قل ورقها ، وكثر شوكها ، وصعب مرتقاها.

---

١ ـ المائدة ٥٤

الفصل الثاني
﴿ في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها ﴾

الباب الأول
﴿ فضيلة العقل ﴾

العقل أول جوهر أوجده الله تعالى وشرفه بدلالة ما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال : « أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فاقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب ».

ولو كان على ما توهمه قوم انه عرض لما صح أن يكون أول مخلوق ، لأنه محال وجود شيء من الأعراض قبل وجود جوهر يحمله . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا دين لمن لا عقل له ولا يعجبنكم إسلام امرىء حتى تعرفوا عقدة عقله »، ومن هذا الوجه أشار النبي عليه الصلاة والسلام قالت الحكماء : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه ، وبالعقل صار الانسان خليفة الله عز وجل ، ولو توهّم مرتفعاً لارتفعت الفضائل عن العالم فضلاً عن الانسان وبما غرسه الله تعالى في الانسان ، منه اهتدى من وفقه الله تعالى الى تزكية نفسه المذكورة في قوله تعالى : « قد أفلح

من زكاها »[1] وحصل به حرث الآخرة في قوله تعالى : « مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ »[2] **وثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة أشياء** : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغنى بلا حاجة ، وأمن بلا خوف ، وراحة بلا شغل ، وعز بلا ذل ، **والى العقل أشار** بقوله تعالى : « ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ »[3] الآية فمعنى نور السموات ، أي منورها والنور هو العقل ، وقد تقدم وجه ضرب هذا المثل :

ويقال العقل على ضربين .

أحدهما بغير إضافة ، وهو المذكور بأنه أول مخلوق .

والثاني بالإضافة الى آحاد الناس ، فيقال عقل فلان وهو من الأول بمنزلة الضوء من الشمس .

الباب الثاني
﴿ أنواع العقل ﴾

العقل عقلان :

غريزي : وهو القوة المتهيئة لقبول العلم ، ووجوده في الطفل

---

١ ـ الشمس ٨
٢ ـ الشورى ٢٠
٣ ـ النور ٣٤

كوجود النخل في النواة والسنبلة في الحبة .

ومستفاد : وهو الذي تتقوى به تلك القوة .

وهذا المستفاد ضربان :

ضرب يحصل للانسان حالاً فحالاً بلا اختبار منه ، فلا يعرف كيف حصل ومن أين حصل.

وضرب باختيار منه فيعرف كيف حصل ومن أين حصل وحصوله بعد اجتهاده في تحصيله ولكون العقل غريزياً ومستفاداً قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه :

* العقل عقلان : مطبوع ومسموع *

فلا ينفع مسموع * إذا لم يك مطبوع * كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع .

وإلى الأول أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل » **وإلى الثاني** أشار عليه الصلاة والسلام بقوله : لعليّ رضي الله عنه « إذا تقرب الناس إلى خالقهم بأبواب البر فتقرب أنت اليه بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة ».

وقال رضي الله عنه : ما اكتسب أحد شيأ أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عن ردى »، ولاختلاف النظرين قال قوم: العقل مبدع وقال قوم: هو مكتسب وكلا القولين صحيح من وجه ووجه ، **والعقل الغريزي** للنفس بمنزلة البصر للجسد ، والمستفاد لها بمنزلة النور

وكما أن البدن متى لم يكن له بصر، فهو أعمى كذلك النفس متى لم يكن لها بصيرة أي عقل غريزي فهي عمياء، وكما أن البصر متى لم يكن له نور من الجوّ لم يجد بصره، كذلك العقل إذا لم يكن له نور من العلم مستفاد لم يجد بصيرته ولذلك قال تعالى: «وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ»[1] وقد جعل للعقل نظر وإدراك ورؤية وأبصار وجعل له أضداد من العمى وغيره وقال عز وجل: «وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون»[2] وقال: «ما كذب الفؤاد ما رأى»[3] وقال: «وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ»[4] ولما كان فقدان البصيرة أشنع من فقدان البصر لأن بارتفاع البصيرة ارتفاع النفع بالبصر قال الله تعالى: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ»[5] فذمهم بفقدان البصيرة تنبيهاً ان فقدانها اختياري إذ هو تركهم استفادة العلم وأكثر فقدان البصر ضروري وقال تعالى: «ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا»[6] فلولا أن العين أريد منها البصيرة لما قال عن ذكرى، لأن الذكر لا يدرك بحاسة العين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما لمن عيره بفقدان البصر، انا نصاب في أبصارنا وأنتم تصابون في بصائركم، وكيف لا يكون فقدان البصيرة أعظم ضرراً من فقدان البصر، وقد تقدم أن البدن بمنزلة فرس، والنفس بمنزلة راكبه وضرر عمى الراكب نفسه أشد عليه من عمى فرسه.

---

١ ـ النور ٤٠
٢ ـ الأعراف ١٩٨
٣ ـ النجم ١١
٤ ـ الأنعام ٧٥
٥ ـ الحج ٤٦
٦ ـ الكهف ١٠١

الباب الثالث

﴿ المكتسب من العقل الدنيوي والأخروي ﴾

العقل المكتسب ضربان : أحدهما التجارب الدنيوية والمعارف المكتسبة . والثاني العلوم الأخروية والمعارف الالهية .

وطريقاهما متنافيان ، وقد ضرب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لذلك ثلاثة أمثال فقال : ان مثل الدنيا والآخرة ككفتي الميزان لا تترجح احداهما إلا بنقصان الأخرى ، وكالمشرق والمغرب كل من قرب من أحدهما وبعد من الآخر ، وكالضرتين إذا أرضيت أحداهما أسخطت الأخرى ، ولذلك يرى قوم أكياساً في تدبير الدنيا بلهاء في تدبير الآخرة ، وقوم أكياساً في أمور الآخرة بلهاء في أمور الدنيا ، حتى قال عليه الصلاة والسلام : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » . وقيل لمن نسب بعض الصالحين الى البله أكثر أهل الجنة البله ، ولاختلاف طريقهما قال الحسن رحمه الله : أدركنا قوماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوكم لقالوا شياطين ، ولقلة الاعتداد بالمعارف الدنيوية قال لرجل وصف نصرانياً بالعقل : مه إنما العاقل من وجد الله تعالى وعمل بطاعته وقال تعالى حكاية عن أهل النار : « لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ »[1] ومن تصور اختلاف الطريقين أعني طريق الدنيا وطريق الآخرة لم تعرض له الشبهة التي

---

١ ـ الملك ١٠

عرضت لقوم قالوا : لو أن هنا حقاً لما جهله الذين لم يلحق شاؤهم في تدبير الدنيا ودقائق الصناعات ووضعوا الحكم والسياسات ، وذاك كما انه من المحال أن يظفر سالك طريق الشرق بما لا يوجد إلا في الغرب ، أو يظفر سالك طريق الغرب بما لا يوجد إلا في الشرق ، كذلك من المحال أن يظفر سالك معارف الدنيا بمعارف طريق الآخرة ، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله : «إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ»[1] وبقوله : « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النـاس لَا يَعْلَمُـونَ ظاهـراً من الحياة الـدنيا»[2] الآية.

ولا يكاد يجمع بين معرفة الدنيا والآخرة معاً على التحقيق والتصديق إلا من رشحهم الله تعالى لتهذيب الناس في أمر معاشهم ومعادهم جميعاً كالأنبياء وبعض الحكماء ، ولما كان العقل هو الذي يردع الانسان من الذنب واكتسابه على التمام والكمال في الورى عسير لم ينفك أحد من ذنب يرتكبه ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما منا نبي إلا أذنب أو هَمَّ » .

الباب الرابع
﴿ منازل العقل واختلاف أسمائها بحسبها ﴾

العقل اسم عام لما يكون بالقوة أو بالفعل ، ولما كان غريزياً وما كان مكتسباً .

---

١ - يونس ٧
٢ - الانعام ٣٧

وهو في اللغة : قيد البعير لئلا يندّ ، وسمي هذا الجوهر به تشبيهاً على عادتهم في استعارة أسماء المحسوسات للمعقولات ، وخص بتاء المصدرية لأنه لما كان يستعمل تارة للحدث ومرة للفاعل نحو عدل وصوم وزور ، ومرة للمعقول نحو خلق وأمر ، لكن يتصور منه كونه سبباً لتقيد الانسان به وكونه مقيداً له عن تعاطي ما لا يحمل وكونه معتداً به من بين الحيوان ، والنُّهي في الأصل : جمع نُهْيَةْ ، أو اسم مفرد نحو جعل وصرد ، أو وصف نحو دليل خنع وسائق حطم ، وجعل اسماً للعقل الذي انتهى من المحسوسات الى معرفة ما فيه من المعقولات ، ولذلك أحيل أربابه على تدبر معاني المحسوسات في قوله تعالى : « أولم يهدِ لهم كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أفلا يسمعون[1] »وقال:« وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ »[2] .

والحجر : أصله من ٱلحَجْر أي المنع ، وهو اسم لما يلزمه الانسان من حظر الشرع والدخول في أحكامه ، وعلى ذلك قوله تعالى : « هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ »[3] .

وسمي **حِجَى** من حجاه أي قطعه ، ومنه الأحجية فكأنه سمى بذلك لكونه قاطعاً للانسان عما يقبح .

---

١ ـ السجدة ٢٥
٢ ـ طه ٥٣
٣ ـ الفجر ٤

وأما اللب فهو الذي قد خلص من عوارض الشبه وترسخ لاستفادة الحقائق من دون الفزع الى الحواس ، ولذلك علق الله تعالى في كل موضع ذكره بحقائق المعقولات دون الأمور المحسوسة نحو قوله : « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »[1] فوصفهم بهداية الله إياهم ، وقد سمى الله تعالى العلم نوراً والجهل ظلمة فقال : « ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إلى النُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ »[2] الآية. وسماه روحاً في قوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ« الآية وسماه[3] حياة والجهل موتاً بقوله تعالى: «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نور»[4] الآية. وقوله : «وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ »[5] الآية. وسماه ماء بقوله : «أنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا »[6] الآية. والايمان زبدة العقل والعمل ، ولذلك قال الله تعالى في مواضع : « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لقوم يؤمنون »[7] فعلق به ما علق بهما .

وسمي العقل قلباً وذلك أنه لما كان القلب مبدأ تأثير الروحانيات والفضائل سمي به ، ولذلك عظم الله تعالى أمره لاختصاصه بما قد أوجد لأجله قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[8] وقال : « مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ

---

١ ـ الروم ٢٤
٢ ـ البقرة ٢٥٧
٣ ـ الشورى ٥١
٤ ـ الأنعام ١٢١
٥ ـ فاطر ٢٢
٦ ـ الرعد ١٧
٧ ـ الروم ٢٢
٨ ـ الشعراء ٨٨

وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ »[1] وقال : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »[2] فنبه أن القلب في الحقيقة يكون قلباً إذا كان متخصصاً بما قد أوجد لأجله وما أوجد لأجله ، هو المعارف الحقيقية وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن في البدن مضغة اذا استقامت استقام البدن وإذا أعوجت أعوج البدن » ولما كان أشرف المعارف هو ما يخصص به القلب قال الله تعالى : « نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ »[3] فخصه بالذكر.

الباب الخامس
﴿ جلالة العقل وشرف العلم ﴾

العقل حيثما وجد يكون محتشماً ، حتى ان الحيوان إذا رأى إنساناً احتشمه بعض الاحتشام وانزجر بعض الانزجار ، ولذلك تنقاد الابل للراعي ، وكذلك جماعة الرعاة إذا رأوا منهم من كان أوفر عقلاً وأغزر فضلاً فيما هم بصدده انقادوا لهم طوعاً ، فالعلماء إذا لم يعاندوا انقادوا ضرورة لأكثرهم علماً وأوفرهم نفساً وأفضلهم عقلاً ، ولا ينكر فضله إلا كل متدنس بالمعايب متطلب للرياسة حافظ على غرض دنيوي ، قد جعل عقله خادماً لشهوته فلحفظه على رياسته ينكر فضل الفاضل ، ولفضيلة العقل الوافر كان كثير ممن كانوا يعاندون النبي صلى الله عليه وسلم قصدوه ليقتلوه فما كان إلا وقع طرفهم عليه فرؤي لهم

١ - ق ٣٣
٢ - ق ٣٧
٣ - الشعراء ١٩٣

نور الله تعالى معرباً عنه ، فألقى في قلوبهم منه روعة فهابوه ، فمن مذعن له طائعاً وخبيث لا ينكره بعد ، إلا جاحداً ولهذا المعنى قال الشاعر :

لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تغنيك عن خبره

وقد تقدم أن الانسان لم يتميز عن البهائم إلا بالعقل ، ولم يشرف إلا بالعلم ، ومن شرف العلم أن كل حياة انفكت منه فهو غير معتد بها بل ليست في حكم الموجودة ، فان الحياة الحيوانية لم تحصل ما لم يقارنها الاحساس فيلتذ بما يوافقه ويطلبه ويتألم بما يخالفه فيهرب منه وذلك أخس المعارف ، فمقتضى الحياة الإنسانية أنها إذا تعرت من المعارف المختصة بها أن لا يعتد بها ، ولذلك سمى الله تعالى الجاهل ميتاً في غير موضع من كتابه فقال : « أو من كان ميتاً فأحييناه »[1] ولأجل أن الحياة تقارن العلم سمى الله تعالى العلم روحاً في قوله : «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا»[2] وقد ذكرنا أن حاجة الانسان الى العلم أكثر من حاجته الى المال ، لأن العلم نافع لا محالة ونفعه دائم في الدنيا والآخرة ، والمال قد ينفع وقد يضر وإذا نفع فنفعه منقطع ، فمن استفاد علماً ثم ضيعه ، أو تمكن من استفادته فأهمله فقد خسر خسرانا مبيناً كما قال تعالى :« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا(الى قوله) لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »[3] .

١ ـ الأنعام ١٢٢
٢ ـ الشورى ٥١
٣ ـ الأعراف ١٧٥

الباب السادس

﴿ الفرق بين العلم والعقل وبين العلم والمعرفة والدراية والحكمة ﴾

العلم : إدراك الشيء بحقيقته.

وهو ضربان :

أحدهما : حصول صور المعلومات في النفس .

والثاني : حكم النفس على الشيء بوجود شيء له هو موجود ، أو نفي شيء عنه هو غير موجود له ، نحو الحكم على زيد بأنه خارج أو ليس طائراً ، فالأول هو الذي قد يسمى في الشرع ، وفي كلام الحكماء العقل المستفاد ، وفي النحو المعرفة ، ويتعدى الى مفعول واحد .

والثاني : هو الذي يسمى العلم ويتعـدى إلى مفعولـين ، ولا يجوز الاقتصار على أحدهما من حيث أن القصد إذا قيل : علمت زيداً منطلقاً إثبات العلم بانطلاق زيد دون العلم بزيد ، واعلم أن العقل والعلم بقياس أحدهما على الآخر على ثلاثة أوجه : أحدهما : عقل ليس بعلم وهو العقل الغريزي .

والثاني : **علم ليس بعقل** : وهو المتعدي الى مفعولين .

والثالـث : عقـل هو علـم ، وعلـم هو عقـل ، وهـو العقـل المستفاد ، والعلم الذي يقال له المعرفة ولم يصح أن يعدي العقل الى

مفعولين فيقال : عقلت زيداً منطلقاً ، كما يقال في علمت لكون العقل موضوعاً للعلم البسيط دون المركب ، وسمي عقلاً من حيث انه مانع لصاحبه أن تقع أفعاله على غير نظام ، وسمي علماً من حيث أنه علامة على الشيء ، وهذا إذا اعتبر حقيقته مما يتبين به شرف اللغة العربية .

وأما الفرق بين العلم البسيط أعني المتعدي الى مفعول واحد ، وبين المعرفة : هو أنَّ المعرفة قد تقال فيما يدرك آثاره وإن لم يدرك ذاته ، والعلم لا يكاد يقال إلا فيما يدرك ذاته ، ولهذا يقال فلان يعرف الله تعالى ، ولا يقال يعلم الله عز وجل لما كانت معرفته يقال ليست إلا بمعرفة آثاره دون معرفة ذاته . وأيضاً فالمعرفة تقال فيما لا يعرف إلا كونه موجوداً فقط .

والعلم أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيته وعلته ولهذا يقال : الله تعالى عالم بكذا ، ولا يقال عارف به لما كان العرفان يستعمل في العلم القاصر ،

وأيضاً فالمعرفة تقال فيما يتوصل اليه بتفكر وتدبر ، **والعلم قد يقال** في ذلك ، وفي غيره ويضاد العرفان الانكار والعلم والجهل .

وأما الدراية : **فالمعرفة** المدركة بضرب من الحيل وهو تقديم المقدمة وإجالة الخاطر واستعمال الروية ، **وأصله** من دريت الصيد .

والدرية تقال : لما يتعلم عليه الطعن وللناقة يسيبها الصائد ليأنس الصيد بها فيرمي من ورائها ، **والمدري** : يقال لما يصلح به الشعر ولقرن الشاة ، ولا يصح أن يوصف بذلك الباري تعالى لأن

معنى الحيل لا يصح عليه ، ولم يرد بذلك سمع فيتبع وقول الشاعر *
لا هم لا أدري وأنت الداري * من تعجرف الاعراب الاجلاف.

وأما الحكمة : فاسم لكل علم حسن وعمل صالح ، وهو بالعلم العملي أخص منه بالعلم النظري ، وفي العمل أكثر استعمالاً منه في العلم ، وإن كان العمل لا يكون محكماً من دون العالم به ، ومنها قيل : أحكم العمل إحكاماً وحكم بكذا حكماً ، والحكمة من الله تعالى عز وجل إظهار الفضائل المعقولة والمحسوسة ، ومن العباد معرفة ذلك بقدر طاقة البشر ، وقد حدت الحكمة بألفاظ مختلفة على نظرات مختلفة فقيل : هي معرفة الأشياء الموجودة بحقائقها ، ويعني كليات الأشياء ، فأما جزئياتها فلا سبيل للبشر إلى الإحاطة بها ، وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعلم ، وقيل : هي إماتة الشهوات على ما يجب ، وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعمل فيما هو غاية المراد من الانسان ، وقيل : هي الإقتداء بالخالق في السياسة بقدر طاقة البشر ، وذلك أن يجتهد أن ينزه علمه عن الجهل وعدله عن الظلم ، وجوده عن البخل ، وحلمه عن السفه ، وبنحو هذا العلم يقرب العبد من خالقه سبحانه في الدنيا ، ونسبة العلوم الى الحكمة من وجه ، كنسبة الأعضاء الى البدن في كونها أبعاضاً لها ، ومن وجه كنسبة المرؤوسين الى الرئيس في كونها مستولية عليها ، ومن وجه كنسبة الأولاد الى الأم في كونها مولدة لها ، وهي في تعارف الشرع : اسم للعلوم العقلية أي المدركة بالعقل ، وقد أفرد ذكرها في عامة القرآن عن الكتاب فجعل الكتاب رسماً لما لا يدرك إلا من جهة النبوات ، والحكمة لما يدرك من جهة العقل ، وجعلا منزلين ، وإن كان انزالهما من الله تعالى قد يكونان

مختلفين ، وجمع بينهما في الذكر لحاجة كل واحد منهما الى الآخر . فقد قيل : لولا الكتاب لأصبح العقل حائراً ، ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب ، وقد قيل الكتاب بمنزلة اليد ، والعقل بمنزلة الميزان ولا تعرف المقادير إلا بهما ، وكذلك عبر عن الحكمة : بالميزان في قوله تعالى : «وأَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ»[1] ولا يبلغ الحكمة إلا أحد رجلين ، إما مهذب في فهمه مؤمن في فعله ساعده معلم ناصح وكفاية وعمر ، وإما إلهي يصطفيه الله تعالى فيفتح عليه أبواب الحكمة بفيض إلهي ، ويلقي اليه مقاليد جوده فيبلغه ذروة السعادة به وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

الباب السابع
﴿ توابع العقل ﴾

العقل المشرق في الانسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة وقد تقدم ذكرهن ، ويحصل عنه أيضاً الذكاء والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر ، وجودة الفهم والتخيل والبداهة والكيس والخير وإصابة الظن والفراسة والزكانة والكهانة والعرافة والالهام ودقة النظر والرأي والتدبير وصحة الفكر وجودة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة ، فأما الذكاء فالمضاء في الأمر وسرعة القطع بالحق ، وأصله من ذكت النار وذكت الريح وشاة مذكاة يدرك ذبحها بحدة السكين ، وذكى الرجل تم فيه قوة الذكاء ، ولكن لما كان أكثر ما يوجد ذلك فيمن

١ ـ الشورى ١٧

تمت سنه صار يعبر عنه عن تمام السن ، ومنه قيل جري المذكيات غلاب ، وأما الذهن فقريب من الذكاء ، لكن يقال في إدراك ما وقع فيه التنازع ،

وأما **الفطنة** : فسرعة إدراك ما يقصد إشكاله ، ولهذا يكثر في استنباط الأحاجي والرموز.

وأما **الفهم** : فمقدمة للعقل فمن لا يعرف معنى الشيء فهما ، لم يتحققه عقلاً ، وقد يسمى الفهم عقلاً وإن كانت مرتبته دون مرتبة العقل . فقوة الفهم أن يدرك الأشياء الجزئية والعقل يدرك كلياتها ، ومعنى ذلك أن العقل يعترف أن العدالة حسنة والظلم قبيح والفهم يبين ، فيميز كل واحد من الفعل هل هو عدل أو ظلم ؟ وقد يوصف بالفهم من لا يوصف بالعقل كالحاذق في لعب الشطرنج ، وكل من يوصف بالعقل فانه يوصف بالفهم .

وأما **الخاطر** : فحركة الفهم نحو الشيء ، يقال : خطر الشيء ببالي ولم يقل خطر بالي بشيء ، فيجوز أن يكون ذلك من المقلوب كقولهم : عيش ناصب، وقد قيل في قولهم : عقلت الشيء وأحسست أنهما أيضاً من المقلوب ، فالشيء هو المؤثر في الحاسة والعقل لاهما فيه ،

وأما **الوهم** : فانقياد النفس لقبول أثر ما يرد عليها من قولهم حمل وهم ، وطريق وهم ، والفرق بينه وبين الخاطر أن الخاطر يقال فيما لا تقبله النفس ، والوهم لا يقال إلا فيما تقبله النفس،

وأما **الخيال** : فنحو الوهم لكن لا يقال فيما له اعتبار بما يكون من

جهة الحاسة ، وفيما له صورة ما ، ومنه سمي الطيف الوارد من جهة المحبوب خيالاً ، والخيال قد يقال لتلك الصورة في المنام وفي اليقظة ، والطيف لا يقال إلا فيما يكون حال النوم ، ولهذا ينسب الى الخيال لما كان ذلك من جانبه قال الشاعر :

نم فما زارك الخيال ولكنـ

ـك بالفكر زرت طيف الخيال

وأما البديهة : فمعرفة ثاقبة تجيء بلا فكر ولا قصد ، فالبديهة في المعرفة كالبديع في الفعل ،

وأما الروية : فما كان من المعرفة بعد فكر كثير وهو من روى .

وأما الكيس : فهو القدرة على جود استنباط ما هو أصلح في بلوغ الخير ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت »، من حيث أنه لا خير يصل اليه الانسان أفضل مما بعد الموت ، وقول العرب : أكيس من قشه لتصورِها بصورة الكيس لأنها ذات كيس في الحقيقة . وكاس في مشيته أي أظهر الكيس برفع إحدى رجليه ، وتسميتهم « الغادر » كيسان إما على طريق المجاز ، أو تنبيهاً على أن الغادربعد ذلك كيساً ، أو لأن كيسان في الأصل اسم لغادر ، ويسمى كل غادر كيسان كتسميتهم كل حداد هالكية .

وأما الخبر : فالمعرفة المتوصل اليها من قولهم : خبرته أي أصبت خبره ، وقيل هو من قولهم ناقة خبرة ، أي غزيرة فكأن الخبر هو غزارة المعرفة ، ويجوز أن يكون قولهم ناقة خبرة أي المخبرة عن

غزارتها كقولهم : ناقة ناجرة ،

وأما الظن : فاصابة المطلوب بضرب من الامارة ، ولما كانت الامارات مترددة بين يقين وشك فتقرب تارة من طرف اليقين وتارة من طرف الشك صار يفسر أهل اللغة بها، فمتى رؤي إلى طرف اليقين أقرب استعمل ان المثقلة والمخففة منها نحو قوله تعالى: « ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ »[١] وقوله : « وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ »[٢] ومتى رؤي الى طرف الشك أقرب استعمل معه أن التي للمعدومين من الفعل ، نحو ظننت أن تخرج وإن خرجت . وإنما استعمل الظن بمعنى العلم في قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ »[٣] لأمرين **أحدهما** تنبيه ان علم أكثر الناس في الدنيا بالإضافة الى علمه به في الآخرة كالظن في جنب العلم .

والثاني : ان العلم الحقيقي في الدنيا لا يكاد يحصل إلا للنبيين والصديقين المعنيين بقوله : « ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ »[٤]

والظن متى كان عن أمارة قوية ، فانه يمدح ومتى كان عن تخمين لم يعتمد ذم به كما قال تعالى : « إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ »[٥]

وأما الفراسة فالاستدلال بهيئة الانسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله ، وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الانسان وأحواله ، وقد نبه الله تعالى على صدقها

---

١ ـ البقرة ٤٦
٢ ـ الأعراف ١٧١
٣ ـ البقرة ٤٦
٤ ـ الحجرات ١٥
٥ ـ الحجرات ١٢

بقولـه : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ »(١) وقولـه : « تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ »(٢) وقوله : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ »(٣) ولفظها من قولهم فرس السبع الشاة فكأن الفراسة اختلاس المعارف ، وذلك ضربان : ضرب يحصل للانسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الإلهام بل ضرب من الوحي ، وإياه عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « المؤمن ينظر بنور الله » وهو الذي يسمي صاحبه المروع والمحدث وقال عليه الصلاة والسلام : « إن يكن في هذه الأمة محدث فهو عمر » وقيل في قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ »(٤) الآية. إنما كان وحياً بالقائه في الروع وذلك للأنبياء كما قال عز وجل : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ »(٥).

وقد يكون بالهام في حال اليقظة ، وقد يكون في حال المنام ، ولأجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة ».

والضرب الثاني من الفراسة يكون بصناعة متعلمة ، وهي معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية ، ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب بالفراسة ، وقد عمل في ذلك كتب من تتبع الصحيح منها اطلع على صدق ما ضمنوه ، والفراسة ضرب من الظن ، وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق

---

١ - الحجر ٧٥
٢ - البقرة ٢٧٣
٣ - محمد ٣٠
٤ - الشورى ٥١
٥ - الشعراء ١٩٣

بينهما فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب ، ومن قوي فيه نور الروح المذكور في قوله تعالى : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي »[1] كان ممن وصفه بقوله : « أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ »[2] وكان ذلك النور شاهداً أصاب فيما حكم به.

ومن الفراسة قوله عليه الصلاة والسلام في المتلاعنين : « إن أمرهما بين لولا حكم الله ».

ومن الفراسة علم الرؤيا ، وقد عظم الله تعالى أمرها في جميع الكتب المنزلة وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ »[3] وقال : « إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ »[4] الآية . وقال في قصة ابراهيم : « يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ »[5] وقوله : « [6] يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا » والرؤيا هي فعل النفس الناطقة ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوّة في الانسان فائدة ، والله تعالى يتعالى عن الباطل ، وهي ضربان :

ضرب : وهو الأكثر أضغاث أحلام ، وأحاديث النفس بالخواطر الردية ، لكون النفس في تلك الحال كالماء المتموّج لا يقبل صورة.

---

١ - الحجر ٢٩ ص ٧٢
٢ - هود ١٧
٣ - الاسرء ٦٠
٤ - الأنفال ٤٣
٥ - الصافات ١٠٢
٦ - يوسف ٤

وضرب : وهو الأقل صحيح وذلك قسمان :

قسم لا يحتاج الى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر الى مهارة يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ويفرق بين طبقات الناس ، إذ كان فيهم من لا تصح له رؤيا وفيهم من تصح رؤياه ، ثم من صح له ذلك منهم من يرشح أن تلقى اليه في المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك ، ولهذا قال اليونانيون : يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطعام ، وذلك لأن له حظاً من النبوّة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوّة » وهذا العلم يحتاج الى مناسبة بين متحريه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حذقاً فيه ، ورب نزر ألحظ من الحكمة ، وسائر العلوم توجد له فيه قوّة عجيبة ،

وأما الزكانة : فهو ضرب من الفراسة وهي معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم ، والقيافة ضرب من الزكانة لكنها أدق وهي ضربان :

أحدهما : يتتبع أثر الاقدام والاستدلال به على السالكين .

والثاني : الاستدلال بهيئة الانسان وشكله على نسبته ، وخص بالقيافة من العرب بنو مدلج ، وقيل إن ذلك بمناسبة طبيعية لا بتعلم وهي محكوم بها في الشرع ، وقال بعض الحكماء : خص الله بذلك العرب ليكون سبباً لارتداع نسائهم عما يورث ثقب نسبهم وخبث حسبهم وفساد بذورهم وزروعهم صيانة للنسبة النبوية ولأجل حفظه

تعالى نسبهم بذلك قال تعالى : « وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ »(١) أي ليعرف بعضكم بعضاً بمعرفة أصله.

والكهانة : مختصة بالأمور المستقبلة والعرافة بالأمور الماضية ، وكان ذلك في العرب كثيراً ، وآخر من وجد وروي عنه الأخبار العجيبة سطيح وسواد بن قارب ، وقيل : كان وجود ذلك في العرب أحد أسباب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يخبر به ويحث على اتباعه ، ونزع ذلك عنهم بعد النبوّة ، حتى روي لا كهانة بعد النبوّة ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من أتى كاهناً ، أو عرافاً فصدقه بما أتى به فقد كفر بما أنزل على محمد » تنبيهاً على انه قد رفع .

ومما يجري مجراهما التطير : وهو تشاؤم الانسان بشيء يقع تحت المناظر والمسامع مما تنفر منه النفس مما ليس بطبيعي . فأما نفارها مما هو طبيعي في الانسان كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار فلا يعد من هذا واشتقاقه من الطير وأصله في زجر الطير وما سواه ملحق به قال :

وما أنا ممن يزجر الطير حوله * أصاح غراب أم تعرّض طائر

ثم كثر في غيره حتى قال تعالى حكاية : « قالوا أطيرنا بك وبمن معك قال طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ »(٢) أي السبب الذي يسعدكم أو يشقيكم عند الله وقال تعالى : « وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله »(٣) وسمي عمل الانسان الذي يعاقب عليه طائراً فقال تعالى : « وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ »(٤)

---

١ ـ الحجرات ١٣
٢ ـ النمل ٤٧
٣ ـ الأعراف ١٣١
٤ ـ الاسراء ١٣

والنظر إجالة الخاطر نحو المرئي لإدراك البصيرة أيا كانت فللقلب عين ، كما أن للبدن عيناً فمن صح عين قلبه وأعانه نور الله اطلع على حقائق الأشياء وأدرك العالم العلوي وهو في الدنيا فيرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولكون الاطلاع عليه قال أمير المؤمنين ، لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

والرأي إجالة الخاطر في رؤية ما يريده وقد يقال للقضية التي تثبت عن الرأي رأي ، والرأي للفكرة كالآلة للصانع التي لا يستغنى عنها ويكون في الأمور الممكنة دون الواجبة والممتنعة ليكون من جملة الممكنات فيما يكون الينا ، فالطبيب لا يحيل رأيه في نفس البرء ، بل يكون في كيفية الوصول اليه ،

ويحتاج الرأي إلى أربعة أشياء : إثنان من جهة الزمان التقديم والتأخير ، أحدهما أن يعيد النظر فيما يرتبه لقوله عليه الصلاة والسلام : « تفكروا في لا إله إلا الله ولا تفكروا فى الله » قال تعالى : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ»[1] وقال تعالى : « يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون »[2]

وسئل بعض الحكماء عن الفكرة والعبرة ؟ فقال : الفكرة أن تجعل الغائب حاضراً ، والعبرة أن تجعل الحاضر غائباً.

وأما الذكر فوجود الشيء في القلب ، أو في اللسان وذاك ان الشيء له أربع وجودات ، وجود في ذاته ، ووجوده في قلب الإنسان ،

---

١ - الروم ٨
٢ - البقرة ٢١٩

ووجوده في لفظه ، ووجوده في كتابته .

فوجوده في ذاته سبب لوجوده في قلبه ، ووجوده في قلبه سبب لوجوده في نطقه ولوجوده في كتابته ، ويقال للوجودين : أي الوجود في القلب والوجود في اللسان الذكر ، ولا اعتداد بذكر اللسان ما لم يكن ذلك عن ذكر في القلب ، بل لا يكون ذلك شيئاً.

والذكر بالقلب ضربان: **أحدهما** : استعادة ما قد استثبته القلب فأمحى عنه نسياناً ، أو غفلة وهذا في الحقيقة هو التذكر ، **والثاني** : ثبات وجود الشيء في القلب من غير نسيان ولا غفلة وذكر الله تعالى على نحو الأول غير مرتضى عند الأولياء ، وإنما يحمد إذا كان على النحو الثاني .

واعلم أن ذكر الله تعالى تارة يكون لعظمته فيتولد منه الهيبة فالاجلال ، وتارة يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن ، وتارة لنعمته فيتولد منه الشكر ، ولذلك قيل ذكر النعمة شكرها . وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العبر ، فحق المؤمن ألا ينفك أبداً من ذكره على أحد هذه الأوجه وعليه دل قوله تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ »[1] الآية أي يذكر ربه في كل حال لأن الانسان لا ينفك من هذه الأوجه الثلاثة ان قيل : ما حقيقة ذكر الله تعالى عند ابتداء الأعمال ، حتى قيل : كل أمر لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر؟ قيل : نبّه بذلك على أن الأمور كلها يجب أن يقصد بها وجه الله تعالى ، وإن كل أمر لا

١ ـ آل عمران ١٩٠

يقصد به ذلك فهو ناقص ، وشرع ذكره باللسان ليكون ذلك سبباً لتذكر فيتحرى بفعله وجه الله تعالى ولا يعمل ما ينافي رضاه ، وعلى ذلك قوله : « وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ »[1] أي إذا عرض لك نسيان لما يلزمك فاذكر ربك تتذكر أنه مطلع عليك ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « أعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ».

وأما الحفظ فالمواظبة على مراعاة الشيء وقلة الغفلة عنه ، ومنه محافظة الحريم حتى قيل للغضب المقتضى لذلك حفيظة ، ويقال لثبات صورة الشيء في القلب الحفظ ، ويقال للقوة الحافظة أيضاً حفظ ، وفلان جيد الحفظ ، أي القوة الحافظة ، والحفظ للنفس من وجه جار مجرى الخزانة للملك يضع فيها الزخائر الى وقت الحاجة ، ومن وجه جار مجرى الكتاب الذي يكتب فيه الشيء فيرجع اليه ليتذكر به ، والناس متفاوتون فيه بحسب أمزجتهم ، فمنهم من قوى الله تعالى ذلك منه كما جعله لنبيه عليه أفضل الصلاة وأتم السلام فلذلك كان له من الحفظ ما يكفيه ويغنيه عن الاستعانة بالكتابة ولهذا قال الله تعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ »[2] فضمن أن يحفظ عليه مما جعله فيه من القوّة الالهية ، وروي أنه لما نزل قوله تعالى : « وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ »[3] قال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله تعالى عنه : « سألت الله تعالى ان يجعلها أذنك » فلم يسمع بعد ذلك شيئاً إلا وعاه ، ومن الناس من يسرع اليه النسيان ، فما سمعه

---

١ ـ الكهف ٢٤
٢ ـ القيامة ١٦
٣ ـ الحاقة ١٢

يكون كالحفظ يكتب على بسيط الماء .

وأما البلاغة فاجادة اختبار الألفاظ والإصابة في تأليفها وقدرها ومعناها وتحري الصدق فيها ، ولا يكون الكلام تام البلاغة ما لم يجمع هذه المعاني ، فإنه إن قبح اللفظ أو قبح التأليف ، أو كان أكثر مما يجب ، أو أقل مما يجب ، أو لم يطابق اللفظ المعنى إما حقيقة أو استعارة رائقة ، أو كان المعنى محالاً أو كذباً خرج الكلام بقدر ما اختل منه عن باب البلاغة . وقد وصفت البلاغة بأوصاف مختلفة بحسب أنظار مختلفة ، فقال بعضهم : البلاغة هي الإيجاز من غير عجز ، والإطناب في غير خطل ، وقيل : ما فهمه العامة ورضيه الخاصة ، وإلى غير ذلك من الأوصاف.

وأما الفصاحة فاشتقاقها من فصح اللبن أي خلص ، وهي الإصابة في اللفظ في الائتلاف دون اعتبار الصدق وصواب المعنى ، فكل كلام جزل اللفظ حسن التركيب فموصوف بالفصاحة صدقاً كان أو كذباً فالبلاغة ترجع إلى اللفظ ، والمعنى والفصاحة الى اللفظ دون المعنى .

الباب الثامن

﴿ ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية والمكتسبة وغاية ما يبلغه الانسان ﴾

من أشرف ثمرة العقل : معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف

عن معصيته ، وعلى ذلك دل قوله عليه الصلاة والسلام : « العقل ثلاثة أجزاء جزؤ معرفة الله ، وجزؤ طاعة الله ، وجزؤ الصبر عن معصية الله » وقال عليه الصلاة والسلام : « الايمان عريان ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وماله العفة ، وثمرته العلم » فمعرفة الله العامية مركوزة في النفس ، وهي معرفة كل أحد انه مفعول وأن له فاعلاً فعله ونقله ، فالأحوال المختلفة وهي المشار اليها بقوله تعالى : « فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا »[1] وبقوله : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة »[2] وبقوله : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ »[3] الآية . فهذا القدر من المعرفة في نفس كل واحد ويتنبه الغافل إذا نبه عليه فيعرفه ويعرف أن ما هو مساو لغيره ، فذلك الغير مساوٍ له ، ومن هذا الوجه قال تعالى : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ »[4] وقال في مخاطبة المؤمنين والكافرين : « فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ »[5] وقال بعده: « ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ »[6]

وأما معرفة الله المكتسبة : فمعرفة توحيده وصفاته وما يجب أن يثبت له من الصفات وما يجب أن ينفى عنه . وهذه المعرفة هي التي دعت اليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولهذا قال كلهم : قولوا لا إله إلا الله ، ولم يدع أحد الى معرفة الله تعالى ، بل دعا الى توحيده وهذه المعرفة أعني المكتسبة على ثلاثة أضرب .

١ ـ الروم ٣٠
٢ ـ البقرة
٣ ـ الأعراف ١٧٢
٤ ـ لقمان ٢٥
٥ ـ النحل ٥٣
٦ ـ النحل ٥٤

ضرب لا يكاد يدركه إلا نبي وصديق وشهيد ومن داناهم ، وذلك المعرفة بالنور الالهي من حيث لا يعتريه شك بوجه كما قال تعالى : « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ »[1]

وضرب يدرك بغلبة الظن ، أعني الظن الذي يفسره أهل اللغة باليقين ، كما قال تعالى : « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ »[2] وضرب يدرك بخيالات ومثل وتقليدات ، وإياه عنى بقوله : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ »[3]

فالأول : يجري مجرى إدراك الشيء من قريب ، ولهذا قال الله تعالى في وصفهم : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »[4]

والثاني : يجري مجرى إدراك الشيء من بعيد وقد تعتريه شبهة لكن تزول بأدنى تأمل كما قال تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ »[5]

والثالث : يجري مجرى من يرى الشيء من وراء ستر من بعيد فلا ينفك من شبهات ، كما أخبر تعالى عمن هذه حالته بقوله : « ان نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين »[6] ولأجل معرفة الله تعالى على الحقيقة حتى يتخلص من آفات الشرك قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا

---

١ ـ الحجرات ١٥
٢ ـ البقرة ٤٦
٣ ـ يوسف ١٠٦
٤ ـ ق ٣٧
٥ ـ الأعراف ٢٠١
٦ ـ الجاثية ٣٢

وهم مشركون »[1] وقال تعالى : « قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ »[2] وقال تعـالى : « وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ »[3] وقال تعالى : « قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ »[4] وقال عليه الصلاة والسلام : (مـن قال لا إلـه إلا الله مخلصاً دخل الجنة).

وغاية معرفة الانسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة ، ويعرف أثر الصنعة فيها وأنها محدثة ، وأن محدثها ليس إياها ولا مثالها، بل هو الذي يصح ارتفاع كلها مع بقائه تعالى ، ولا يصح بقاؤها وارتفاعه ، وبهذا النظر قال أبـو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه :

سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفتـه إلا بالعجـز عن معرفته ، بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام : (تفكروا في لا إله إلا الله ولا تتفكروا في ذات الله).

ولما كانت معرفة كله تصعب على الانسان الواحد لقصور أفهام بعضهم عنها واشتغال بعضهم بالضرورات التي يعرفهـا منهـم جعـل تعالى لكل انسان من نفسه وبدنه عالماً صغيراً أوجـد فيه مثـال ما هو موجود في العالم الكبير ، ليجـري ذلك من العالـم مجـرى مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر الى السفر والليل والنهار ، فان نشط وتفرغ للتوسط في العلم ، نظر في العالـم الكبـير

١ - يوسف ١٠٦
٢ - الزمر ١١
٣ - البينة ٥
٤ - الزمير ١٤

الكتاب الكبير الذي هو الملكوت ، ليغزر علمه ويتسع فهمه ، وإلا فله مقنع بالمختصر الذي معه ، ولهذا قال : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون »[1] ولشرف متأملي ذلك قال تعالى : « أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ »[2] وقال تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ »[3] الآية . فنبه بمدحهم حيث قالوا: « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ »[4] انهم عرفوا المقصود بخلقه .

وذلك آخر الأبحاث لأن الأبحاث أربعة :

بحث عن وجود الشيء بهل هو ؟

وبحث عن جنسه بما هو ؟

وبحث عما يباين به غيره بأي شيء هو ؟

وبحث عن الغرض بلم هو ؟

وهذه الأبحاث يبتني بعضها على بعض ، لا يصح معرفة الثاني إلا بمعرفة الأول ، ولا معرفة الرابع إلا بمعرفة الثالث ، أو قولهم : « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا »[5] يقتضي انهم عرفوا الأبحاث الأربعة ، والا شهدوا بما لم يتحققوا ، ومن شهد بما لم يتحقق كذب ، وان كان ما شهد على ما شهد به .

---

١ ـ الذاريات ٢١
٢ ـ الأعراف ١٨٥
٣ ـ آل عمران ١٩١
٤ ـ آل عمران ١٩١
٥ ـ آل عمران ١٩١

ألا ترى أن الله تعالى كذب المنافقين حيث قالوا : « إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ »[1] مع أنه رسوله فدلت هذه الآية على أن البحث الذي يؤدي الى معرفة حقائق الموجودات التي تتضمن معرفة الباري تعالى ، هو من العلوم الشريفة بخلاف قول الصم البكم الذين لم يجعل الله لهم نوراً حيث يدعون من اشتغل بمعرفة ذلك .

الباب التاسع
﴿ وجوب بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقلة الاستغناء عنهم ﴾

بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الى الناس من الضرورات التي لا بد لهم منها ، وذاك أن جل الناس نقص عن معرفة منافعهم ومضارهم الأخروية جزئياتها وكلياتها ، وبعضهم وان كان لهم سبيل الى معرفة كليات ذلك على سبيل الجملة ، فليس لهم سبيل الى معرفة جزئياتها ، ولم يمكنهم أن يعرفوا كيف يجب ، وفي أي وقت يجب وكم يجب ، فلما كان كذلك من الله تعالى على كافة عباده خاصهم وعامهم ، بعث فيهم من أنفسهم برسل يتلون عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، لكي إذا تمسكوا به صلح معادهم ومعاشهم وسهل عليهم إدراكهم ، ولهذا أزال علتهم ببعثة الأنبياء فقال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »[2] .

١ ـ المنافقون ١

الباب العاشر

﴿ ما يعرف به صحة النبوة ﴾

لكل نبي آيتان .

احداهما : عقلية يعرفها أولوا البصائر من الشهداء والصالحين ومن يجري مجراهم .

والثانية : حسية يدركها أولوا الأبصار من العامة ، فالأولى ما لهم من أصولهم الزكية وصورهم المرضية وعلومهم الباهرة ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستصحبة ، وأنوارهم الساطعة التي لا تخفى على أولي البصائر كما قال الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

لو لم يكن فيه آيات مبينة * كانت بداهته تغنيك عن خبره

وذاك أن حق النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون من أكرم تربة في العالم ، وحيث يكون عقل أربابها أوفر ، ولهذا لم يبعث نبي من الأطراف التي تضعف عقول أصحابها ولهذا قال تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا »[1] الآية . ونبه بقوله : « ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ »[2] أنه جعل النبوّة في بيت واحد ولا تخرج عنه لكونه أشرف ، ويجب أن يكون عليهم أنوار تروق من رآها وأخلاق تتملق من ابتلاها كما قال تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى »[3] وقال لنبينا صلى الله عليه

١ ـ آل عمران ٣٣
٢ ـ آل عمران ٣٤
٣ ـ طه ٣٩

وسلم : «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ»[1].

ويجب أن يكون كلامه ذا حجة وبيان يشفي سامعه إذا كان مخصصاً بنور العقل ، ولذلك قال تعالى : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا »[2] الآية وهذه الأحوال إذا حصلت لا يحتاج ذو البصيرة معها الى معجزة ، ولا يطلبها كما لا يطلب الأنبياء من الملائكة فيما يخبرونهم به حجة ، ولهذا لما عرض النبي صلى الله عليه وسلم على الصديق رضي الله تعالى عنه الاسلام تلقاه بالقبول حتى قال : (ما أحد عرضت عليه الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر ، فإنه لم يتلعثم فيه).

وأما الآية الثانية فهي :

المعجزة التي تدركها الحواس من الأنبياء ، وذلك يطلبه أحد رجلين :

إما ناقص عن الفرق بين الكلام الالهي ، وبين البشري وعن إدراك سائر ما تقدم ذكره، فيحتاج ما يدركه حسه لقصوره عن إدراك ذلك.

وإما ناقص ومع نقصه هو معاند فقصده بما يطلبه العناد كما قال تعالى حكاية عن الكفار : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً »[3] الآية .

---

١ ـ القلم ٤
٢ ـ الشورى ٥٢
(٣) ـ الأسراء ٩٠

الباب الحادي عشر
﴿ كون العقل والرسل هاديين الخلق الى الحق ﴾

لله عز وجل رسولان الى خلائقه:
أحدهما : من الباطن ، وهو العقل.
والثاني : من الظاهر ، وهو الرسول .

ولا سبيل لأحد بالانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن ، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ، ولولاه لما كان تلـزم الحجة،وَلهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة انبيائه على العقل وأمر أن يفزع اليه في معرفة صحتها ، فالعقل ، قائد والـدين مسدد ، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً واجتماعهما كما قال تعالى : « نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ »[1] .

الباب الثاني عشر
﴿ تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتهذب في العلوم العقلية ﴾

المعقولات تجري مجرى الأدوية الجالبة للصحة،

والشرعيات تجري مجرى الأغـذية الحافظـة للصحـة ، كما أن

١ ـ النور ٣٥

الجسم متى كان مريضاً لم ينتفع بالأغذية ، بل ينظر بها كذلك من كان مريض النفس كما قال تعالى : « فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ »(١) لم ينتفع بسماع القرآن الـذي هو موضـوع الشرعيات ، بل صار ذلك ضاراً له مضرة الغذاء للمريض وعلى هذا قوله تعالى : « وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا »(٢) الآيتان،وأيضاً فالقلب بمنزلة مزرعة للمعتقدات ، والاعتقاد فيه بمنزلة البـذر إن خـيراً وإن شراً ، وكلام الله بمنزلة الماء إذا سقى الأرض تختلف تأثيراته ، والى ذلك أشـار تعـالى بقولـه : « وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ »(٣) الآية. وقال تعـالى : « والبلـد الـطيب يخـرج نباتـه بِإِذْنِ رَبِّهِۦ »(٤) الآية وأيضاً فالجهل بالمعقولات جار مجرى سَتْرٍ مَرْخِـيٍّ على البصر وغشاء على القلب ووقر في الأذن ، والقرآن لا يدرك حقائقه إلا من كشف غطاؤه ورفع غشاؤه وأزيل وقره ، ولهذا قال تعالى : « وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا » الى قوله : « وقرا »(٥) .

وأيضاً فالمعقولات كالحياة التي بها الأسماع والابصار ، والقرآن كالمدرك بالبصر والسمع ، فكما أن من المحال أن يسمع الميت قبل أن يجعل الله فيه الروح والسمع والبصر ، كذلك من المحال أن يدرك من لم يحصل المعقولات حقائق الشرع ولهذا قال الله تعالى : « فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ » (الى قوله) : « إِلَّا مَن يُؤْمِنُ

---

١ - البقرة ١٠
٢ - التوبة ١٢٤
٣ - الرعد ٤
٤ ـ الأعراف ٥٨
٥ ـ الاسراء ٤٥ ـ ٤٦

بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ »[1] يعني آيات السموات والأرض وغيرهما .

الباب الثالث عشر
﴿ الايمان والاسلام والتقى والبر ﴾

الايمان : هو الاذعان الى الحق على سبيل التصديق له واليقين ، ولهذا وصف الله الايمان والعلم بوصف واحد فقال : «إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ »[2] وقال: « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »[3] ووجل القلب هو الخشية للحق على سبيل التصديق له باليقين ، هذا أصل الايمان ، لكن صار اسماً لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كالإسلام ، وصح أن يطلق على من يظهر ذلك ، وإن لم يتخصص به اعتقاداً أو ثلج صدر ، كاليهودي في أن أصله للمنسوب الى يهود ، والنصراني في أن أصله للمنسوب الى نصران ، وهي قرية . ثم صارا اسمين للمتخصصين بالشريعتين ، على أن اشتقاق الايمان لا يمنع من أن يطلق على من يظهره ، فان المؤمن هو من صار ذا أمن ، وباظهار الشهادتين يأمن الانسان من أن يراق دمه ، أو يباح ماله في الحكم ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (من قال لا إله إلا الله فقد عصم منا دمه وماله إلا بحق) وروي (شهادة أن لا إله إلا الله كلمة جعلها الله بيننا فمن قالها من قلبه فهو مؤمن ومن قالها بلسانه كان له ما لنا وعليه ما علينا وحسابه على الله) وذاك أنه لا يطلع على

١ ـ الروم ٥٢ ـ ٥٣
٢ ـ فاطر ٢٨
٣ ـ الأنفال ٢

القلوب إلا الخالق تعالى.

والشريعة واردة أن يطلق اسم الايمان على من يظهر ذلك من نفسه من غير فحص عن قائله ، ولا يتحاشى من إطلاق ذلك عليه ما لم يظهر منه ما ينافي الايمان ، بخلاف ما ادعته المعتزلة : بانه لا يصح إطلاق المؤمن على الانسان ما لم يختبر في الأصول الخمسة ، ويوقف منه على حقيقة ما عنده.

والاسلام : هو الاستسلام بما يدعوا اليه الشرع من فعل ما يقتضي فعله ، والملة : القود الى الطاعة ، والدين : الانقياد له ، وهما بالذات واحد لكن الدين هو الطاعة فيقال : اعتباراً بفعل المدعو في انقياده الى الطاعة والملة من أمللت الكتاب فيقال : اعتباراً بفعل الداعي اليها والشارع لها ، ولكونهما بالذات واحداً قال تعالى : « دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا »[1] فابدل الملة من الدين ، والدين أعم من الاسلام ، إذ هو يستعمل في الحق والباطل والاسلام لا يستعمل إلا في الحق ولهذا قال الله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام »[2] وقال : « ومن يَبتغِ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه »[3] والإحسان تحري الحسنة في الايمان والاسلام ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لما قيل له ما الاحسان ؟ قال : (أن تعبد الله كأنك تراه) والتقوى جعل النفس في وقاية من سخط الله تعالى : (وذلك بقمع الهوى والبر : السعة في علم الحق وفعل الخير مشتق من البر ، أي السعة في الأرض ، وهو المعبر عنه بانشراح الصدر واطمئنان القلب وقال عليه الصلاة والسلام : (البر ما

---

١ ـ الأنعام ١٦١ ٢ ـ آل عمران ١٩ ٣ ـ آل عمران ٨٥

سكنت اليه نفسك واطمأن به قلبك ، والإثم ما حاك في نفسك وتردد في صدرك) وقال : (البر طمأنينة ، والشر ريبة ومن البر الجود) ولأجله جعل الجود من الايمان قال الله تعالى : « فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ »[1] والاخلاص أن يقصد الانسان بما يفعله وجه الله تعالى متعرياً عن الالتفات الى غيره ، ولذلك قال الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين »[2] ولقلة وجود ذلك قال الله تعالى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ »[3] ولما كان الايمان يقال باعتبار العلم وهو متعلق بالقلب والاسلام بفعل الجوارح ، والتقوى بقمع الهوى قال صلى الله عليه وسلم : (الاسلام علانية والايمان في القلب والتقوى ههنا) وأشار الى صدره ، لما كان الصدر مقر قوى الانسان من الفكرة والشهوة والغضب ، ثم قال : « ولا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه ، حتى يستقيم لسانه) وقال : (الإيمان قائد والعمل سائق ، والنفس حرون ، فان أبى قائدها لم يستقيم سائقها ، وان أبى سائقها لم تطع قائدها) ولما كان الايمان والاسلام والتقوى متلازمة قال في الجنة : « أعدت للمتقين »[4] وقال في موضع آخر : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين امنوا »[5] وقال : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه »[6] الآية .

---

١ ـ الأنعام ١٢٥
٢ ـ الحديد ٢١
٣ ـ يوسف ١٠٦
٤ ـ البنية ٥
٥ ـ الحديد ٢١
٦ ـ البقرة ١١٢

الباب الرابع عشر
﴿ في الإيمان ﴾

اختلف في الايمان :

هل هو الاعتقاد المجرد ؟ أم الاعتقاد والعمل معاً ؟ ، واختلافهم بحسب اختلاف نظرهم ، فمن قال : هو الاعتقاد المجرد ، فنظر منه الى اشتقاق اللفظ ، والى انه قد فصل بينهما في عامة القرآن فعطف بالعمل عليه كقوله تعالى : « ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ »(١) ولأن النبي صلى الله عليه وسلم فرق بينهما في خبر جبريل عليه السلام حين سأله عن الاسلام والايمان ؟ ففسر الأول بالأعمال ، والثاني بالاعتقاد .

ومن قال : هو الاعتقاد والعمل فلقوله عليه الصلاة والسلام : (الايمان معرفة بالقلب وإقرارٌ باللسان وعملٌ بالأركان) وكذلك اختلفَ أهل يكون في الايمان زيادة ونقصان ! فقال قوم : يكون ذلك فيه لقوله تعالى : «فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ»(٢) وقوله تعالى : « وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا »(٣) وقوله : لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ »(٤)

---

١ ـ الشورى ٢٢
٢ ـ التوبة ١٢٤
٣ ـ الأنفال ٢
٤ ـ الفتح ٤

ومن خالفهم : يقول الشيء إنما يزيد بغلبته على ضده وينقص بغلبة ضده عليه قالوا : والايمان لا يحصل إلا بعد الغلبة على الكفر ، فلا يضامه حتى يقال انه يغلب عليه .

وكذلك اختلفوا في جواز إطلاق اسم الإيمان على من أقر بالشهادتين ، فقال بعضهم : يجوز ذلك نظراً منه الى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « في الجارية التي سألها عن الله ، فأشارت إلى السماء ، وعن النبوة فأشارت اليه صلى الله عليه وسلم فقال : (اعتقها فانها مؤمنة)، ولأن الايمان ليس بذي منزلة واحدة.

ومن قال لا يجوز ، فنظر منه الى قوله تعالى : «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ»[1] لما روي عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : (من قال انا مؤمن فهو فاسق ، ومن قال أنا عالم فهو جاهل). إن قيل ما معنى قوله عليه الصلاة والسلام : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن) قيل : الايمان ذو منازل ، كما وصفه صلى الله عليه وسلم بقوله : (إنما يكون الانسان مؤمناً بلا مثنوية إذا استوعب منازله فتعرى من جميع الشرور ، وتخصص بجميع الخيرات على قدر طاقة البشر) ومتى انخرم بعض ذلك خرج عما هو ، كقولهم : عشرة في كونه إسماً لعدد مخصوص ، إذا سقط بعضه سقط ذلك الاسم عنه .

ومن شرط الايمان الكامل أن لا يكون زانياً ولا سارقاً.

---

١ ـ الانفال ٢

الباب الخامس عشر
﴿ في أنواع الجهل ﴾

الانسان في الجهل على أربعة منازل:

الأول : من لا يعتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا طالحاً ، وأمره في إرشاده سهل إذا كان طيعاً ، فانه كلوح أبيض لم يشغله نقش ، وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر ، ويقال له باعتبار العلم النظري غفل ، وباعتبار العلم العملي غمر ، ويقال له سليم الصدر.

والثاني : معتقد لرأي فاسد ، لكنه لم ينشأ عليه ولم يترب به ، فاستنزاله عنه سهل وإن كان أصعب من الأول ، فانه كلوح يحتاج الى حذف وكتابة ، وكأرض تحتاج الى قلع وزراعة ويقال له : غاو وضال ،

والثالث : معتقد لرأي فاسد قدّر أنه قد تراءت له صحته فركن اليه بجهله وضعف بصيرته ، فهو من وصفه الله تعالى بقوله : « إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ »[1] لا سبيل الى تنبهه وتهذيبه كما قيل لحكيم يعظ شيخاً جاهلاً : ما تصنع؟ فقال: اغسل مسحاً إن ابيض.

والرابع : معتقد اعتقاداً فاسداً عرف فساده وتمكن من معرفته ،

---

١ ـ الأنفال ٢٢

لكنه اكتسب دنية لرأسه ، وكرسياً لرياسته فهو محامي عليها فيجادل بالباطل ليدحض به الحق ، ويذم أهل العلم ليجر الى نفسه الخلق ، ويقال له : فاسق ومنافق ، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر في نحو قوله تعالى :«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ»[1] وقوله تعالى : «فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ »[2] فنبه الله تعالى انهم ينكرون ما يقولونه ويفعلونه لمعرفتهم ببطلانه ، لكن يستكبرون عن إلتزام الحق ، وذلك حال ابليس فيما دعي اليه من السجود لآدم عليه السلام .

والجنون : هو عارض يغمر العقل ، والحمق : قلة التنبه لطريق الحق ، وكلاهما يكون تارة خلقة وتارة عارضاً ، وقد عظم الحق ما لم يعظم الجنون وقد قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به * إلا الحماقة أعيت من يداويها

وقد حكي حكاية وهي وإن لم تصح فنافع ذكرها ، وهي ان عيسى عليه السلام أُتي بأحمق ليداويه فقال : أعياني مداواة الأحمق ، ولم يعييني مداواة الأكمه والأبرص ، ومما يفرق بينهما :

ان المجنون يكون غرضه الذي يريده ويرومه فاسداً وسلوكه اليه خطأ ، ولهذا يعرف المجنون اذا رؤي بارادته قبل سلوكه الى مراده ، والأحمق لا يعرف بمراده بل بسلوكه ، ولهذا متى صح إرادة المجنون صح فعله حتى تتعجب كثيراً من فلتات صوابه ، والأحمق لا يكاد

١ - آل عمران ٥
٢ - يونس ٢٢

يصيب في شيء من مسالكه .

وأما البله : فقلة التنبه في الأمور ويضاده الكيس ، وقد تقدم ان البله والكيس يقالان تارة باعتبار الأمور الأخروية ، فمن كان في أحدهما كيساً كان في الأخرى أبله ، وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : أكيس الكيس التقي ، وأحمق الحمق الفجور

وأما الرقيع : فالذي يلصق بقلبه كل محال كأنه لصق بذلك .

والأرعن: الذي يأتي بما يخرج عن الصواب تشبهاً برعن الجبل وهو الحيد منه ،

والأحمق: الناقص العقل من قولهم انحمقت السوق ، أي نقصت ،

والغمارة : قلة التجربة في الأمور العملية مع تخيل سليم ، وقد يكون الإنسان غمراً في شيء غير غمر في غيره ،

الحذق : يقال في الجاهل بالأمور العملية ، وذلك بأن يفعل أكثر مما يجب ، أو أقل على غير النظام المحمود ، وفساد كل عمل لا يعدو هذه الوجوه الثلاثة ، ويضاده الحذق .

والبغي : ارتكاب الهوى وترك ما يقتضيه الحق والعقل .

والضلال : ان يقصد لاعتقاد الحق ، أو قول الصدق ، أو فعل الجميل ، فظن لسوء تصوره فيما كان باطلاً انه حق فاعتقده ، أو فيما كان كذباً انه صدق فقاله ، أو فيما كان قبيحاً انه جميل ففعله ، والجهل عام في ذلك كله ،

والخب : استعمال الدهاء في الأمور الدنيوية صغيرها وكبيرها : والجربزة مثله ، لكن يقال فيما يقتضي الأمور الدينية ، والدهاء لكن يقال في الأمور العظام إذ أدرك غاياتها ولهذا قالوا : الدهاة في الاسلام أربعة ، فذكروا المتوجهين في الحالات الدنيوية الذين بلغوا بها أموراً كباراً ، ومن الجهل الكفر ، وهو عناد الانسان للحق على سبيل التكذيب له لا بيقين ، وأصله من سنن ما جعل الله للانسان بفطرته وصبغته من المعارف بما يستعمله ويتحراه من عناد الحق ، ومن ترك النظر والاخلال تزكية النفس المعني بقوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا »[1]

الباب السادس عشر
﴿ في قول النبي صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون باباً ﴾

ثبت الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: (الايمان بضع وسبعون باباً ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) وهذه لفظة من تأملها وعرف حقيقتها ، علم ان الايمان الواجب هو اثنان وسبعون درجة ، لا يصح أن يكون أكثر منها. ولا أقل، ولا يوجد من الايمان ما هو خارج عنها بوجه صادق ، وانه عليه الصلاة والسلام فيما يورده كما وصفه عز وجل بقوله : « وَمَا

---

١ ـ الشمس ٩

يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ »[1].

وبيان ذلك ان الايمان شيئان: اعتقاد وأعمال.

والاعتقاد على ثلاث منازل، يقيني: لا يعتريه شبهة، كما قال تعالى: « ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ »[2]

وظنّي: وهو ما كان عن امارة قوية، وأعني بالظن ههنا ما يفسره أهل اللغة باليقين نحو قوله: « ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ »[3].

وتقليدي: وذلك ما يعتقد عن رأي أهل البصائر، كما وصفه تعالى بقوله: « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ »[4].

والأعمال ثلاثة: عمارة الأرض المعنية بقوله تعالى: « وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا »[5]

وعبادته المعنية بقوله: « وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »[6] وخلافته المعنية بقوله: « وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ »[7] وقوله: « إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً »[8] وذلك بتحري مكارم الشريعة فهذه ستة، وكل واحد من هذه اما يتحراه الانسان عن رغبة

---

١ ـ النجم ٣
٢ ـ الحجرات ١٥
٣ ـ البقرة ٤٦
٤ ـ النساء ١٣
٥ ـ هود ٦١
٦ ـ الذاريات ٥٦
٧ ـ الأعراف ١٢
٨ ـ البقرة ٣٠

أو رهبة ، كما قال : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا »[1] أو يتحراه عن إخلاص بطوع واختصاص نفس كما قال تعالى : « وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ »[2] فهذه اثنتا عشرة منزلة ، وكل واحدة من هذه إما أن يكون الانسان في مبدئه ، أو في وسطه ، أو في منتهاه ، لأن كل فضيلة ورذيلة لا ينفك الانسان فيه من هذه الأحوال الثلاث ، ولهذا قال الله تعالى في الفضيلة :« لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ »[3] الآية . وقال في الرذيلة : « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا »[4] الآية . فجعل منازل الايمان ومنازل التقوى ثلاثة كما ترى ، فهذه اثنتا عشرة في ثلاثة بستة وثلاثين . وكل واحد من هذه الستة والثلاثين ، اما أن يتوصل اليه من طريق الاجتباء ، أو من طريق الهداية ،

فالاجتباء : للأنبياء ومن يليهم من الأولياء ، وهو إيثار الله تعالى بعض عباده بفيض إلهي تأتيهم الحكمة بلا سعي منهم وعلى هذا قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ »[5] وقوله : «ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء»[6] .

والاهتداء : للعلماء والحكماء ، وهو توفيق الله تعالى العبد ليطلب بسعية وجهدة الحكمة فيتحصل له منها بقدر ما يتحمل من المشقة ، واياهما عنى بقوله تعالى :« ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ

١ ـ الأنبياء ٩٠
٢ ـ النساء ١٤٦
٣ ـ المائدة ٩٣
٤ ـ النساء ١٣٧
٥ ـ يوسف ٦
٦ ـ آل عمران ١٧٩

إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ »[1] وقوله : « وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ »[2] فهـذه اثنتـان وسبعون درجة لا يمكن الزيادة عليها ولا النقصان عنها ، وكل ما ورد من الأخبار فليس بخارج منها ، والله الموفق .

فما هو من جملة العبادة قوله عليه الصلاة والسلام : (الوضـوء شطر الايمان) وقوله: (الايمان : الصلاة من فرغ لهـا قلبـه وأقامهـا بحدودها ووقتها وسنتها) ،

ومما هو من مكارم الشريعة قوله عليه الصلاة والسلام : (الحياء من الايمان). وقال : (لا يجتمع ايمان وشح في قلب عبد)، وقوله : (ثلاث من جمعهن جمع الايمان : الانفاق من الاقتار ، وانصاف المؤمن من نفسه ، وبذل السلام). وقوله عليه الصـلاة والسـلام : أكْمَـلُ المؤمنـين أحسنُهـم خُلُقـاً ، وألطفهـم بأهلـه). وقولـه لأنـــاس من أصحابه : (ما أيمانكم ؟ قالوا : الصبر على البلاء ونشكر في الرخاء ونـرضى بالقضـاء . فقـال صلى اءلله عليه وسلـم : (مؤمنـون ورب الكعبة).

الباب السابع عشر
﴿ كون العلم مركوزاً في نفوس الناس ﴾

الانسان معدن الحكمة والعلـوم ، وهـي مركوزة فيهـا مجعولـة

١ ـ الشورى ١٣
٢ ـ مريم ٥١

بالفطرة لها وبالقوة كالنار في الحجر ، والنخل في النواة ، والذهب في الحجارة ، وكالماء تحت الأرض ، لكن لا يوصل اليه إلا بدلو ورشاء .

ومنه ما هو كامن يحتاج في استنباطه الى حفر وتعب شديد ، فان عني به أدرك وإلا بقي غير منتفع به ، كذا العلم في نفوس البشر منه ما يوجد من غير تعلم بشري ، وذلك كحال الأنبياء ، فانهم تفيض عليهم المعارف من جهة الملا الأعلى .

ومنه ما يوجد بأدنى تعلم ، ومنه ما يصعب وجوده كحال عوام الناس ، ولكون العلوم مركوزة في النفوس قال تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ »[1] الآية . فأقروا أن الله هو الذي يربيهم ويغذيهم ويرزقهم ويكملهم من الطفولية فهو إقرار نفوسهم كلهم بما ركن في عقولهم ، فأما الاقرار باللسان فلم يحصل من كلهم ، وكذا المعنى بقوله : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ »[2] أي لئن اعتبرت أحوالهم لكانت نفوسهم وجوارحهم تنطق بذلك ، وعلى ذلك قوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا »[3] الآية . فبين ان الدين الحنيف وهو المستقيم قد فطر الناس عليه أي خلقهم عالمين به . فان المعاندين وإن قصدوا تبديله وإزالة الناس عنه لم يقدروا عليه وعلى ذلك قوله تعالى : «صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً »[4] وقال فيمن قويت في قلوبهم الفطرة والصبغة : « أُوْلَٰٓئِكَ

---

١ - الأعراف ١٧٢
٢ - الزخرف ٨٧
٣ - الروم ٣٠
٤ - البقرة ١٣٨

كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ»(١) فسمى ذلك كتاباً وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة » . وهذه الشهادة المأخوذة عليهم فالناس فيها ضربان : ضرب أجالوا خواطرهم حتى أدركوا حقائقها فصاروا كمن حملوا شهادة فنسوها ثم تذكروها ، ولذلك قال في غير موضع : «لعلهم يذكرون» (٢) «وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ»(٣)

وضرب أهملوا أنفسهم ولم يشتغلوا بتذكر ما حملوا كما قال : «وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ»(٤) فهم في الجهالة يتسكعون ، وعلى هذا حثنا الله على التذكر بقوله : «وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦ »(٥) وقال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ»(٦)أي يسرنا القرآن ليكون سبباً أن تتوصلوا به الى تذكر ما سبق من عهدكم ،

والتذكر على أضرب : **الأول**: أن يكون باللسان عن صورة ما حصل في القلب. **الثاني**: أن يكون في القلب كصورة حصلت عن شيء معهود إما من البصر ، أو من البصيرة أو غيره من المشاعر.

والثالث: أن يكون عن صورة مضمنة بالفطرة في الانسان وهو المشار اليه بهذه الآيات ، ومن هذا الوجه قال الحكماء : التعليم ليس يجلب اللسان شيئاً من خارج في الحقيقة ، وإنما يكشف الغطاء عما

---

١ ـ المجادلة ٢٢
٢ ـ البقرة ٢٢١
٣ ـ ابراهيم ٥٢
٤ ـ الصافات ١٣
٥ ـ المائدة ٧
٦ ـ القمر

حصل في النفس فيبرزه بخلابه ، فمثله كمثل الحافر المستنبط الماء من تحت الأرض ، وكالصيقل الذي يبرز الجلاء في المرآة ، وهذا ظاهر لمن نظر بعين عقله.

الباب الثامن عشر
﴿ حصر أنوع المعلومات ﴾

أنواع المعلوم ثلاثة أنواع : نوع يتعلق باللفظ ، ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ، ونوع يتعلق بالمعنى دون اللفظ ،

أما المتعلق باللفظ : فهو ما يقصد به تحصيل الألفاظ بوسائط المعاني وذلك ضربان :

أحدهما : حكم ذوات الألفاظ وهو علم اللغة ،

والثاني : حكم لواحق الألفاظ ، وذلك شيئان:

شيء يشترك فيه النظم والنثر وهو علم الاشتقاق وعلم النحو وعلم التصريف وشيء يختص به النظم وهو علم العروض، وعلم القوافي .

وأما النوع المتعلق باللفظ والمعنى فخمسة أضرب : علم البراهين ، وعلم الجدل ، وعلم الخطابة ، وعلم البلاغة ، وعلم الشعر ، **وأما المتعلق** بالمعنى فضربان : علمي وعمليّ ، **فالعلميّ** : ما قصد به أن يعلم فقط ، وهو معرفة الباري تعالى ، ومعرفة النبوة ، ومعرفة الملائكة ، ومعرفة يوم القيامة ، ومعرفة العقل ، ومعرفة النفس

ومعرفة مبادىء الأمور ، ومعرفة الأركان ، ومعرفة الآثار العلوية من الفلك والنيرين والنجوم ، ومعرفة طبائع النبات ، ويقال له علم الفلاحة ، ومعرفة طبائع الحيوانات ، ومعرفة طبائع الانسان ، ويقال له علم الطب.

وأما العملي : فهو ما يجب أن يعلم ، ثم يعمل به فيسمى تارة السنن والسياسيات ، وتارة الشريعة ، وتارة أحكام الشرع ومكارمه ، وذلك حكم العبادات ، وحكم المعاملات ، وحكم المطاعم ، وحكم المناكح ، وحكم المزاجر ،

والطرق التي يستفاد منها العلوم أربعة أضرب :

الأول : المستفاد من بديهة العقل ومصادمة الحس ، وذلك لكل من لم يكن مفقود الآلة ، وان اختلفت أحوالهم في ذلك.

الثاني : المستفاد من جهة النظر إما بمقدمات عقلية ، أو بمقدمات محسوسة.

الثالث : المستفاد من خبر الناس ، اما بسماع من أفواههم ، أو بالقراءة في كتبهم ولا يكون الخبر علما إلا ما كانت المظنة عن مخبريه مرتفعة.

والرابع : ما كان عن الوحي إما بلسان ملك مرئي ، كما قال تعالى : « نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ »[1] وإما بسماع كلام من غير

---

١ - الشعراء ١٩٣

مصادفة عين ، كما سمع موسى عليه السلام وإما بإلقاء في الروع في اليقظة كما قال عليه الصلاة والسلام : (إن يكن في هذه الأمة محدث فهو عمر) ، وإما بالمنام ، وهو المعني بقوله : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة ، وينطوي على ذلك قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ »[1]

الباب التاسع عشر
﴿ ما يعرف به فضيلة العلوم ﴾

فضيلة العلم تعرف بشيئين : أحدهما بشرف ثمرته ، والآخر بوثاقة دلالته ، وذلك كشرف علم الدين على علم الطب ، فإن ثمرة علم الدين الوصول : الى الحياة الأبدية ، وثمرة علم الطب : الوصول الى الحياة الدنيوية ، وعلم الدين أصوله مأخوذة عن الوحي ، والطب أكثر أصوله من التجارب ، ورب علم يوفي على غيره بأحد الوجهين ، وذلك الغير يوفي عليه بالوجه الآخر ، كالطب مع الحساب ، فللطب شرف الثمرة ، إذ هو يفيد صحة البدن ، وللحساب وثاقة دلالة إذا كان العلم به ضرورياً غير مفتقر الى التجربة وليس يجب أن يحكم بفساد علم لخطأ وقع من أربابه كصنيع العامة إذا وجدوا من أخطأ في مسألة حكموا حكمه ، وعلى صناعته بالفساد ،

---

١ . الشورى ٥١

واذا رؤا من أصاب في مسألة حكموا على صناعته بالصحة ، وذلك عادتهم في الطب والتنجيم فيحكمون على الصناعة بالصنائع ، خلاف ما قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله تعالى عنه : يا حار الحقُّ ملبوسٌ عليك الحقُّ ، لا يُعرف بالرجال إعْرف الحقّ تعرف أهله ، وليس يدرون ان الصناعة مبنية على شيء روحانيّ ، والمتعاطي لها يباشرها بجسم وطبع يضامها العجز خليق بوقوع الخطأ منه ، ثم الانسان قد ينتحل ما لا يحسنه ويتذرع بدعوى ما لم تجز آلته ، ثم كثير ممن يتخصص بصناعة ، يدعى لصناعته ما ليس من طبعها ككثير من المنجمين المدعين ما ليس في التنجيم ، فاذا لا عبرة بدعاوى الناس.

الباب العشرون
﴿ استحسان معرفة أنواع العلوم ﴾

حق الانسان أن لا يترك شيئاً من العلوم أمكنه النظر فيه ، واتسع العمر له ، إلا ويخبر بشمه عرفه ، وبذوقه طيبه ، ثم ان ساعده القدر على التغذي به والتزود منه فبها ونِعْمَتْ ، والا لم يبصر لجهله بمحله ولغباوته عن منفعته الا معاديا له بطبعه.

فمن يك ذا فم مرّ مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فمن جهل شيئاً عاداه ، والناس أعداء ما جهلوا ، بل قال الله تعالى : « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ »[1] وحكي عن

١ ـ الأحقاف ١١

بعض الفضلاء انه رؤي بعدما طعن في السن وهو يتعلم أشكال الهندسة فقيل له في ذلك ، فقال : وجدته علماً نافعاً فكرهت أن أكون لجهلي به معادياً له . ولا ينبغي للعاقل أن يستهين بشيء من العلوم ، بل يجعل لكل حظه الذي يستحقه ومنزله الذي يستوجبه ، ويشكر من هداه لفهمه وصار سبباً لعلمه ، فقد حكي عن بعض الحكماء أنه قال : يجب أن نشكر آباءنا الذين ولدوا لنا الشكوك ، إذ كانوا سبباً لما حرك خواطرنا لطلب العلم فضلاً عن شكر من أفادنا طرفاً من العلم ، ولولا إمكان فكر من تقدمنا لأصبح المتأخرون حيارى قاصرين عن فهم مصالح دنياهم فضلاً عن مصالح أخراهم . فمن تأمل حكمة الله تعالى في أقل آلة يستعملها الناس كالمقراض حيث جمع بين سكينين ركبا على وجه يتوافى حداهما عن نمط واحد للقرض ، أكثر تعظيم الله تعالى وشكره ويقول : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »[1] .

الباب الحادي والعشرون
﴿ معاداة بعض الناس لبعض العلوم ﴾

العلم طريق الله تعالى ذو منازل ، قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والثغور في طريق الحج والغزو ، فمن منازله معرفته التي عليها مبنى الشرع ، ثم حفظ كلام رب العزة ، ثم سماع الحديث ، ثم الفقه ، ثم علم الأخلاق والورع ، ثم علم المعاملات ، وما بين ذلك من الوسائط من معرفة أصول البراهين

---

١ - الزخرف ١٣

والأدلة ولهذا قال : هم درجات عند الله وقال : « يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ »[1] وكل واحد من هؤلاء الحفظة اذا عرف مقدار نفسه ومنزلته في حق ما هو بصدده فهو في جهاد يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثوابا على قدر علمه ، لكن قل ما ينفك كل منزل منها من شرير في ذاته ، وشره في مكسبه ، وطالب لرياسته ، وجاهل معجب بنفسه يصير لأجل تنفيق سلعته صارفاً عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم وعائباً له. فلهذا ترى كثيراً ممن حصل في منزلة من منازل العلوم دون الغاية عائباً لما فوقه ، وصارفاً عنه من رامه ، فان قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل ، أو ينفر الناس عنه فعل ، فهو ممن قال الله تعالى فيهم : « وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ »[2] وما أرى من هذا صنيعه إلا من وصفهم الله تعالى بقوله : « ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ »[3] الآية. وذكر الترمذي هذه المسألة فقال : اذا كان من يقطع على الناس طريق مكاسبهم الدنيوية يستحقون ما ذكر الله تعالى بقوله : « إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ »[4] الآية . فما الظن بما يستحق من العقوبة من يقطع الطريق على المسافر الى الله تعالى ، وقد حكي عن عيسى عليه السلام أنه قال : يا علماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها ، وتدعوا غيركم يدخلها ، مثلكم كمثل الدفلى زهره حسن ، وثمره يقتل من أكله .

---

١ - المجادلة ١١
٢ - فصلت ٢٦
٣ - ابراهيم ٣
٤ - المائدة ٣٣

الباب الثاني والعشرون
﴿ الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه ﴾

من كان قصده الوصول الى جوار الله ، فليتوجه نحوه ، كما قال تعالى : « ففروا الى الله » وكما أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : (سافروا تغنموا) فحقه أن يجعل العلوم كزاد موضوع في منازل السفر فيتناول منه في كل منزل قدر البلغة ، فلا يعرج على نقيضه واستفراغ ما فيه ، فيقضي الانسان نوعاً واحداً من العلوم على الاستقصاء يستفرغ فيه عمراً ، بل أعماراً ، ثم لا يدرك قعره ولا يعبر غوره ، ثم نبهنا الباري تعالى على أن نفعل ذلك بقوله : « ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ »[1] الآية. وقال الامام علي كرم الله وجهه : العلم كثير فخذوا من كل شيء أحسنه وقال الشاعر :

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم * في العين فضل ولكن ناظر العين

وقيل * حل طبعك بالعيون والنظر * فالشجرة لا يشينها قلة الحمل اذا كانت ثمرتها نافعة ، ويجب أن لا يخوض الانسان في فن حتى يتناول من الفن الذي قبله على الترتيب بلغته ويقضي منه حاجته ، فازدحام العلم في السمع مضلة للفهم ، وعليه قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ

---

١ ـ الزمر ١٨

ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ »[1] أي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علماً وعملاً ، ويجب أن يقدم الأهم فالأهم من غير إخلال بالترتيب ، وكثير من الناس ثكلوا الوصول بتركهم الأصـول ، وحقـه أن يكون قصده من كل علم يتحراه التبلغ به الى ما فوقه حتى يبلغ به النهاية ، والنهاية من العلوم النظرية معرفة الله تعالى على الحقيقة والمصدوقة ، فالعلوم كلها خدم لها وهي حرة ، وروي أنه رؤي صورة حكيمين من الحكماء في بعض مساجدهم وفي يد أحدهما رقعة فيها : ان أحسنت كل شيء فلا تظنن انك أحسنت شيئاً، حتى تعرف الله، وتعلـم انـه مسبب الأسباب وموجد الأشياء ، وفي يد الآخر: كنت قبل أن عرفت الله تعالى أشرب وأظمأ، حتى إذا عرفته رويت بلا شرب ، بل قد قال الله تعالى ما قد أشار به الى ما هو أبلغ من حكمة كل حكيم : « قل الله ثم ذرهم »[2] أي أعرفه حق المعرفة ولم يقصد بذلك ان يقول ذلك قولاً باللسان اللحمي فذلك قليل العناء ما لم يكن عن طوية خالصة ومعرفة حقيقية وعلى ذلك قال عليه الصلاة والسلام : (من قال لا إله الا الله مخلصاً دخل الجنة) .

ويجب أن لا يتعرى علمه عن مراعاة العمل فيه بتبلغ ألا ترى انه ما خلى ذكر الايمان في عامة القرآن من ذكر العمل الصالح كقوله : « ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ »[3] والى ذلك أشار بقوله تعـالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ »[4] وقيل كثرة العلم من غير العمل مادة للذنوب ، وقيل العلم أس ، والعمل بناء والأس بلا

١ ـ البقرة ١٢١
٢ ـ الأنعام ٩١
٣ ـ الكهف ١٠٧
٤ ـ فاطر ١٠

بناء باطل وقال رجل لرجل يستكثر من العلـم ولا يعمـل يا هذا اذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل ؟ وقال الشاعر ما يصلح أن يكون اشارة الى هذا المعنى :

فعــلام ان لم أشف نفســا حرة * يا صاحبــي أجيد حمــل سلاحي

الباب الثالث والعشرون

﴿ أحوال الانسان في استفادة العلم وافادته ﴾

كما أن للانسان في حال مقتنياته أربعة أحوال : حال استفادة فيكون مكتسباً .

وحال ادخار فيكوّن لما اكتسبه ، ويكون به غنياً عن المسئلة .

وحال انفاق ، فيصير به متنفعاً ،

وحال افادته غيره ، فيصير به سخيا ، كذا له أيضـا في العلـم أربعة أحوال :

حال استفادة ، وحال تسخير تحصيل ، وحال استبصار ، وحال تبصر وتعليم ، ومـن أصـاب مالا فانتفـع به ونفـع مسـتحقيه كان كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة ، والمسك الذي يطيب الناس وهو طيب ، وهذا أشرف المنازل ، ثم بعده من استفاد علماً فاستبصر به ، فاما من أفاد علمه غيره ولم ينتفع هو به فكالدفتر يفيد غيره الحكمة وهو عادمه ، وكالمسن يحد ولا يقطع ، وكالمغزل يكسو ولا يكتسى ، وكذبالة المصباح تحرق نفسها وتضيء لغيرها ، ومن استفاد علما ولـم

ينتفع هو به ولا نفع غيره فانه:

كالنخـــل يشرع شوكاً لا يذود به * عـن حملـه كف جان وهــو منتهب

الباب الرابع والعشرون
﴿ ما يجب على المتعلم أن يتحراه ﴾

حق المترشح لتعليم الحقائق أن يراعي ثلاثة أحوال.

الأول: أن يطهر نفسه من ردىء الأخلاق تطهر الأرض للبذر من خبائث النبات ، فقد تقدم أن الطاهر لا يسكن إلا بيتاً طاهراً ، وان الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب.

والثاني : أن يقلل من الأشغال الدنيوية ليتوفر فراغه على العلوم الحقيقية.

فما صاحب التطواف يعمر منهلا * وربعـا اذا لم يخل ربعــا ومنهلا

وقد قال الله تعالى : «مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ»[1] والفكرة متى توزعت تكون كجدول تفرق ماؤه ، فينشفه الجوّ وتتشربه الأرض فلا يقع به نفع ، واذا جمع بلغ المزرع فانتفع به.

والثالث : أن لا يتكبـر على معلمـه ولا على العلـم ، فالعلـم خراب للمتعالي كالسيل خراب للمكان العالي، ولهذا قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فان أعطيته كلك، فانك من اعطائه

١ ـ الأحزاب ٤

اياك بعضه على خطر ، وكأنما اياه عنى من قال:

خدم العلى فخدمته وهي التي * لا تخـدم الأقـوام ما لم تخدم

ومتى لم يكن المتعلم من معلمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً فتلقاه بالقبول لم ينتفع به فحقه أن يضرع له كما قال تعالى : « لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » [1] أي لمن له بنفسه علـم يستغنى به أو تذلل لاستماع الحق واقتباسه ممن عنده العلـم ، وقـال بعض العلماء في قوله عليه الصلاة والسلام : (اليد العليا خير من اليد السفلى). إشارة الى فضل المعلم على المتعلم ، وفي تبيين فضل المعلم حث للمتعلم كالانقياد له، وكما أن حق المريض أن يكل إلى الطبيب الناصح الذي وقف على دائه ليطلب الـطبيب دواءه وغـذاءه فانـه إن تشهى لم يتشه إلا ما فيه داؤه، ولم يختر ما فيه شفاؤه

فمـن يك ذا فم مرّ مريض * يجـد مرا به الماء الزلالا

كذا من حق المتعلم اذا وجد معلما ناصحاً أن يأتمر له ، ولا يتأمر عليه ، ولا يراده فيما ليس بصدد تعلمه وكفى على ذلك تنبيهاً ما حكى الله عن العبد الصالح أنه قال لموسى عليه وعلى جميع الأنبياء السـلام حيث قال : « هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا فقـال لا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً »[2] فنهاه عن مراجعتـه وليس ذلك نهيا عما حث الله تعالى عليه في قوله : « فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »[3] وذلك لأن النهي انما هو نهي عن نوع العلـم

---

١ ـ ق ٣٧

٢ ـ الكهف ٦٦

٣ ـ النحل ٤٣ ، ٧ الأنبياء

الذي لم يبلغ منزلته بعد ، والحث إنما هو عن سؤال تفاصيل ما خفي عليه من النوع الذي هو بصدد تعلمه . وحق من هو بصدد تعلم علم من العلوم أن لا يصغي الى الاختلافات المشككة ، والشبه الملتبسة ما لم يتهذب في قوانين ما هو بصدده لئلا تتولد له شبهة تصرفه عن التوجه فيؤدي ذلك به الى الارتداد ، ولذلك نهى الله تعالى من لم يكن تقوّى في الاسلام عن مخالطة الكفار فقال : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا »[1] وقال تعالى : « وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ »[2] الآية. ولأجل ذلك كره للعامة أن يجالسوا أهل الأهواء والبدع لئلا يغووهم ، فالعامي إذا خلا بأهل البدع ، فكالشاة اذا خلت بالسبع ، وقال بعض الحكماء: إنما حرم الله تعالى في الابتداء لحم الخنزير، لأنه أراد أن يقطع العصمة بين العرب وبين الذين كانوا يشككوهم باجتماعهم معهم من اليهود والنصارى ، فحرم على المسلمين ذلك إذ هو معظم مأكولاتهم ، وعظم الأمر في تناوله ومسه ليتنزه المسلمون عن الاجتماع معهم في المآكلة والأنس ، وقال عليه الصلاة والسلام في المؤمن والكافر : لا تتوارى ناراهما لذلك ، فأما الحكيم فلا بأس بمجالسته إياهم فانه جار مجرى سلطان ذي أجناد وعدة وعتاد لا يخاف عليه العدو حيثما توجه ، ولهذا جوز له الاستماع للشبه بل أوجب عليه أن يتتبع بقدر جهده كلامهم ويسمع شبههم ليجادلهم ويجاهدهم ويدافعهم ، فالعالم أفضل المجاهدين ، فالجهاد ، جهادان : جهاد بالبنان ، وجهاد بالبيان ، ولما تقدم سمى الله تعالى الحجة سلطاناً في غير

---

١ ـ آل عمران ١١٨

٢ ـ ٧٧

موضع من كتابه العزيز كقوله حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام: «إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ»[1].

الباب الخامس والعشرون
﴿ ما يجب أن يتحراه المعلم مع المتعلمين منه ﴾

حق المعلم أن يجري متعلميه منه مجرى بنيه فانه في الحقيقة أشرف من الأبوين، كما قال الاسكندر وقد سئل عنه أمعلمك أكرم عليك أم أبوك؟ قال: بل معلمي لأنه سبب حياتي الباقية، ووالدي سبب حياتي الفانية، وقد نبه صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله: (انما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم)، فحق معلم الفضيلة أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم إذ هو في إرشاد الناس خليفته فيشفق عليهم إشفاقه ويتحنن عليهم تحننه كما قال تعالى في وصفه عليه الصلاة والسلام: « حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ»[2] وأي عالم لم يكن له من يفيده العلم صار كعاقر لا نسل له فيموت ذكره بموته، ومتى استفيد علمه كان في الدنيا موجوداً وان فقد شخصه كما قال أمير المؤمنين: العلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة، وقال بعض الحكماء في قوله تعالى: « فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ »[3] انه سأله نسلا يورثه علمه، لا من يورثه ماله، فاعراض

١ ـ الدخان ١٩
٢ ـ التوبة ١٢٨
٣ ـ مريم ٦

الدنيا أهون عند الأنبياء من ان يشفقوا عليها وكذا قوله: « وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى »[1] أي خفت أن لا يرعوا العلم، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (العلماء ورثة الأنبياء) وكما أن حق أولاد الأب الواحد أن يتحابوا ويتعاضدوا ولا يتباغضوا، كذلك من حق بني العلم الواحد، بل الدين الواحد أن يكونوا كذلك، فأخوة الفضيلة فوق أخوة الولادة، ولذلك قال تعالى: « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »[2] وقال: « ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ »[3] وحق العالم أن يصرف من يريد إرشاده من الرذيلة الى الفضيلة بلطف في المقال وتعريض في الخطاب، والتعريض أبلغ من التصريح لوجوه:

أحدها: أن النفس الفاضلة لميلها إلى استنباط المعاني تميل الى التعريض شغفاً باستخراج معناه بالفكر، ولذلك قيل: رب تعريض أبلغ من تصريح.

والثاني: ان التعريض لا تنتهك به سجوف الهيبة، ولا يرتفع به ستر الحشمة.

والثالث: أن ليس للتصريح إلا وجه واحد وللتعريض وجوه فمن هذا الوجه يكون أبلغ، ومن هذا الوجه حذف أجوبة كثيرة من الشروط المقتضية للثواب والعقاب نحو قول الله تعالى: « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ »[4] الآية.

---

١ ـ مريم ٥
٢ ـ الحجرات ١٠
٣ ـ الزخرف ٦٧
٤ ـ الزمر ٧٣

والرابع: ان للتعريض عبارات مختلفة فيمكن ايراده على وجوه مختلفة والتصريح ليس له إلا عبارة واحدة، فلا يمكن إيراده الا على وجه واحد.

والخامس: ان صريح النهي داع الى الاغراء، ولذلك قيل اللوم إغراء وقال:

دع اللـوم ان اللـوم يغرى وإنما * أراد صلاحـاً من يلـوم فأفسدا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو نهي الناس عن فت البعر لفتوه، قالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء)، وكفى بذلك شهادة ما كان من أمر آدم عليه السلام وحواء في نهي الله تعالى إياهما عن أكل الشجرة، ومن حق المعلم مع من يفيده العلم ان يقتدي بالنبـي صلى الله عليه وسلم فيما علمه الله تعالى حيث قال: «قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا»[1] فلا يطمع في فائدة من جهة من يفيده علما ثوابا لما يوليه، وليعلم أن من باع علما بعرض دنيوي فقد ضاد الله تعالى في حكمه، وذلك أن الله تعالى جعل المال خادماً للطعام، والملابس جعلها خادمة للبدن، وجعل البدن خادماً للنفس، وجعل النفس خادماً للعلم، فالعلم مخدوم غير خادم، والمال خادم غير مخدوم، فمن جعل العلم ذريعة الى اكتساب المال، فقد جعل ما هو مخدوم غير خادم، خادماً.

الباب السادس والعشرون
﴿ وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر أفهامهم ﴾

واجب على الحكيم العالم النحرير أن يقتدي بالنبـي صلى الله

١ ـ الشورى ٢٣

عليه وسلم فيما قال : (إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلّم الناس بقدر عقولهم). وأن يتصور ما قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله تعالى عنه حيث قال لكميل بن زياد وأومأ بيده الى صدره فقال : ان ههنا علوما جمة لو وجدت لها حملة ، بل لو أصيبت لفتى غير مأمون عليها يستعمل آلة الدين للدنيا فيستظهر بنعم الله على عباده . وبحجته على كتابه ، أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له يقتدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهته ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله). وقال عليه الصلاة والسلام: (ما أحد يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كان ذلك فتنة على بعضهم)،

وقال عيسى عليه السلام: لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، وكن كالطبيب الحاذق يصنع دواءه حيث يعلم انه ينفع ، وقيل: تصفح طلاب حكمك كما تتصفح خطاب حرمك وبه ألمّ أبو تمام

وما أنا بالغيران من دون جبرتي * إذا أنا لم أصبح غيوراً على العلم

وقيل لبعض الحكماء ما بالك لا تطلع أحداً على حكمة يطلبها منك؟ فقال: اقتداء بالباري عز وجل حيث قال: « وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ »[1] فبين انه إنما منعهم لما لم يكن فيهم خير، وبين ان في اسماعهم ذلك مفسدة لهم وسأل جاهل حكيماً عن مسألة من الحقائق، فأعرض عنه ولم يجبه فقال

١ ـ الانفال ٢٣

له: أما سمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار) فقال نعم: سمعته فاترك اللجام هنا واذهب، فاذا جاء من يستحق ذلك وكتمته فليلجمني به،

وقال بعض الحكماء في قوله تعالى: «وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا»[1] انه نبه على هذا المعنى وذلك انه لما منعنا من تمكين السفيه من المال الذي هو عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر تفاديا انه ربما يؤديه الى هلاك دنيوي فلأن يمنع من تمكينه من حقائق العلوم الذي إذا تناوله السفيه أداه الى ضلال وإضلال، فهلاكه أحق وأولى شعر

إذا ما اقتنى العلم ذو شرة * تضاعف ما ذم من مخبره
وصادف من علمه قوة * يصول بها الشرفي جوهره

وكما أنه واجب على الحكام إذا وجدوا من السفهاء رشداً أن يرفعوا عنهم الحجر ويدفعوا اليهم أموالهم لقوله تعالى: «فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ»[2] فواجب على الحكماء إذا وجدوا من المسترشدين قبولاً أن يدفعوا اليهم العلوم بقدر استحقاهم، فالعلم قنية يتوصل بها الى الحياة الأخروية، كما أن المال قنية يتوصل بها في المعاونة الى الحياة الدنيوية، وباذل العلم لمن لا يستحق يستوجب عقوبة، ومانعه من أهله يستوجب عقوبات ولذلك قال الله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ»[3]

---

١ ـ النساء ٥
٢ ـ النساء ٦
٣ ـ آل عمران ١٨٧

وقال: « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ »[1] الآية. فاذا ثبت ذلك وجب أن يكون من تقيد من العامة بقيد الشرع فحسنت حاله أن لا ينصرف عما هو بصدده فيؤدي ذلك الى انحلاله عن قيده، ثم لا يمكن أن يقيد بقيد الخواص فيرتفع السد الذي بينه وبين الشرور ومن اشتغاله بعمارة الأرض بين تجارة ومهنة فحقه أن يقتصر به من العلم على مقدار ما يحتاج اليه من هو في مرتبته في عبادة الله تعالى العامية، وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة الوارد بهما القرآن، ولا نولد له الشبه والشكوك، فان اتفق اضراب بعضهم إما بانبعاث شبهة تولدت له، أو ولدها ذو بدعة دفعت اليه فتاقت نفسه الى معرفة حقيقتها فحقه أن يختبر. فان وجد ذا طبع للعلم موافق، وفهم ثاقب، وتصور صائب، خلى بينه وبين التعلم، وسوعد عليه بما يوجد من السبيل اليه، وإن وجد شرّيرا في طبعه أو ناقصاً في فهمه، منع أشد المنع ففي اشتغاله بما لا سبيل له الى إدراكه مفسدتان، تعطله عما يعود بنفع الى العباد والبلاد، واشتغاله بما يكثر فيه شبهة وليس فيه نفعه، وكان بعض الأمم المتقدمة إذا ترشح بعضهم ليخصص بمعرفة الحكم وحقائق العلوم والخروج من جملة العامة الى الخاصة اختبر، فان لم يوجد خيراً في الخلق أو غير متهيء للتعلم منع أشد المنع، فان وجد خيراً ومتهيأ شورط على أن يقيد بقيد في دار الحكمة ومنع من الخروج الى أن يحصل له العلم، أو يأتي عليه الموت،ويزعمون ان من شرع في حقائق

---

١ - البقرة ١٧٤

العلوم ولم يبرع فيها تولدت له الشبهة وكثرت فيصير ضالا مضلاً فيعظم على الناس ضرره بهذا السبب وقيل: نعوذ بالله من نصف متكلم.

الباب السابع والعشرون
﴿ وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة إهمال ذلك ﴾

لا شيء أوجب على السلطان من مراعاة المتصدين للرياسة بالعلم، فمن الاخلال بها ينتشر الشر وتكثر الأشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر، وذلك ان السوّاس أربعة:

الأنبياء: وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم.

والولاة: وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم.

والحكماء: وحكمهم على بواطن الخاصة.

والوعظة: وحكمهم على بواطن العامة، وصلاح العالم بمراعاة أمر هذه السياسات لتخدم العامة الخاصة، وتسوس الخاصة العامة وفساده في عكس ذلك، ولما تركت مراعاة المتصدي للحكمة والوعظ فترشح قوم للزعامة بالعلم من غير استحقاق منهم لها فأحدثوا بجهلهم بدعاً استغووا بها عامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم

فكل قرين الى شكله * كأنس الخنافس بالعقرب

وفتحوا بذلك طرقاً منسدة ورفعوا بها ستوراً مسبلة وطلبوا منزلة

الخاصة فوصلوا اليها بالوقاحة، وبما فيهم من الشره فبدّعوا العلماء وكفروهم اعتصاباً لسلطانهم ومنازعة لمكانهم وأغروا بهم أتباعهم حتى وطؤهم باخفافهم وإظلافهم، فتولد من ذلك البوار والجور العام .

الباب الثامن والعشرون
﴿ ذكر من يصلح لوعظ العامة ﴾

لا يصلح الحكيم إلا لنقص الحكيم، لا لنقص العامي

* فلن ترى الشمس أبصار الخفافيش * وأيضاً فبين الحكيم والعامي من تنافر طبعيهما وتباين شكليهما من النفار قريب مما بين الماء والنار والليل والنهار، وقيل لسلمة بن كهيل : ما لعلي رضي الله تعالى عنه رفضته العامة وله في كل خبر ضرس قاطع ؟ فقال : لأن ضوء عيونهم قصرعن نوره، والناس الى أشكالهم أميل وبهذا النظر قال جاهل لحكيم، اني أحبك فقال: نعيت الى نفسي قيل له: ولم؟ قال: ان صدق فليس ميله إلا لنقيصة بدت من نفسي لنفسه فأنست به ولهذا قال الشاعر

قد زادني حبا لنفسي أنني * بغيض الى كل امرىء غير طائل

فحق الواعظ أن تكون له مناسبة الى الحكماء، يقدر بها على الإقتباس منهم والاستفادة عنهم، ومناسبة الى الدهاة يقدرون بها على الأخذ منه كمناسبة الوزير للسلطان الذي يجب أن يكون فيه أخلاق الملوك، وتواضع السوقة، ليصلح أن يكون واسطة بينه وبينهم،

فكالنبي الذي جعله الله من البشر، وأعطاه قوة الملك ليمكنه أن يأخذ من الملك، ويمكن البشر أن يأخذوا منه، ومنه قوله: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً»[1] تنبيهاً انه ليس في وسعكم التلقي عن الملك ما لم يتجسم فيصير في صورة رجل، فاذا حق الواعظ أن تكون له نسبة الى الحكيم والى العامة يأخذ منه ويعطيهم كنسبة الغضاريف الى اللحم والى العظم جمعاً: ولولاها لما أمكن العظم أن يكتسب الغذاء من اللحم، وهذا مما تؤمل فاطلع منه على حكمة عجيبة وصنعة غريبة.

الباب التاسع والعشرون
﴿ ذكر الحال التي يجب أن يكون عليها الواعظ ﴾

حق الواعظ أن يتعظ، ثم يعظ، ويبصر ثم يبصر، ويهتدي ثم يهدي، ولا يكون دفتراً يفيد ولا يستفيد، ومسنا يحد ولا يقطع، بل يكون كالشمس التي تفيد القمر الضوء، ولها أكثر مما تفيده، وكالنار التي تحمي الحديد ولها من الحمى أكثر مما تنبل، ويجب أن لا يجرح مقاله بفعاله، ولا يكذب لسانه بحاله، فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله: «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ»[2] ونحو ما قال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه: قصم ظهري رجلان، جاهل متنسك، وعالم متهتك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه، والعالم ينفرهم بتهتكه، والواعظ ما لم تكن مع مقاله فعاله لم ينتفع به، وذاك

١ ـ الأنعام ٩

٢ ـ البقرة ٢٠٤

ان عمله مدرك بالبصر فأكثر الناس أصحاب الأبصار دون البصائر فيجب أن تكون عنايته باظهار عمله الذي يدركه أكثر من عنايته بالذي لا يدرك إلا بالبصيرة ، ومنزلة الواعظ من الموعوظ منزلة المداوي من المداوى ، فكما أن الطبيب اذا قال للناس: لا تأكلوا كذا فانه سم ، ثم رأوه آكلاً له عد سخرية وهزأ ، وكذلك الواعظ إذا أمر بما لا يعمله ، وبهذا النظر قيل: يا طبيب طبب نفسك ، بل قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ»[1] الآية. والآيات منه كثيرة، وأيضاً فالواعظ من الموعوظ يجري مجرى الطبائع بما ليس منتقشاً بها ، وكذلك محال أن يحصل في نفس الموعوظ ما ليس موجوداً في نفس الواعظ، وإذا لم يكن الواعظ إلا ذو قول مجرد من الفعل لم يتلق عنه إلا القول دون الفعل ، وأيضاً فان الواعظ يجري من الناس مجرى الظل من ذي الظل ، فكما أنه محال أن يعوج ذو الظل والظل مستقيم، كذلك محال أن يعوج الموعوظ والواعظ مستقيم ، وأيضاً فكل شيء له حالة يختص بها فإنه يجر غيره الى نفسه بقدر وسعه بارادة منه، أو غير إرادة، كالماء الذي يحيل ما يتلقاه من العناصر الى نفسه بقدر وسعه ، وكذلك النار والأرض والهواء فالواعظ اذا كان غاوياً جر بغيه غيره الى نفسه ، ولهذا حكى الله تعالى عن الكفار: «رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا»[2] وقال أيضاً: «فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ»[3] فمن ترشح للوعظ، ثم فعل فعلا قبيحاً اقتدى به غيره فيه، فقد جمع وزره ووزرهم كما قال عليه الصلاة والسلام : (من سن سنة سيئة

١ ـ الصف ٢
٢ ـ القصص ٦٣
٣ ـ الصافات ٣٢

فعليه وزرها ووزر من عمل بها) بل قد قال الله تعالى: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ»[1] وقال عز وجل: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ»[2]

الباب الثلاثون
﴿ صعوبة المعيار الذي تعرف به حقائق العلوم ﴾

كما أن للدراهم والدنانير ميزانا قد عرف أهلها صحته ، فلكل علم ميزان نحو الحساب للمعدودات ، والهندسة للمحسوسات ، والعروض للشعر ، والنحو للألفاظ العربية ، وإلى هذا أشار تعالى بقوله«لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ»[3] وأوصى الذين أعطاهم الميزان فقال: «وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ»[4] وقال: «أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ»[5] فكل شاك أو منازع غيره في مقدار، فحقه أن يعد ميزانه ان عرفه ويقلد أربابه إن لم يعرفه، وإن من ترك ذلك وأخذ يخرص ويظن ويخمن لم يزل شكه ولم يسقط خلافه ، فالخرص قلما يصدق ، والظن قلما يحقق ، ولذلك عبر بالخرص عن الكذب

---

١ ـ الأنعام ٣١
٢ ـ العنكبوت ١٣
٣ ـ الحديد ٢٥
٤ ـ الشعراء ١٨٢
٥ ـ هود ١٨٥

فقال تعالى: « إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ »[1] وقال تعالى: « قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ »[2] وقال تعالى: « إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا »[3] ومعلوم أن ميزان الدين الذي صوابه يوصل الى الثواب العظيم، وخطؤه يفضي إلى العذاب الأليم ، أصعب الموازين وأشرفها وأولاها بالمعرفة ، وكثير في زماننا من تحلى بعلم الكلام وترشح فيه للجدال والخصام ورام الزعامة فيه قبل أوانها ، وطلب تحقيق موزوناته بغير ميزانها ، وأخذ كل واحد منهم يخرص خرصاً ، ويظن ظناً ويسلك بظنه طريقاً غير نهج ، فاذا وقع بينهم خلاف جعل كل واحد منهم ميزانه خرصه واعتقد فيما اتبعه ظنه، فإذا تحاكموا الى ما اتخذوه ميزاناً صار خلافهم في الميزان أكثر من خلافهم في الموزون ، فهم في ذلك كمن غص بطعام فاستغاث بالماء، لا جرم أن كثيراً من مناظراتهم لا تولد إلا شبهة ولا تثمر إلا حيرة: « ظلمات بعضها فوق بعض وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ »[4] .

الباب الحادي والثلاثون
﴿ كراهية الجدال للعوام وذمه ﴾

إباحة الجدال للعامة الذين لم يتدربوا في تحصيل القوانين ، ولم يتهذبوا في سبيل البراهين يجري مجرى حل قيد الشيطان ، ورفع يأجوج

---

١ ـ الزخرف ٢٠
٢ ـ الذاريات ٢٠
٣ ـ النجم ٢٨
٤ ـ النور ٤٠

ومأجوج، فانها شؤن سلطان قوتهم السبعية خالفة من يد قائد العقل وقيد الشرع ، فالجـــدال مكروه للعلماء الأولياء ، فكيف الجهـــال الأغبياء ، ألا ترى أن الله تعـــالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلـــم: «وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»[١] فلم يطلق له جدال مخالفيه حتى قيده بالأحسن هذا مع وصفه عليه الصلاة والسلام بقوله: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ»[٢] وقال تعالى في ذم الجدال: « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا »[٣] وقال: « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ»[٤] وقـال: « وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ »[٥]

وللجدال مع كونه مكروهاً شروط وقوانين من تعاطاها ولم يكن متدربـا فيها كان خصيماً جدلاً ، والخصومة عديمة الفائدة قليلة العائدة، فان الجدل مع ما فيه قد يوقظ الفهم ، ويثير الأنفة لاقتباس العلم ، والخصومة لا تثمر إلا العداوة ، وإنكار الحق ، ولهذا جعلها الله شراء من الجدال فقال تعالى: « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ »[٦] وقال: «فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ »[٧] أي جيد الخصومة مبين ولم يذكر الخصام في موضـع إلا عابه ، وأيضاً فالمتجادلان يجريان مجرى فحلين تعاديا وكبشين تناطحا ورئيسين تحاربـا، وكل واحـد منهـم يجتهـد أن يكون هو الفاعـل ،

١ ـ النحل ١٢٥
٢ ـ القلم ٤
٣ ـ الزخرف ٥٨
٤ ـ الحج ٨
٥ ـ الأنعام ٦٨
٦ ـ الزخرف ٥٨
٧ ـ النحل ٤ ، يس ٧٧

وصاحبه المنطبع والقائل ، كالمؤثر والسامع : كالمتأثر ولم يتولد منهما خير بوجه ، وقال حكيم : المجادل المدافع يقع في نفسه عند الخوض في الجدال أن لا يقنع بشيء ، ومن لا يقنعه الا أن لا يقنع ، فما الى إقناعه سبيل ، ولو اتفقت عليه الحكماء بكل بينة ، بل لو اجتمعت عليه الأنبياء بكل معجزة كما قال : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ »[1]

الباب الثاني والثلاثون
﴿ ما يجب أن يعامل به الجدل المماحك ﴾

إذا ابتليت بمهارش مما حك مناوش ، قصده اللجاج لا الحجاج ، ومراده مناوأة العلماء ومماراة السفهاء ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من تعلم العلم ليباهي به العلماء ، أو يباري به السفهاء) الخ وكما قال الشاعر :

تراه معداً للخلاف كأنه * يردّ على أهل الصواب موكل

فحقك أن تفر منه فرارك من الأساود والأسود ، فان لم تجد من مزاولته بدا فكابر إنكاره الحق بانكارك الباطل ، ودفاعه الصدق بدفاعك الكذب ، معتبراً في ذلك قوله عز وجل : « وَمَكَرْنَا مَكْرًا »[2] وقوله : « وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ »[3] وقوله تعالى حكاية عن المنافقين : « إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »[4] وقال : « فَلَمَّا زَاغُوٓاْ

١ ـ الانعام ١١١
٢ ـ النحل ٥٠
٣ ـ آل عمران ٥٤
٤ ـ البقرة ١٥

أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ»[1] وبالغ في ذلك معه وإياك أن تعرج معه الى بث الحكمة وأن تذكر له شيأ من الحقائق ما لم تتحقق له قلباً طاهراً لائقاً للحكمة، فقد قال عليه الصلاة والسلام : (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب)، فان لكل تربة غرساً ولكل بناء أسًّا وما كل الرؤس تستحق التيجان ولا كل طبيعة تستحق إفادة البيان ، وإن كان لا بد فاقتصر معه على إقناع يبلغه فهمه فقد قيل: كما ان لب الثمار مباح للنحل ، والتبن معدود للانعام ، كذلك لب الحكمة معد لذوي الألباب ، وقشورها مجعولة للانعام وكما انه من المحال أن يشم الأخشم ريحاناً ، فمحال أن يفيد الحمار بياناً.

واعلم أن سبيل انكار الحجة والسعي في إفسادها أسهل من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها ، ولهذا يتحرى المجادل الخصم أبداً بالدفاع ، لا المعاوضة بمثلها ، وذلك ان الافساد هدم والإتيان بالمثل بناء وهو صعب ، فان الانسان كما يمكنه قتل النفس الزكية وذبح الحيوانات وإحراق النبات ولا يقدر على إيجاد شيء منها يقدر على إفساد حجة قوية بضرب من الشبه المزخرفة ، ولا يمكنه الإتيان بمثلها ولأجل ما قلنا دعا الله في الحجج الى الإتيان بمثلها فقال: « قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَٰتٍ»[2] فرضي أن يأتوا بما فيه مشابهة له وان كان ذلك مفترى وقال ابراهيم عليه الصلاة والسلام : « فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ »[3] والله الموفق .

---

١ ـ الصف ٥
٢ ـ هود ١٣
٣ ـ البقرة ٢٥٨

الباب الثالث والثلاثون
﴿ الوجوه التي من أجلها يقع الشبه والخلاف ﴾

السبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل بسببان : **المعنى واللفظ .**

أما ما كان من جهة المعنى ، فاما أن يكون من جهة الناظر ، أو من جهة المنظور فيه ، وهو الحجة ، أو من جهة الآلة التي تستعمل في النظر ، فان الناظر في الشيء المعتبر له جار مجرى وزان وحججه كالميزان والمنظور فيه كالموزون ، فمتى كان الناظر غير تام العقل كان أعمى البصيرة، فيجري مجرى وزان أعمى البصر فلا سبيل له الى الوزن . ومن لم يكن أعمى البصيرة لكن هو غير مالك لقوانين البراهين والحجج والأدلة كان جارياً مجرى وزان عديم الميزان ، فأخذ يخمن، والمخمن قلما ينفك من غلط بل ما وقع منه من الصواب غير معتد به إذ لا أصل له تسكن اليه النفس ، ومتى لم يكن أعمى البصيرة لكن لا يعرف أي حجة يستعمل فيما هو بصدده فيطلب المعقول من جهة المحسوس ، والمحسوس من جهة المعقول كان جارياً مجرى وزان بصير ، لكن يزن الدنانير بصنج الدراهم، والدراهم بصنج الدنانير،

وأما ما كان من جهة اللفظ: فإما أن يكون ذلك واقعاً من جهة مفردات اللفظ ، أو من جهة مركباته .

فان كان من مركبات اللفظ ، فاما أن يكون من حيث أن اللفظ

مشترك بين المعنيين كالعين واليد ونحوهما ، أو يكون اللفظ عاماً موضوعاً موضع خاص ، أو خاصاً موضوعاً موضع عام ، أو مستعملاً على سبيل المثل، أو الرمز أو الاشارة ، أو مستعملاً لشيء لم تتقرر صورة ذلك الشيء في نفس السامع فيتخيل له وهم فاسد كاعتقاد كثير من الناس اعتقادات فاسدة في الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار والميزان والصراط والكرسي .

فأما ما كان من جهة التركيب، فاما أن يكون من جهة الكمية، وذلك بأن يكون اللفظ أكثر مما يجب أن يكون، أو أقل مما يجب أن يكون وإما من جهة الكيفية وذلك بأن يقدم ما حقه أن يؤخر ويؤخر ما حقه أن يقدم كقول الشاعر:

وما مثله في الناس إلا مملكاً * أبو أمه حي أبوه يقاربه

ومن أجل ما وقع في الألفاظ من الشبه قالت الحكماء ، يجب أن يكون نظر الانسان من المعنى الى اللفظ في الحقيقة لا يدل على المعنى إلا بوساطة صورة ذلك اللفظ في القلب ، ومتى لم يثبت صورة المعنى في القلب لم يفهم المعنى من اللفظ البتة .

الباب الرابع والثلاثون
﴿ بيان اختلاف جميع الناس في الأديان والمذاهب ﴾

جميع الاختلاف بين أهل الأديان والمذاهب على أربعة مراتب:

الأولى: الاختلاف بين أهل الأديان النبوية، وبين الخارجين

عنها من الثنوية والدهرية ، وذلك في حدوث العالم وفي الصانع عز وجل وفي التوحيد.

والثانية: الخلاف بين النبوة بعضهم بعضاً، وذلك في الأنبياء كاختلاف المسلمين والنصارى واليهود.

والثالثة: الخلاف المختص في أهل الدين الواحد بعضهم بعضاً في الأصول التي يقع فيها التبديع والتفجير والاختلاف في كثير من صفات الله عز وجل، وفي القدر وكاختلاف المجسمة.

والرابعة : (الاختلاف المختص بأهل المقالات في فروع المسائل كاختلاف الحنفية والشافعية.

فالاختلاف الأول: يجري مجرى متنافيين في مسلكيهما، كآخذ طريق الشرق وآخر طريق الغرب، وآخذ ناحية الجنوب وأخذ ناحية الشمال.

والثاني: يجري مجرى آخذ نحو الشرق وآخذ يمينه أو شماله فهو وإن كان أقرب من الأول فليس يخرج أحدهما عن أن يكون ضالاً بعيداً وإياهما قصد تعالى بقوله: « وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا »[1].

والثالث: يجري مجرى آخذين وجهة واحدة، لكن أحدهما سالك المنهج والثاني تارك له ، وهذا التارك للمنهج ربما يبلغ وإن كانت الطريق تطلق عليه.

---

١ ـ النساء ٦٠

والثالث: جار مجرى جماعة سلكوا منهجاً واحداً لكن أخذ كل واحد شعبة غير شعبة الآخر وهذا هو الاختلاف المحمود بقوله صلى الله عليه وسلم: (الاختلاف في هذه الأمة رحمة). وقولهم: كل مجتهد في الفروع مصيب، ولأجل الطرق الثلاثة أمرنا أن نستعيذ بالله تعالى ونتضرع اليه بقوله: «اهدنا الصراط المستقيم»[1] وقال تعالى: «وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ»[2] وجميع الخلاف الواقع في هذه الأمة اثنان وسبعون على ما ورد في الخبر لا زائداً ولا ناقصاً، وقد ورد الخبر في ذلك على وجهين: أحدهما: (ستفترق أمتي على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)،

وفي الخبر الثاني: كلها في الجنة إلا واحدة وهي الزنادقة، وهذان خبران لا يمتنع أن يكونا صحيحين، ولكن على نظرين ومعنيين، وقد ذكر ذلك وبين في رسالة مفردة، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير خلقه.

الباب الخامس والثلاثون
﴿ النطق والصمت ﴾

النطق أشرف ما خص به الانسان، فانه صورته المعقولة التي باين بها سائر الحيوان ولهذا قال عز وجل: « خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ

---

١ ـ الفاتحة ٦
٢ ـ الأنعام ١٥٣

ٱلْبَيَانَ»[1] ولم يقل وعلمه إذ جعل علمه تفسيراً لقوله: خلق الانسان تنبيهاً ان خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعاً لكانت الانسانية مرتفعة ، ولهذا قيل: ما الانسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة وقيل: المرء مخبوء تحت لسانه قال الشاعر:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

أي إذا توهم النطق الذي هو باللسان والقوة الناطقة التي هي بالقلب، لم يبق إلا صورة اللحم والدم، فاذا كان الانسان هو الانسان بذلك ، فمن كان أكثر منه أي كان أكثر منه انسانية.

والصمت، من حيث هو الصمت مذموم، فذلك من صفات الجمادات فضلاً عن الحيوانات وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات، بلا صوت، وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب، ومن مدح الصمت فاعتباراً بمن يسيء في الكلام فيقع منه جنايات عظيمة في أمور الدين والدنيا ، كما روي أن الانسان إذا أصبح كفرت أعضاؤه اللسان فتقول: اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وإن اعوججت إعوججنا ، فاما إذا اعتبرا بأنفسهما فمحال أن يقال في الصمت فضل فضلاً أن يخاير بينه وبين النطق، وسئل آخر عن فضلهما؟ فقال: الصمت عن الخنا أفضل من الكلام بالخطا، وعنه أخذ الشاعر:

الصمت أليق بالفتى * من منطق في غير حينه

والفرق بين الصمت والسكوت والانصات والاصاخة، ان الصمت أبلغ لأنه يستعمل في ما لا قوة فيه للنطق، ولما له قوة النطق،

١ - الرحمن ٣

ولهذا قيل لما لا نطق له الصمت ، والسكوت يقال لما له نطق فترك استعماله ، والإنصات سكوت مع استماع ، ومتى انفك أحدهما عن الآخر لم يسم انصاتاً في الحقيقة وعليه قوله تعالى: «وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »[1] فقوله: أنصتوا بعد قوله استمعوا، يدل على أن الانصات بعد الاستماع ركن خاص بعد عام .

والاصاخة: الاستماع الى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد.

الباب السادس والثلاثون
﴿ في الصدق ومدحه والكذب وذمه ﴾

أصلهما في القول ، ولا يكونان بالقصد الأول من القول إلا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام ، فأما بالعرض فقد يدخل في أنواع الكلام من الاستفهام والأمر والدعاء وذلك أن قول القائل: أزَيْد في الدار ؟ في ضمنه إخبار بكونه جاهلاً بحال زيد، وكذلك إذا قال : واسنى، في ضمنه انه محتاج الى المواساة، وإذا قال لا تؤذني في ضمنه انه يؤذيه .

وكلاهما أي الصدق والكذب يستعمل في الاعتقاد أيضاً كقولهم: صدق ظنه واعتقاده وكذبا، ويستعملان أيضاً في أعمال الجوارح نحو صدقوهم القتال وكذبوهم،

---
١ ـ الأعراف ٢٠٤

وحد الصدق التام: هو مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً ، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقاً بل إما أن يوصف بالصدق والكذب ، أو تارة يوصف بالصدق ، وتارة يوصف بالكذب على نظرين مختلفين ، كقول الكافر: إذا قال من غير اعتقاد: محمد رسول الله ، فانه يصح أن يقال فيه: انه صدق لكون المخبر عنه كذلك ، ويصح ان يقال فيه: انه كذب بمخالفة قوله ضميره ، ولهذا كذبهم الله تعالى حيث قال: « إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ»[1] الآية وكذلك إذا قال: من لم يعلم كون زيد في الدار انه في الدار يصح أن يقال: صدق وأن يقال: كذب بنظرين ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (من قال برأيه في القرآن فأصاب فقد أخطأ) وفي خبر فقد كذب على الله .

والمبرسم لا قصد له فاذا قال زيد في الدار لا يقال له صدق ولا كذب ،

والصدق: أحد أركان بقاء العالم ، حتى لو توهم ارتفاعه لما صح نظامه وبقاؤه ، وهو أصل المحمودات ، وركن النبوات ونتيجة التقوى ولولاه لبطلت أحكام الشرائع ، ولهذا قال عز وجل: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ »[2] والاختصاص بالكذب انسلاخ من الانسانية ، فخصوصية الانسان النطق فمن عرف بالكذب لم يعتمد نطقه ومن لم يعتمد نطقه لم ينفع وإذا لم ينفع ، نطقه صار

---

١ ـ المنافقون ١
٢ ـ التوبة ١١٩

هو والبهيمة سواء ، بل يكون شراً من البهيمة فان البهيمة إن لم تنفع بلسانها لم تضر ، والكاذب يضر ولا ينفع ، ولهذا قال عز وجل : « إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »[1]

واعلم أن كل كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الأخبار فليس بكذب على الحقيقة ، ولهذا لا يتحاشى المتحرزون من التحدث كقولهم في الحث على مداراة العدو والتلطف في خدمة الملوك : إن سبعاً وذئباً وثعلباً اجتمعوا فقالوا : نشترك فيما نتصيد فصادوا عيراً وظبياً وأرنباً ، فقال السبع للذئب أقسم فقال : هو مقسوم العير لك ، والظبي لي والأرنب للثعلب ، فوثب السبع فأدماه ، ثم قال : للثعلب أقسم فقال : هو مقسوم العير لك لغذائك ، والظبي لمقيلك ، والأرنب لعشائك ، فقال من علمك هذه القسمة ؟ قال علمني الثوب الأرجواني الذي على الذئب ، وعلى المثل حمل قوم قوله عز وجل : « إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ »[2] وقوله تعالى : « كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كل سنبلة مائة حبة »[3] فقالوا : يصح هذا لما كان مثلا وان لم تجر العادة بوجود الحبة هكذا .

الباب السابع والثلاثون

﴿ ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب ﴾

ذهب كثير من المتكلمين الى أن الصدق يحسن لعينه والكذب

١ ـ الفرقان ٤٤
٢ ـ ص ٢٣
٣ ـ البقرة ٢٦١

يقبح لعينه ، وقال كثير من الحكماء والمتصوفة: ان الكذب يقبح لما فيه من المضرات الخاصة، والصدق يحسن لما يتعلق به من المنافع الخاصة ، وذلك ان الأقوال من جملة الأفعال، ومن الأفعال ما لا يحسن ولا يقبح لذاته وإنما يقبح لما يتعلق به من الضرر على ما فيه من النفع وبالعكس ، ألا ترى أن أعظم ما يجري في العالم القتل والبغض ، وقد يقع كل واحد منهما على وجه يحسن وعلى وجه يقبح ، فكذا المقال من الصدق والكذب ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (لا يحسن الكذب إلا في ثلاث: إصلاح ذات البين ، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها ، وكذب الرجل في الحرب فانها خدعة)، وقد ورد: « إذا أتاكم عني حديث يدل على هدى، أو يرد عن رديء فاقبلوه قلته أو لم أقله ، وان أتاكم عني حديث يدل على رديء، أو يرد عن هدى فلا تقبلوه فاني لا أقول إلا حقاً).

قالوا والكذب يكون قبيحاً بثلاث شرائط: أن يكون الخبر بخلاف المخبر عنه ، وأن يكون المخبر اختلقه عند الأخبار به ، وأن يقصد إيراد ما في نفسه لا نفعاً أعظم من ضرر ذلك الكذب مع شرط أن لا يمكن الوصول الى ذلك النفع بغيره ، ومع أنه إذا ظهر كان للكاذب عذر واضح عاجلاً وآجلاً ، قالوا ولا يلزم على هذا ان يقال احذروا الكذب فيما يرجى منه نفع دنيوي ، فالمنفعة الدنيوية ولو كانت ملك الدنيا بحذافيرها لا تعادل ضرر أدنى كذب ، وإنما هذا الذي قلناه يتصور في نفع أخروي يكون الانسان فيه معذوراً عاجلاً ، كمن سألك عن مسلم استتر في دارك وهو يريد قتله فتقول لا ، فهذا يجوز فان نفع هذا الكذب موفى على ضرره وهو فيه معذور ، ولا خلاف في

أن في المعاريض مندوحة عن الكذب ، ولم تزل الأنبياء والأولياء يفزعون اليها ، كقول النبي عليه الصلاة والسلام لمن سأله من أين أنت ؟ من ماء . وقول ابراهيم عليه الصلاة والسلام: إني سقيم ، وقوله: هذه أختي ، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا،

وأما الصدق: فانما يحسن حيث يتعلق به نفع ولا يلحق ضرره بأحد ، فمعلوم قبح قول من يقعد ويقول السماء فوقي والأرض تحتي من غير أن يريد أن يجعل هذا مقدمة دليل أو إفادة معنى تعلقه به ، فكذلك قبح النميمة والسعاية وإن كانا صدقا، ولذلك قيل : كفى بالسعاية ذماً انه يقبح فيها الصدق ،

وأقبح الكذب مع قبح كله أو جله ما لا يتعلق به رجاء نفع عاجل أو آجل ويجلب للمقول له ضرراً ، كرجل يأتيك من بلد بعيد فيقول ان ملك ذلك البلد يرغب فيك ويتشوّق اليك وسألك أن تأتيه لينيلك مالاً وجاهاً ، فاذا وردت فلم تجد لذلك صدقاً بل وجدت ذلك الملك حنقاً عليك.

الباب الثامن والثلاثون
﴿ أنواع الكذب والسبب الداعي اليه ﴾

الكذب: اما أن يكون اختراع قصة لا أصل لها ، أو زيادة في القصة ، أو نقصاناً يغيران المعنى ، أو تحريفاً يغير عبارة ،

فما كان اختراعاً يقال له: الافتراء والاختلاق ، فان كان بزيادة

فين وكل من أورد كذباً في غيره[1] . فإما أن يقوله بحضرة المقول فيه وهو المعبر عنه بالبهتان ، وكل من أورد حديثاً فإما أن يقوله عن علم ، أو عن غلبة ظن ، يحسن أو يقبح . فما كان عن تخمين فظن مذموم وعليه قوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ»[2] الآية.

واعلم ان الداعي الى الكذب محبة النفع الدنيوي وحب التراث ، وذلك ان المخبر يرى أن له فضلاً على المخبر بما علمه فهو يتشبه بالعالم الفاضل فيظن انه يجلب بما يقوله فضلا ومسرة ، وهو يجلب به نقيصة وفضيحة ، ففضيحة كذبة واحدة لا توازي مسرة دهره ، والكذب عار لازم وذل دائم، وحق الانسان أن يتحرى الصدق ويتعوده ولا يترخص في أدنى كذب ، فمن استحلاه عسرعنه فطامه ، وقال بعض الحكماء: كل ذنب يرجى تركه بتوبة أو إنابة ما خلا الكذب، فان صاحبه يزداد على الكبر، فانا رأينا شارب خمر أقلع ولصاً نزع ولم نر كذاباً رجع ، وعوتب كذاب في كذبه فقال: لو تغرغرت به وتطعمت حلاوته لما صبرت عنه والله الهادي.

الباب التاسع والثلاثون
﴿ الذكر الحسن من المدح والثناء ﴾

محبة الذكر الحسن أشرف مقاصد أبناء الدنيا ، وهي من جبلة الناس في خصائصهم ولا يوجد في غيرهم من الحيوان كما قال الشاعر :

---

١ ـ الحجرات ١٢

* حب الثناء طبيعة الانسان * ولولا الكلف به لما ظهرت العدالة من أكثر الناس ، ولما أخافه الهجاء ، ولا سره الثناء ، ولا ردعه عن سوء الفعال إلا سوط أو سيف ، ولذا قيل : مما ينفر عن القبح ويحث على الجميل : خمسة أشياء : العقل ، ثم الحياء، ثم المدح والهجاء، ثم الترغيب والترهيب ،

وقيل من لم يردعه الذم عن سيئة ، ولم يردعه المدح الى حسنة ، فهو جماد أو بهيمة ، ولأجله تنازع الناس الرياسة والمنازل الرفيعة ، وليس الثناء في نفسه بمحمود ولا مذموم ، وإنما يذم ويحمد بحسب المقاصد ، فمن قصده طلب ما يستحق به الثناء على الوجه الذي يستحب، فذلك محمود وهو طريق ابراهيم صلى الله عليه وسلم حيث قال: « وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ »[1] أي اجعلني بحيث أفعل ما إذا مدحت به يكون مادحي صادقاً، ومن هذا الوجه ندب للانسان أن يقول إذا مدح: اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، والمذموم أن يميل اليه من غير تجربة لفعل ما يقتضيه وذلك من أعظم الآفات لمن تحراه، فانه يفتح باب الحسد، والحسد يفتح باب الكذب، والكذب رأس كل مذمومة، وقد توعد الله سبحانه تعالى من طلب المحمدة من غير فعل حسنة فقال تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ »[2] وينظر الى قوله صلى الله عليه وسلم : (من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن). وقال: (المؤمن إذا مدح في وجهه ربا الايمان في قلبه) ومن الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم

١ ـ الشعراء ٨٤
٢ ـ آل عمران ١٨٨

وقد سمع رجلا أثنى على آخر فقال: (قطعت مطاه لو سمع ما أفلح)

والفاضل يكره الثناء عليه في وجهه سيما إذا كان من مادح مطر، وجليس مفرّ، وممن يحرف قبل أن يعرف، وممن ان وجد قادحاً قدح، وإن وجد مادحاً مدح،

وأما الثناء من الانسان على نفسه فشناعة وفظاعة، وقد قيل لحكيم ما الذي لا يحسن وإن كان حقاً؟ فقال: مدح الرجل نفسه، وقال معاوية رضي الله تعالى عنه لرجل: من سيد قومك؟ فقال أنا فقال: لو كنته لما قلته. وإنما لم يُستقبح من يوسف عليه الصلاة والسلام قوله: « ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ »[1] لأنه قصد بذلك التنبيه على استقلاله بما سأل أن يفوّض اليه، وقد أحسن ابن الرومي حيث اعتذر عن مدح نفسه قصد الدلالة على مكانه بقوله:

وعزيز عليّ مدحي لنفسي * غير أني جشمته للدلالة
وهو عيب يكاد يسقط فيه * كل حر يريد إظهار آله

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

الباب الأربعون
﴿ الشكر ﴾

الشكر: تصور المنعم عليه النعمة وإظهارها، وهو مقلوب عن

---

١ ـ يوسف ٥٥

الكشر ، ويضاده الكفر ، وهو من كفرت الشيء غطيته ودابة شكور أي مظهرة بسمنها أسداء صاحبها اليها ، وقيل : أصله من عين شكرى أي ممتلئة ، فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه ، ومن هذا الوجه قيل : هو أبلغ من الحمد، لأن الحمد ذكر الشيء بصفاته ، والشكر ذكر الشيء بصفاته وبنعمه ،

فالشكر على ثلاثة أضرب: شكر بالقلب وهو تصور النعمة ، وشكر باللسان وهو الثناء على المنعم ، وشكر بسائر الجوارح وهو مكافأته بقدر استحقاقه ،

وهو أيضاً باعتبار الشاكر والمشكور ثلاثة أضرب: شكر الانسان لمن هو فوقه وهو بالخدمة ، والثناء والدعاء ، وشكر لنظيره وهو بالمكافآت، وشكر لمن هو دونه وهو بالثواب ، وقد وصف الله تعالى نفسه بالشكر الصالح عباده ، وشكر العبد له هو معرفة نعمته وتحفظ جوارحه بمنعها عن استعمال ما لا ينبغي ، وشكر المنعم في الجملة واجب بالعقل كما هو بالشرع ، وأوجبها شكر الباريء تعالى ، ثم شكر من جعله سبباً لوصول خير اليك على يده ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (لا يشكر الله من لم يشكر الناس) وقال عليه الصلاة والسلام: (اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا تزول النعمة إذا شكرت ولا دوام لها إذا كفرت) **وقال بعضهم**: **كل نعمة يمكن شكرها إلا نعمة الله فان شكر نعمته نعمة منه** ، فيحتاج العبد أن يشكر الثاني كشكره الأول، وكذلك الحال في الثالث والرابع ، وهذا يؤدي الى ما لا يتناهى ، ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام : إلهي

أمرتني بالشكر على نعمك وشكري لك نعمة من نعمك . ومن هذا أخذ الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة * عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله * وإن طالت الأيام واتصل العمر

ولهذا قيل غاية شكر الله تعالى، الاعتراف بالعجز عنه ، بل قد قال الله تعالى:«وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ»[1]وأيضاً فكل ما يفعل الله بعبده فهو نعمة منه، وان كان بعض ذلك يعدّ بليه ، ولهذا قال بعض الصالحين: يا من منعه عطاه ، وبلاؤه نعماء ، ولأجل صعوبة شكره قال عز وجل: « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ »[2]ولم يثن بالشكر على أوليائه إلا على اثنين منهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى: «شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ»[3] اجتباه فخص لفظ لأنعمه الدال على أدنى العدد وقال في نوح عليه الصلاة والسلام:«إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا»[4]

واعلم أن الشكر والصبر جماع الايمان كما روي في الخبر: الصبر نصف الايمان، لكن قال بعض المتصوفة: الشكر أفضل من الصبر، فان الصبر حبس النفس الى مسالمة البلاء ، والشكر أن لا تلتفت الى البلاء بل تراه من النعماء، فمن صبر فقد ترك إظهار الجزع ، ومن شكر فقد تجاوز الى إظهار السرور بما جزع له الصابر ، وأيضاً الصبر ترك العمل السيء ، والشكر إظهار العقل الحسن ، وليس من ترك قبيحاً كمن فعل جميلاً، وقابل تعالى الشكر بالمجازاة فعل

---

١ - ابراهيم ٣٤
٢ - سبأ ١٣
٣ - النحل ١٢١
٤ - الاسراء ٣

الحبيب بحبيبه، فقال تعالى: «وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ»[1] وقابل الصبر بالأجر فعلَ المستأجر بأجيره فقال تعالى: « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ»[2] وأين الاجر وان كثر حتى صار بغير حساب من الجزاء، ثم قال في الصبر: يوفّ، فلم يسم فاعله، وقال في الشكر: « وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ»[3] فانظر الى هذا اللطف في المقال قبل الانتهاء الى الفعال، ولم يذكر من أنبيائه بالشكر الاثنين كما تقدم ووصف جماعتهم بالصبر فقال: « كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ»[4] وقال: « لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»[5] فجعل الصبر مبدأ الشكر تنبيهاً، ولأن الصبر محمول عليه قهرا، والشكر مؤدي طبعاً.

الباب الحادي والأربعون
﴿ الغيبة والنميمة ﴾

الغيبة: أن يذكر الانسان غيره بما فيه من عيب من غير أن يحوج الى ذكره، وقد عظم الله تعالى أمرها فقال: « وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا»[6] الآية، وقال تعالى: « هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ»[7] وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة قتات، وروي النميمة تفطر الصائم، وتنقض الوضوء، وقل من كان عائباً إلا كان معيباً: وقال قتيبة لرجل رآه يغتاب

---

١ - آل عمران ١٤٥
٢ - الزمر ١٠
٣ - آل عمران ١٤٥
٤ - الأنبياء ٨٥
٥ - ابراهيم ٥، لقمان ٣١، سبأ ١٩، الشورى ٣٣
٦ - الحجرات ١٢
٧ - القلم ١١

آخر : لقد تلمظت بما يعافه الكرام ، وحق الانسان ان لا يتعودها فان لها ضراوة، ولهذا عير انسان آخر بالغيبة فقال: لو تلمظت بها لما صبرت عنها ، ثم ان من اغتاب اغتيب، ومن عاب عيب فبحثه عن عيوب الناس يورث البحث عن عيوبه ، وكما لا يجب أن يتحراها بقوله يجب أن لا يسمعها ، لأن سماع كل قبيح يعلق ضرره ووسخه بفكرته ، فنجس كلمة عوراء لا يمكن الطُّهرُ منه إلا بزمان مديد ، وعلاج شديد ، وسماع القبيح قد يكون سبباً لفساد الكبير المجيد ، وغواية العالم المستبصر فضلاً عن فساد الحدث الغر ، والناشىء الغمر ، ولذلك قال عز وجل في مدح قوم: «وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا»[1] وقد أجاد من قال:

وسمعك صن عَنْ سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به.

وكقبح الغيبة والنميمة المسابّة قال صلى الله عليه وسلم : (ما تساب اثنان إلا غلب الأمهما وإلا انحط الأعلى الى رتبة الأسفل منهما ، وقيل إذا سمعت كلمة تؤذيك فتيامن لها حتى تتحاشاك وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

الباب الثاني والأربعون
﴿ الكلام القبيح البذاء ﴾

الكلام القبيح يكون من القوة الشهوية طوراً كالرفث

١ ـ الفرقان ٧٢

والسخف ، ويكون من القوة الغضبية طوراً ، فمتى كان معه استعانة بالقوة المفكرة كان معه السباب ، ومتى كان من مجرد الغضب كان صوتاً مجرداً لا يفيد نطقاً ، كما يرى في كثير ممن فار غضبه ، وهاج هائجه ،

والرفث: فواحش الكلام في باب النكاح وأوصاف النساء وهو قبيح ، وقال بعضهم: اني لأستقبح من الرجل أن يكون وصافاً لبطنه وفرجه ، ومن حق الانسان أن يصون عن ذلك سمعه كما يصون عن التفوه به فمه ، ولذلك وصف الله تعالى قوماً فقال: « وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا »[1] وقال تعالى: « وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ »[2]

والسباب ثلاثة: الأول قدح في نسب المسبوب ، الثاني: في نفسه أو بدنه لعاهة به أو آفة ، الثالث: في شيء فعله أو فعل به ، والسفه: التسرع الى القول القبيح.

الباب الثالث والأربعون
﴿ المزاح والضحك ﴾

المزاح إذا كان على الاقتصاد فهو محمود، كما روي عنه عليه الصلاة والسلام: (اني لأمزح ولا أقول إلا حقاً)، وروي عنه صلى الله عليه وسلم كلمات مازح بهن . وقال سعيد بن العاص : اقتصد في

---

١ ـ الفرقان ٧٢
٢ ـ القصص ٥٥

مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء، وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين ، لكن الاقتصاد منه صعب جداً لا يكاد يوقف عليه ، ولذلك تحرج عنه أكثر الحكماء حتى قيل : المزاح مسلبة للبهاء ومقطعة للاخاء ، وفحل لا ينتج إلا الشر.

وأما الضحك: فمن خصائص الانسان، وذلك لأنه يكون عن التعجب ، والتعجب لا يكون إلا عن فكرة ، والفكرة تميز الانسان عن البهائم ، والاقتصاد فيه ومعرفة ما هو حسن منه عسر كالمزاح ، وقيل: إياك وكثرة الضحك فانها تميت القلب وتورث النسيان ، وقيل كثرة الضحك من الرعونة ، ويحكى عن عيسى عليه الصلاة والسلام انه قال : إن الله يبغض المضحاك من غير عجب ، والمشاء الى غير أرب ، وأما إيراد المضحكات على سبيل السخف فنهاية القباحة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك منه ويل له ويل له).

الباب الرابع والأربعون
﴿ الحلف ﴾

الحلف الكذب أقبح من اليمين الفاجرة ففيها مع الكذب الاستهانة بالمقسم به ، وحق المسلم أن يتحاشى من الاستعانة باليمين في الحق فكيف في الباطل ، وأن يتحقق تقدير القسم وما يراد به ليعلم ان الاعراض الدنيوية أوبخ أمراً وأخس قدراً من أن يفزع فيها الى اليمين بالله ، وتقدير ذلك أن القائل إذا قال: تالله إن لي عليك كذا ،

أي أن وجود ذلك حق، كما ان وجود الله حق ، وهذا كلام يتحاشى منه من في قلبه حبة خردل من تعظيم الله تعالى ، وقد قال تعالى: «وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا»[1] وقال تعالى: « وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ»[2] وقال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه : الحلف ينفق السلعة ويذهب البركة ولن يخص يميناً من يمين ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم : (من لم يحلف على ماله فلا مال له)، فانه وإن كان بنظر الفقهاء انه يفسح له في الحلف صادقاً انه بنظر الحكماء حث على اتيان تعظيم الله تعالى ، وتقديم على إيثار المال ، وتعريض بان الذي فاته هو عرض حاضر لا الدين والمروءة ، وحق العاقل إذا اضطر اليه أن يسلك سبيل التعريض اليه دون التصريح ، وما لا يضطر اليه يتركه تعريضاً وتصريحاً وان بدر منه سهواً حلف، يدرؤه بالاستثناء، كما قال صلى الله عليه وسلم: (من كان حالفاً فليقل ان شاء الله، فانه يدفع الحنث ويذهب الخبث وينجز الحاجة ويرد اللجاجة). وقيل: العاقل إذا تكلم أتبع كلامه مثلا والأحمق إذا تكلم أتبع كلامه حلفاً، وعلامة الكاذب جوده بيمينه على غير مستحلف قال الشاعر:

وفي اليمين على ما أنت واعده * ما دل أنك في الميعاد متهم

وقال بعض الحكماء: الحلافة تدل على كذب أربابها، لأن ذلك لقلة الركون الى كلامهم ، وكما جوّز عليه الصلاة والسلام الكذب إذا اضطر اليه، جوّز الحنث في اليمين ، فقال : (إذا حلف أحدكم على شيء فرأى غيره خيراً منه فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه).

١ - النحل ٩٥
٢ - البقرة ٢٢٤

الفصل الثالث
﴿ فيما يتعلق بالقوى الشهوية ﴾

الباب الأول
﴿ الحياء ﴾

الحياء: انقباض النفس عن القبايح ، وهو من خصائص الانسان وأقل ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان ، وجعله الله سبحانه في الانسان ليرتدع به عما تنزغ اليه الشهوة من القبايح ، فلا يكون كالبهيمة ، وهو مركب من جبن وعفة، ولذلك يكون المستحي فاسقاً ولا الفاسق مستحيياً، لتنافي اجتماع العفة والفسق ، وقلما ما يكون الشجاع مستحيياً والمستحي شجاعاً، لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة ، ولقلة وجود ذلك تجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة ، وبين المدح بالحياء ، نحو قول الشاعر:

يجري الحياء الغض من قسماتهم * في حين يجري من أكفهم الدم

وقال:

كريم يغض الطرف فضل حيائه * ويدنو وأطراف الرماح دواني

ومتى مدح بالانقباض ، فمدح للصبيان دون المشايخ ، ومتى قصد به ترك القبيح فمدح لكل أحد وبالاعتبار الأول قيل: الحياء

للأفاضل قبيح ، ومن هذا الوجه خزى خزياً في الهوان، وخزى خزاية في الاستحياء، فجعلا من منبع واحد.

وبالاعتبار الثاني قيل: ان الله يستحيي من ذي الشيبة في الاسلام أن يعذبه ، أي يترك عذابه ،

وأما الخجل: فحيرة النفس لفرط الحياء، ويحمد في النساء والصبيان ، ويذم باتفاق من الرجال، والوقاحة مذمومة بكل انسان ، إذ هي انسلاخ من الانسانية ، وحقيقتها لجاج النفس في تعاطي القبيح واشتقاقه من حافر وقاح، أي صلب وبهذه المناسبة قال الشاعر:

يا ليت لي من جلد وجهك رقعة * فأقد منها حافراً للاشهب

وما أصدق قول الشاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد * إلا تكامل فيه الشر واجتمعا

فأما مداواة اكتساب الحياء إذ هم بقبيح فبأن يتصور أعظم ما في نفسه ، ولذلك لا يستحيي من الحيوان ولا من الأطفال الذين لا يميزون ، ويستحيى من العالم أكثر مما يستحيى من الجاهل، ومن الجماعة أكثر من الواحد،

والذي يستحي منهم الانسان ثلاثة:

البشر: وهو أكثر ما يستحي منه، ثم نفسه، ثم الله عز وجل، ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه، فنفسه أخس عنده من غيره ، ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله عز وجل، فلعدم معرفته به ، فان الانسان يستحي ممن يعظمه ويعلم أنه يراه ويسمع نجواه ومن

لا يعرف الله فكيف يستعظمه وكيف يعلم أنه مطلع عليه ، وقوله صلى الله عليه وسلم : استحيوا من الله حق الحياء ، في ضمنه حث على معرفته ، وقال الله عز وجل : « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ »[1] تنبيهاً على أن العبد إذا علم أن ربه يراه استحيا من ارتكاب الذنب ، وسئل الجنيد عما يولد الحياء من الله تعالى فقال : رؤية العبد آلاء الله عليه ، ورؤية تقصيره عن شكره ، إن قيل : كيف قال عليه الصلاة والسلام : (من لا حياء له لا ايمان له) ، وقيل الحياء أول ما يظهر في الانسان من أمارة العقل ، والايمان آخر مرتبة العقل ، ومحال حصول المرتبة الأخيرة لمن لم تحصل له الأولى ، فبالواجب إذا كان من لا حياء له لا إيمان له ، وقال صلى الله عليه وسلم : (الحياء شعبة من الايمان ، وقال : الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء) .

الباب الثاني
﴿ كبر الهمة ﴾

وأما كبر الهمة فخاص بالانسان ، وأما سائر الحيوان فكل جنس يتحرى العقل بقدر ما في طبعه ، وهو حال بين التفنج وصغر الهمة .

فالتفنج : تأهل الانسان لما لا يستحقه وهو البذخ ،

وصغر الهمة : ترك لما لا يستحقه ، وهو الدناءة وكلاهما مذموم ، لكن المتفنج جاهل أحمق ، وصغير الهمة جاهل غير أحمق ، وليس لكبر

---

١ ـ العلق ١٤

الهمة إفراط مذموم في الحقيقة ، وإنما الافراط يدخل في كل فعل يتصوره بعض الناس تصوره عدم الهمة وليس كذلك ،

واعلم انه يقال: فلان كبير الهمة ، وفلان صغير الهمة إذا كان أحدهما يطلب مغتنى أكثر أو أشرف مما يطلبه الآخر ،

والكبير الهمة على الاطلاق، هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فلا يصير عبد عارية ببطنه وفرجه ، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة فيصير من أولياء الله وخلفائه في الدنيا ومن مجاوريه في الآخرة.

والصغير الهمة ، من كان على الضد من ذلك ، وقال أعرابي فلان عظمه صغير الدنيا في عينه ، فكان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وخارجاً من سلطان فرجه فلا يستحق له رأياً ولا بدناً ، وحق الانسان ان يتظلف من ذلك فانه وإن كان بعنصره حيواناً فبعقله وفكره ملك ، إذا ضيع نفسه صار شراً من البهيمة وذلك هو الخسران المبين ،

وقيل: من عظمت همته لم يرض بقنية مستردة وحياة مستعارة ، فان أمكنك أن تقتني قنية مؤبدة وحياة مخلدة فافعل ، فلا اعتداد بما له فناً ،

والكبير الهمة على الاطلاق، من يتحرى الفضائل لا لذة ولا لثروة ولا لاستشعار نخوة واستعلاء على البرية ، بل يتحرى مصالح العباد شاكراً بذلك نعمة الله وطالباً به مرضاته غير مكترث بقلة

مصاحبيه ، فانه * إذا عظم المطلوب قل المساعد * وطرق العلاء قليلة الايناس.

الباب الثالث
﴿ الوفاء والغدر ﴾

الوفاء أخو الصدق والعدل، والغدر أخو الكذب والجور ، وذلك ان الوفاء صدق باللسان والفعل معاً ، والغدر كذب بهما وفيه مع الكذب نقض العهد ، والوفاء يختص بالانسان فمن فقده فقد انسلخ من الانسانية كالصدق ، وجعل الله سبحانه العهد من الايمان وصيره قواماً لأمور الناس، فالناس مضطرون الى التعاون ولا يتم تعاونهم إلا بمراعاة العهد والوفاء، ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفعت المعايش ، ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال تعالى: « وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ »[١] وقال تعالى: « وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ »[٢] وقال تعالى: «وثيابك فطهر»[٣] أي نزه نفسك عن الغدر وقال عز وجل: «والموفون بعهدهم إذا عاهدوا»[٤] وقال عز وجل: «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ »[٥] وعظم حال السموءل فيما التزم به من الوفاء بدروع امرىء القيس ، ولقلة وجود ذلك في الناس قال تعالى: «وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ »[٦] وضرب المثل به في المعزة

---

١ ـ البقرة ٤٠
٢ ـ النحل ٩١
٣ ـ
٤ ـ البقرة ١٧٧
٥ ـ المعارج ٣٢
٦ ـ الأعراف ١٠٢

فقيل هو أعز من الوفاء قال الشاعر:

أبـى النـاس إلا ذميم الفعال * إذا جربـوا وقبيح الكـذب

الباب الرابع

﴿ المشاورة ﴾

اشتقاقها من شرت الدابة إذا استخرجت جريها ، وهي استنباط المرء رأي غيره فيما يعرض له من الأمور المشكلات ، ويكون ذلك في الجهة التي يتردد المرء فيها بين فعلها ونعمت العدة هي قال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه: المشاورة حصن من الندامة وأمن السلامة .

وقيل: الأحمق من قطعه العجب عن الاستشارة والاستبداد عن الاستخارة ، فالرأي الواحد كالسجيل ، والرأيان كالخيطين ، والثلاثة إصرار لا ينقض، وكفاك بمدحه قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ»[1] وقد استحسن الحكماء قول بشار:

إذا بلغ الرأي المشـورة فاستعن * برأي لبيب أو فصاحة حازم

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة * فريش الخوافي تابع للقوادم

لكن اعتبار من تجوز مشورته صعب جداً ، فانه يحتاج أن يكون صديقاً مجرباً ، حازماً ناصحاً رابط الجأش ، غير معجب بنفسه ، ولا متلون في رأيه ، ولا كاذب في مقاله ، فمن كذب لسانه كذب رأيه ، ويجب أن يكون فارغ البال في وقت ما يستشار فقد أحسن بشار في

---

١ ـ آل عمران ١٥٩

قوله:

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه * وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد * فحق له من طاعة بنصيب

الباب الخامس
﴿ النصح ﴾

النصح: أصله من نصحت الثوب إذا خططته، وهو إخلاص المحبة لغيره في إظهار ما فيه صلاحه، وهو ذوب المحبة المختصة بالفضيلة دون محبة النفع واللذة وقد عظم النبي صلى الله عليه وسلم أمرها فقال: (الدين النصيحة، فقيل لمن يا رسول الله؟ فقال: لله ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامتهم)، فبين صلى الله عليه وسلم أن النصح واجب لكافة الناس وذلك بأن تتحرى مصلحتهم في جميع أمورهم بقدر وسعك.

وأول النصح أن ينصح الانسان نفسه، فمن غشها فقلما ينصح غيره وحق من استنصح أن يبذل غاية النصح وإن كان ذلك في شيء يضره ويتحرى فيه قول الله عز وجل: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ»[1] وقال تعالى: «وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ»[2] وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه: لا يزال

١ - النساء ١٣٥
٢ - الانعام ١٥٢

الرجل يزداد في صحة رأيه ما نصح لمشيره، فاذا غشه سلبه الله تعالى صحته ، ولا يلتفتن الى ما قيل إذا نصحت صاحبك فلم يقبل منك، فتقرب الى الله بغشه فذلك قول ألقاه الشيطان على لسانه، اللهم إلا أن يريد بغشه السكوت فقد قيل: كثرة النصيحة تورث الظنة ، ومعرفة الناصح من الغاش المستنصح صعبة جداً فالانسان بمكره يعز الاطلاع على سره إذ هو يبدي خلاف ما يخفي، وليس كالحيوان الذي يمكن الاطلاع على طبيعته.

الباب السادس

﴿ كتمان السر ﴾

السر ضربان :

أحدهما: ما يلقى الى الانسان من حديث يستكتم ، وذلك إما لفظاً : كقولك لغيرك أكتم ما أقول لك ، وإما حالا وهو أن يتحرى القائل حال انفراده فيما يورده أو يخفض صوته أو يخفيه عن مجالسه ، ولهذا قيل اذا حدثك انسان بحديث فالتفت فهو أمانة.

والثاني: أن يكون حديثاً في نفسك ما تستقبح إشاعته، أو شيئاً تريد فعله ، والى الأول من ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (من أتى منكم من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله)، والى الثاني أشار : من قال من وهي الأمر إعلانه قبل احكامه ، وكتمان النوع الأول من الوفاء وهو أخص بعامة الناس ، والثاني من الحزم

والاحتياط وهو أخص بالملوك وأصحاب السياسات ، وإذاعة السر من قلة الصبر وضيق الصدر ، وتوصف به ضعفة الرجال والنساء والصبيان ، والسبب في انه يصعب كتمان السر هو أن للانسان قوتين : آخذة ومعطية وكلتاهما مما تتشوف الى الفعل المختص بها ، ولولا ان الله تعالى وكل المعطية باظهار ما عندها لما أتاك بالأخبار من لم تزود ، فصارت هذه القوة تتشوف الى فعلها الخاص تحت إطلاقها ولا يخدعنك عن سرك قول من قال شعراً:

* واكتم السر فيه ضربة العنق *

وقوله:

ويكاتم الأسرار حتى أنه * ليصونها عن أن تمر بباله

فذلك قول من يستنزلك عما في قلبك، فاذا استفرغ ما عندك لم يرع فيه حقك. فقد قيل: الصبر على القبض على الجمر أيسر من الصبر على كتمان السر: وما أصدق من أنبأ عن حقيقة حاله حيث قال له صديقه : أريد أن أفشي اليك سراً تحفظه عليّ؟ فقال: لا أريد أن أرى قلبي بجواك وأجعل صدري خزانة شكواك ، فيقلقني ما أقلقك ، ويؤرقني ما أرقك ، فتبيت بافشائه مستريحاً ، ويبيت قلبي بحره جريحاً ،

وقيل: أكثر ما يستنزل الانسان عن سره في ثلاثة مواضع ، عند الاضطجاع على فراشه ، وعند خلوته بعرسه ، وفي حال سكره.

ومن حق من يساور غيره أن يجتنب المحافل لأمرين:

أحدهما حذراً من أن يساء به الظن، فهذا يقول قد خبأ شيئاً

وهذا يستريب وذا يتهم.

والثاني ربما يتبع بالفحص فيطلع على مراده ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى إثنان دون الثالث).

الباب السابع
﴿ التواضع والكبر ﴾

التواضع مشتق من الضعة: وهو رضا الانسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته، وفضيلة لا تكاد تظهر في إفناء الناس لانحطاط درجتهم وإنما ذلك يتبين في الملوك وأجلاّء الناس وعلمائهم، وهو من باب التفضل، لأنه يترك بعض حقه وهو بين الكبر والضعة.

فالضعة: وضع الانسان نفسه منزلة تزري به ليضيع حقه.

والكبر: وضع نفسه فوق قدره.

والفرق بين التواضع والخشوع: ان التواضع يقال فيما بين رفيع ووضيع، وأيضاً فالتواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة، والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح، ولذلك يقال: تواضع القلب، وخشعت الجوارح، وقال عز وجل: «خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ»[1] «وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ»[2] وقد عظم النبي صلى الله عليه وسلم التواضع فقال: (طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذل في نفسه من غير مسكنة).

١ ـ القلم ٤٣، المعارج ٤٤
٢ ـ طه ١٠٨

وقيل لبزرجمهر هل تعرف نعمة لا يحسد عليها ، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه ؟ قال نعم أما النعمة فالتواضع ، وأما البلاء فالكبر .

وقال بعض الحكماء وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمدُ عند الحكماء ، من الكبر مع الأدب والسخاء ، فأحْسِنْ بحسنة غطت على سيئتين ، وأقْبحْ بسيئة غطت على حسنتين ، فالكبر ظن الانسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر إظهار ذلك وهذه صفة لا يستحقها إلا الله عز وجل ، ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ، ولذلك صار مَدْحاً في الباري تعالى وذماً في البشر . وإنما شرف المخلوق في إظهار العبودية كما قال تعالى: «لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ»[١] تنبيهاً على ان ذلك لهم رفعة لا ضعة ،

والمتكبر والضرع كلاهما جاهل، لكن الضرع غبي، والمتكبر غير أحمق ، وشتان ما بينهما . والغبي قد يتأدب ، والأحمق لا سبيل الى تأديبه ، ولأن الضرع قد ترك ماله ، والأحمق قد ادعى ما ليس له ، وشتان ما بين المنزلتين . ولأن التكبر يتولد من الاعجاب والاعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الانسانية ، ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال: «إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ»[٢] وقال تعالى: « فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تَسْتَكْبِرُونَ»[٣] وقال تعالى الى: « كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ »[٤]وقال صلى

---

١ ـ النساء ١٧٢
٢ ـ النحل ٢٣
٣ ـ الأحقاف ٢٠
٤ ـ غافر ٣٥

الله عليه وسلم عن الله : (العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحدة منهما قذفته في نار جهنَّم). ونبه تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: «وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا»[1] وأقبح كبر بين الناس ما كان معه بخل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: الكبر والبخل) ، واستحسن قول الشاعر:

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما * نفس الملوك وأخلاق المماليك

ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عنصره، ومن تفكر في ذاته فعرف مبدأه ومنتهاه وأواسطه عرف بعضه وروض كبره، وقد نبه الله على ذلك بقوله: « فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ »[2] الآية. وقال تعالى: «قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ »[3] وقال تعالى: « إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ »[4] والى هذا المعنى نظر معارف بن عبد الله الشخير لما قال ليزيد بن المهلَّب

كيف يزهى من ضجيعه * أبد الدهر رجيعه

وقال:

يا قريب العهد بالمخـ * ـرج لم لا تتواضع

فمن كان تكبره لقنيته فليعلم أن ذلك ظل زائل وعارية مستردة،

والاستطالة: إظهار الطول، فمن أظهر ذلك من غير طول

---

١ - الاسراء ٣٧
٢ - الطارق ٥
٣ - عبس ١٨، ١٩
٤ - الانسان ٢

فمنسلخ من الانسانية ، ومن أظهره مع طوله فقد ضيع الطول ،

والصلف يقال: اعتبار الميل في عنقه ، والصعر الميل في خده ، ولذلك استعمل فيه ليّ الرأس نحو قوله تعالى: «لوّوا رؤسهم»[1] .

والباء استقصاء النفس بالترفع عن الانقياد للواجب.

والخيلاء: أن يظن في نفسه ما ليس فيها من قولهم خلت، ولتصور هذا المعنى قال حكيم : إعجاب المرء بنفسه أن يظن بها ما ليس فيها مع ضعف قوّة فيظهر فرحه ،والزهو الاستخفاف من الفرح بنفسه ،

وأما العزة: فالترفع بالنفس عما يلحقه غضاضة ، وأصلها من العزاز وهو الأرض الصلبة فالمتعزز من حصوله في عزاز لا يلحقه فيه غضاضة كالمتظلف في كونه في ظلف من الأرض لا يلحقه مذلة ، والعزة منزلة شريفة ، وهي نتيجة معرفة الانسان بقدر نفسه وإكرامها عن الضراعة للأعراض الدنيوية ، كما ان الكبر نتيجة جهل الانسان بقدر نفسه وإنزالها فوق منزلتها وكثيراً ما يتصور أحدهما بصورة الآخر ، كتصور التواضع والتضرع والتذلل بصورة واحدة ، وتصور الاسراف بصورة الجود والبخل بصورة الحزم ، ولهذا قال الحسن رضي الله تعالى عنه لمن قال له ما أعظمك من نفسك؟ فقال : لست بعظيم ولكني عزيز قال الله تعالى: «وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ»[2] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه) . ولما قلنا قالوا التكبر على الأغنياء تواضع ، تنبيهاً على أن هذا التكبر عزة نفس ومن

١- المنافقون ٥

٢- المنافقون ٨

أجل ان هذا التكبر غير مذموم ، قال عز وجل: «يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ »[1] وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: من خضع لغني فوضع نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثلثا دينه، وشطر مروءته.

الباب الثامن

﴿ الفخر ﴾

الفخر: هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الانسان ، وذلك نهاية الحمق لمن نظر بعين عقله ، وانحسر عنه قناع جهله ، فأعراض الدنيا عارية مستردة ، لا يؤمن كل ساعة أن ترتجع ، فالمباهي بها مباه بغير ثراه ومجج بما في نظر سواه كالفاجرة تجدح بزيها ، بل هو دون من ذلك فقد قال بعض الحكماء لمثر يفتخر بثرائه : إن افتخرت بفرسك فالحسن[3] والفراهة له دونك ، وان افتخرت بأبائك فالفضل فيهم لا فيك ، ولو تكلمت هذه الأشياء لقالت هذه محاسننا فما لك من الحسن ، وأيضاً فالأعراض الدنيوية سحابة صيف عن قليل تقشع وظل زائل عن قليل يضمحل كما قال الشاعر:

إنما الدنيا كرؤيا فرحت * من رآها ساعة ثم انقضت

بل كما قال الله عز وجل :«وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ »[2] فان افتخرت فافتخر بمعرفة غير خارجة عنك ، وإذا أعجبك من الدنيا شيء فاذكر فناءك

١ ـ الأعراف ١٤٦
٢ ـ الكهف ٤٥

وبقاءه ، أو بقائك وزواله ، أو فناءكما جميعاً ، فإذا رابك ما هو لك فانظر الى قرب خروجه من يدك وبعد رجوعه اليك ، وطول حسابك عليه ان كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وقد ذم الله تعالى الفخور بقوله: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ»[1]

الباب التاسع

﴿ العجب ﴾

العجب: ظن الانسان بنفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها ، ولهذا قال أعرابي لرجل معجب بنفسه : يسرني ان أكون عند الناس مثلك عند نفسك ، وأكون في نفسي مثلك عند الناس ، فتمنى حقيقة ما يقدره المخاطب ورأى ذلك إنما يتم حسنه متى هو عرف عيوب نفسه ، وقد قيل للحسن مَنْ شرّ الناس ؟ فقال: من يرى أنه أفضلهم، فقال بعضهم: الكاذب أبعد الناس من الفضل ، والمرائي أسوأ حالاً من الكاذب، لأنه يكذب بقوله وفعله ، والمعجب أسوأ حالاً منهما فانهما يريان نقص أنفسهما ويريدان اخفاءه ، والمعجب أعمى عن مساوىء نفسه فيراها محاسن ويبديها ، قالوا: والمرائي والكاذب قد ينتفع بهما : كملاح خاف ركابه الغرق من مكان في البحر فيؤديهم ذلك الى العطب، وقد يحمد رأي الرئيس إذا قصد أن يقتدى به في فعل الخير ، والمعجب لاحظ له في ذلك بوجه، لأنك إذا وعظت المرائي والكاذب بنفسهما تصدقك وتبكتهما لمعرفتها بنقصهما ،

---

١ ـ لقمان ١٨

والمعجب لجهله بنفسه يظنك في وعظه ملغياً فلا ينتفع بمقالك وإياه قصد تعالى بقوله: «أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا»[1] ثم قال تعالى: « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ »[2] تنبيهاً على انهم لا يعقلون لإعجابهم وقال صلى الله عليه وسلم : (ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه) : يقول إبليس: إذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لا أطالبه بغيرها ، إذا أعجب بنفسه ، واستكثر عمله ، ونسي ذنوبه ، وكما أن المعجب بفرسه وإن كان رديئاً لا يروم أن يستبدل به غيره ، كذلك المعجب بنفسه لا يريد بحاله وإن كانت رديئة بدلاً.

وأصل الاعجاب من حبّ الانسان نفسه وقد قال صلى الله عليه وسلم : (حُبُّك الشيء يعمي ويصم ، ومن عمي وصم تعذرت عليه معرفة عيوبه)، فيجب علينا أن نجعل على أنفسنا عيوناً تعرفنا عيوبنا بحق : قال عمر رضي الله تعالى عنه : رحم الله امرأ أهدى اليّ عيوبي ، ويجب على الانسان إذا رأى من غيره سيئة أن يرجع على نفسه، فان رأى منها ذلك نزعها ولم يغفل عنها قال الشاعر :

فمن جهلت نفسه قدره * رأى غيره منه ما لا يرى

والتيه قريب من العجب ، لكن المعجب يصدق نفسه فيما يظن بها وهماً والتيَّاهُ يصدقها قطعاً كأنه متحير في تيه .

---

١ - فاطر ٨

٢ - فاطر ٨

الباب العاشر
﴿ أنواع اللذات وتفصيلها ﴾

اللـذة: إدراك المشتهـي ، والشهـوة: انبعـاث النفس لنيل ما تتشوفه ، وهي ثلاث بحسـب القـوى الثـلاث ، فبحسـب المعينـات الثلاث.

لذة عقلية: وهي التي يختص الانسان بها كلذة العلم والحكمة ،

ولذة بدنية: يشارك فيها جميع الحيوانات الانسـان كلـذة المأكل والمشرب والمنكح.

ولذة يشارك فيها بعض الحيوان الانسان كلذة الرياسة والغلبة ، وأشرفها وأقلها وجوداً اللذة العقلية ، فشرفها انها لا تمل وتبذل بها ، لكن لا يعرفها إلا من تخصص بها ، فالحكمة لا يعرفها إلا الحكيم ، وأدنى اللذات منزلة وأكثرها وجوداً اللذة البدنية ، فكل انسان يتشوفها وكل حيوان ، لكنها تمل تارة وتُراد تارةً وهي من وجوه مداواة من آلام ومن وجوه هي آلام ، وعلى هذا قال الحسن في وصف الانسان : صريع جوع وقتيل شبع.

وجميع اللـذات تنقسـم عشرة أقسـام : مأكل ، ومشرب ، ومنكح ، وملبس ، ومشم ، ومسمع ، ومبصر ، ومركب ، وخادم ، ومرفق من الآلات . وما أشبهها وقد جعل ذلك سبعة وأدخل المركب

والمرفق والخادم من جملة المبصرات ، وعلى ذلك ما روي ان أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه قال لعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه وقد رآه يتنفس : علام تنفسك يا عمار ؟ إن كان على الآخرة فقد ربحت تجارتك ، وإن كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك ، فاني وجدت لذاتها سبعاً : المأكولات ، والمشروبات ، والمنكوحات ، والملبوسات ، والمشمومات ، والمسموعات ، والمبصرات.

فأما المأكولات: فأفضلها العسل وهو من ذباب .

وأما المشروبات: فأفضلها الماء وهو مباح، أهون موجود وأعز مفقود.

وأما المنكوحات: فمبال في مبال، وحسبك ان المرأة تزين بأخس شيء، وتراد بأقبح شيء منها.

وأما الملبوسات: فأفضلها الديباج وهو نسج دود ،

وأما المشمومات: فأفضلها المسك وهو دم فأرة.

وأما المسموعات: فريح هابة في الهواء.

وأما المبصرات: فخيالات صائرة الى الفناء وقد ذكر الله عز وجل أصل ذلك في قوله: « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ »[1] والمشار اليه بحرث الدنيا هذه الأشياء السبعة على ما ذكر أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه ، والعشرة على ما ذكر غيره، وكلا القولين في التحصيل واحد ، والمراد بالنساء اقتناؤهن والاستكثار منهن ، والبنين الذكر من

---

١ ـ ال عمران ١٤

الأولاد والحفد والخدم ، وبالانعام الأزواج الثمانية وبالخيل المسومة السائمة منها والمستعدة.

واعلم أن التي هي ضرورية للانسان من هذه اللذات ولا قوام له إلا بها ما هو مشترك بينه وبين جنسه من الحيوان المأكل والمشرب يجمعهما اسم الغذاء والمنكح ، فبالغذاء بقاء الأشباح ، وبالنكاح بقاء الأنواع ، ولذلك صارت الحاجة اليهما ضرورية وصار تناولهما لا بد للناس منه، وسائر اللذات مخصوص بها الانسان وليس بضروري له ويتناوله بفكره وتأنف الملوك من هذه الملاذ إلا اثنتين ، السماع لكونه لذة روحانية ، والثناء لكونه دالاً على الهمة الرفيعة ، ومتى كانت الشهوة متناهية عقلية كانت أم بدنية ، قيل لها: الحرص، والحريص قد يكون محموداً ولذلك قال تعالى: « حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »[1] ومتى كانت الشهوة للقنيات قيل لها الشره، سواء كان مالا أو نكاحاً فمتى كانت للطعام ، قيل لها : النَّهم ، ومتى كانت للنكاح قيل لها : الشبق ، وثلاثتها أعني الشره والنهم والشبق مذمومة ، وما روي من قوله : منهومان لا يشبعان : منهوم بالمال، ومنهوم بالعلم ، فالنَّهم بالعلم استعارة وهو أن يحمل على نفسه ما تقصر قواه عنه فينبت وقد قال صلى الله عليه وسلم : (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى).

---

١ ـ التوبة ١٢٨

الباب الحادي عشر
﴿ فيما يحسن تناوله من المطعم وفيما يقبح منه ﴾

الغذاء ضربان:

احدهما: ما لا يستغنى عنه في قوام البدن كالطعام الذي به يتغذى والماء الذي به يروى ، والانسان إذا تناول من ذلك مقدار ما يمكن التبلغ بأقل منه على ما يجب، وكما يجب معذور بل مشكور ومأجور ، وعلى هذا ما روي عند أكل الصالحين تنزل الرحمة ، وحقه أن يتناوله تناول مضطر عالم بقذارته ، ويرى ان إدخاله نفسه كدخول المستراح ، ويتحقق أن نسبة الانسان الى الفواكه والثمار نسبة الجعل الى الروث ، فلو نطق الشجر لقال لك: أنت تأكل فضالتي كما يأكل الجعل فضالتك ، والخنزير إذا استطاب لفاظة الانسان فما هو إلا كاستطابتنا لفاظة الشجر ، وبهذا يعلم ان شرف المطعم والمشرب بالاضافة ، لا بالاطلاق ، فألق ايها الانسان عن مناكبك الدثار وحل البصيرة واستعمل الاعتبار تجد صدق ما قلت ، ومن تناول من الطعام أكثر من ذلك كره له طباً وشرعاً،

أما طباً:

فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (البطنة أصل الداء، والحمية أصل الدواء) وعود كل بدن ما اعتاد،

وقال ابن زكريا المتطبب : ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم من الطب شيئاً إلا وأتى به في هذه الكلمات الثلاث ، وأما شرعا: فقد قال صلى الله عليه وسلم: (ما من وعاء أبغض الى الله من بطن مليء من حلال)، وذلك ان امتلاء البطن مقوم للشهوة ، وتقوية الشهوة داعية للهوى ، والهوى أعظم جند للشيطان . ومن آثر هواه انتشر في بدنه وحل في كل عضو منه خرق بقدر وسعه له فكثر جنود الشيطان ، والشيطان إذا تسلط على الانسان سباه من ربه ، وصرفه من بابه . وقيل لحكيم ما بالك مع كبرك لا تتفقد بدنك ، وقد انهدّ؟ فقال: لأنه سريع المرح ، فاحش الأثر ، فأخاف أن يجمح بي فيورطني ، ولئن أحمله على الشدائد أحب اليّ من أن يحملني على الفواحش،

والضرب الثاني من المطعم: ما يستغنى عنه ، ولو توهمناه مفقوداً لم يختلّ بافتقاده البدن ، وأعظمها ضرراً المسكر فنفعه ليس بضروري : «إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ»[1]وقيل: حيث الشراب واللهو لا تسكن الحكمة والعفة ، فان قيل فقد قال الله تعالى: « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ»[2] فلم يخص من الحلال قدراً دون قدر ، وجنساً دون جنس ، قيل : الطبيب التام هو الذي جمع بين اللذة والنفع والفضيلة ، وذلك هو القدر المتبلغ به على ما يجب وكما يجب ، ألا ترى كيف ذم من لم يكن ذلك قصده فقال تعالى:«ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟

١ ـ المائدة ٩١

٢ ـ الأعراف ٣٢

وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ»[1] وقال تعالى: « وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ»[2]ومن الدلالة على خسة كثرة الأكل، ادعاء العامة الاستغناء بالقليل، وقلة وجود المفتخر بكثرة الأكل. وقيل: مَنْ هِمَّتُه ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها ، وقد استحسن قول الشاعر:

فانك مهما تعط بطنك سؤله * وفرجك الا غاية الذم أجمعا

وقال صلى الله عليه وسلم: (حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان أبيت فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس)، وقال عليه الصلاة والسلام: (المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء) فنبه من الخبرين انه لا يستحب للانسان إلا الأكل في ثلث بطنه ، وهو ما ذكره من اللقيمات وذلك دون عشر لقيمات، لأن الجمع بالألف والتاء فيما دون العشر، ثم رخص لمن يغلب عليه النهم أن يبلغ الى ثلث بطنه، فحصل من ذلك أن يكون أكل المؤمن في اليوم بحسب شبع بطنه ثلثه.

الباب الثاني عشر
﴿ فيما يحسن من المنكح وما يقبح منه ﴾

قد تقدم ان النكاح ضروري في حفظ النسل وبقاء النوع ، كما أن الغذاء ضروري في حفظ الشخص ، ولذلك قال صلى الله عليه

١ ـ الحجر ٣
٢ ـ محمد ١٢

وسلم: (تناكحوا تناسلوا تكثروا فاني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، وقال: خير النساء الودود الولود، وقال: (سوداء ولود خير من حسناء عقيم) ولقصد النسل حظر اتيان النساء في محاشها وعلى هذا نبه قوله عز وجل: «نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لكم فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ»[1] فنبه على انه لا يجوز اتيانها إلا في المحرث، وكره العزل توكيداً للمقصود من الجماع، وعلى ذلك دل قوله عز وجل: «وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ»[2]

وتحري النكاح على ضربين أحدهما: على الوجه الذي سنه الشرع، وذلك إما محمود وهو أن يتعاطاه قاصداً به النسل، أو مزيلاً على ما يجب لوجعه، أو مسكناً لنفسه، فالماء إذا اجتمع في مقره يدعو صاحبه الى ما هو في الشرع محرم أو مكروه طبا، ان لم يكن قد كره شرعاً، وذلك أن يتعاطاه المرء فضلاً عما تقدم ذكره، فانه ينفذ العمر ويستنفذ القوى، ويوسع أوعية المنى، ويجلب اليها دماً كثيراً، ويزيده شهوة وأعظم فائدة فيه أن يلحق صاحبه بأفق البهائم من الجاموس والثيران، ونحوها مما يوصف بالشبق.

والضرب الثاني: هو أن يكون على غير الوجه المشروع وذلك ضربان:

أحدهما تعاطيه في المحرث ولكن لا على الوجه الذي يجب وكما يجب كالزنا وقد عظم الله عز وجل أمره فقال: «ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ»[3] ومرة قرنه بالشرك

---

١ - البقرة ٢٢٣

٢ - البقرة ١٨٧

٣ - النور ٣

وقتل النفس المحرمة فقال عز وجل: « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما»(١) وسمى ذلك سفاحاً من حيث أن المجتمعين عليه لا غرض لهما سوى سفح الماء للشهوة، كمن ضيع مالا في غير حرثه .

والثاني: تعاطيه في غير المحرث كاللواطة، وهي أعظم من الزنا لأن الزنا وضع البذر في المحرث على غير الوجه المأمور به ، فهو كمن يزرع في أرض غيره ، أو على غير الوجه الذي يجوز أن يزرع فيها ، وفي اللواطة مع ذلك تضييع البذر فمتعاطيها ممن قال عز وجل فيه: «وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ»(٢) ولهذا وصف الله تعالى قوم لوط بالاسراف فقال: « أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ »(٣)

وأما العشق الشهوي فحمق وجهل بما وضع لأجله الجماع وتجاوز حد البهائم في عدم ملكة النفس، وذم الهوى لأن المتعشق لم يرض بارادة لذة الباه التي هي من أسمج الشهوات حتى أرادها من موضع واحد ، فازداد بذلك عبودية وذلة على ذلة ، والبهيمة أحسن حالاً منه، لأنها إذا أسقطت الأذى عن نفسها بالسفاد، سكنت فصارت الى الراحة ، وهو لم يرض بذلك حتى استعان بالعقل في خدمة الشهوة واستحلائها ، وإنما أعطاه العقل ليقمع به الشهوة القبيحة لا ليجعله خادماً لها وساعياً في حقها ، وتعاطي العشق حال كل

---

١ ـ الفرقان ٦٨
٢ ـ البقرة ٢٠٥
٣ ـ الاعراف ٨١، النمل ٥٥

جاهل فارغ سيا إذا نظر في أحوال العشاق وجالسهم ، وربما يؤدي الحال العشاق الى الرق والذبول بل الى الموت قال:

لــو فكر العــاشـــق في منتهى * معشوقــه قصرعن عشقــه

ومن أراد شقوته فهو كمن يثير بهائم عارية ، وسباعاً ضارية ، ثم يلتمس دفاعها والخلاص منها ، وكفى بما يهتاج من باعث الطبيعة عن إثارتك بالفكرة والروية، فمن أعـان الطبيعـة على ذلك كان كما قيل:

كلما ركــب الزمــان قناة * ركب المرء في القنــاة سناناً

وقال حكيم لتلميذ له هوي جارية: هل تشك في انك تفارقها يوماً ما ؟ قال نعم قال : فاجعل ذلك المرارة المخترعة في ذلك اليوم في يومك هذا وارتج ما بينهما من هول اليوم المنتظر وصعوبة ذلك بعـد الاستحكام وانضمام الالفـة اليه ، وقيل لبعض الحكماء ما العشـق؟ فقال : جنون لا يؤجر صاحبه عليه ، وسئل آخر عنـه فقـال: مرض نفس فارغة لا همة لهـا ، وقـال آخـر هو اختيار صادق نفسـاً فارغـة فأشاروا كلهم الى معنى واحد .

الباب الثالث عشر

﴿ العفة ﴾

العفة لا تتعلق إلا بالقـوّة الشهـوية لا بالملاذ الحيوانية ، وهـي المتعلقة بالغارين البطن والفرج دون الألوان الحسنة، والألحان الطيبة

والأشكال المنتظمة. فان قيل: فاستطابة الرائحة قد تكون للبهائم ألا ترى ان الذئب يستطيب ريح الغنم ، والكلب يستطيب ريح الأرنب ، وقيل : استطابتها لذلك استطابة للأكل ، والذي قلناه من الرائحة هو ما يستطاب لذاته لا لأجل غيره ، وما هو لأجل أحد الغارين فحكمه حكمهما ، كاستطابة الانسان ريح السكباج ،

فثبت أن العفة هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية، وهي الحالة المتوسطة بين افراط هو الشره، وبين تفريط هو جمود الشهوة، وهي أس الفضائل من القناعة والعفة والزهد وغنى النفس والسخاء ، وعدمها يغطي على جميع المحاسن ويعري من لبوس المحامد ، ومن اتسم بسمة العفة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل وسهلت له سبيل الوصول الى المحاسن ،

وأسها يتعلق بضبط القلب عن الشهوات البدنية ،وعن اعتقاد ما يكون جالباً للبغي والعدوان ،

وتمامها يتعلق بحفظ الجوارح ، فمن عدم عفة القلب والعقل يكون منه التمني وسوء الظن اللذان هما أس كل رذيلة ، لأن من تمنى ما في يد غيره حسده ، فاذا حسده عاداه، وإذا عاداه نازعه ، ومن نازعه ربما قتله ، ومن أساء الظن عادى وبغى وتعدى ، ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عنهما جميعاً فقال: « وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ »(1) وقال: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ

1 ـ النساء ٣٢

ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ »[1] فامر فيهما بقلع أصل شجرتين يتفرع عنهما جل الرذائل ، ولا يكون الانسان تام العفة ، حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر ،

فمنْ عَدَمها في البصر مَدُّه العين الى المحارم وزينة الحياة الدنيا المولدة للشهوات الرديئة.

ومن عَدَمها في السمع ، الاصغاء الى المسموعات القبيحة وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبها في شيء مما يخص كل واحد منها إلا فيما يسوغ فيه العقل والشرع دون الشهوة والهوى.

واعلم انه لا يكون المتعفف عفيفاً إلا بشرائط وهي : أن لا يكون تعففه عن الشيء انتظارا لأكثر منه ، أو لأنه لا يوافقه أو لجمود شهوته أو لاستشعار خوف من عاقبته ، أو لأنه ممنوع من تناوله ، أو لأنه غير عارف لقصوره فان ذلك كله غير عفة بل هو اصطياد أو تطبب أو مرض أو خرم أو عجز أو جهل . وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عن الغضب ، والشهوة مغتالة مخادعة . والغضب مغالب ، والمنحسر عن قتال المخادع أدرأ حالا من المنحسر عن المغالب . ولهذا قيل : عبد الشهوة أذل من عبد الرق ، وأيضاً فالشره قد يجهل عيبه فهو شبيه بمدينة لها ستة أبواب رديئة يتعاطونها وهم يعرفون قبحها وليس من تعاطى قبيحاً يعرفه كمن تعاطاه وهو يظنه حسناً.

---

١ ـ الحجرات ١٢

الباب الرابع عشر
﴿ القناعة والزهد ﴾

القناعة: الرضا بما دون الكفاية . والزهد: الاقتصار على الزهيد أي القليل، وهما يتقاربان ، لكن القناعة تقال اعتباراً برضا النفس ، والزهد يقال اعتباراً بالمتناول لحظ النفس ، وكل زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهد لا زهد ، ولذلك قال بعض الصوفية: القناعة أول الزهد ، تنبيهاً على أن الانسان يحتاج أولا الى قمع نفسه والتخصص بالقناعة ليسهل تعاطي الزهد ، والقناعة هي الغنى في الحقيقة .

والناس كلهم فقراء من وجهين أحدهما: لافتقارهم الى الله عز وجل كما قال تعالى: « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ »[1] والثاني لكثرة حاجاتهم فأغناهم أقلهم حاجة ، فمن سد مفاقره بالمقتنيات فما في انسدادها طمع ، فهو كمن يرقع الخرق بالخرق ، ويسد الفقر بالفقر ، ومن سدها بالاستغناء عنها بقدر وسعه والاقتصار على ضرورياته فهو الغني والمقرب الى الله تعالى . كما أشار تعالى اليه فيما حكى عن طالوت: « إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بيده فَشَرِبُوا۟

١ ـ فاطر ١٥

مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ»[1] ولأن الغنى هو عدم الحاجة فأغناهم أقلهم حاجة، ولذلك كان الله سبحانه أغنى الأغنياء، لأنه لا حاجة به الى شيء وعلى هذا نبه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (ليس الغنى من كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس). ومن أبيات الحكمة:

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة * فان زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً

والمخير بين أن يستغني عن الدنيا، وبين أن يستغني بها، كالمخير بين أن يكون مالكاً أو مملوكاً ، وقوياً أو ضعيفاً ، ومعافى أو مبتلى ، وميتاً أو حياً . فمتى اختار الاستغناء بها فقد اختار أن يكون مملوكاً وضعيفاً وميتاً ومبتلى ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش) وقيل لحكيم لم لا تغتم ؟ فقال: لأني لم أجد ما يغمني.

واعلم أن الزهد ليس من ترك المكاسب في شيء ، كما توهمه قوم أفرطوا حتى قربوا من مذهب المانوية والبراهمة والرهابنة، فان ذلك يؤدي الى خراب العالم ، ومضادة الله عز وجل فيما قدر ودبر ، وقد تقدم.

والزهد من وجه صبر ومن وجه جود .

والجود ضربان : جود بما في يدك متبرعاً . وجود عما في يد غيرك متورعاً . وذلك أشرفهما ، ولا يحصل الزهد في الحقيقة إلا لمن يعرف الدنيا ما هي ، ويعرف عيوبها وآفاتها ويتحقق ما يستغنى عنها ويعرف الآخرة ، وافتقاره اليها ، ولأجل انه لا بد في ذلك من العلم قال تعالى:

---

١ - البقرة ٢٤٩

« قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ »[1] ولأن الزاهد في الدنيا راغب في الآخرة فهو يبيعها بها، ثم قال تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ»[2] ومحال أن يبيع كيس عينا بأثر إلا إذا عرفها عارف وعرف فضل المبتاع على المبيع . وقيل لبعض الزهاد ما أزهدك وأصبرك ؟ فقال أما زُهْدى فرغبة فيا هو أعظم مما هو أعظم مما أنا فيه ، وأما صبري فلجزعي من النار.

الباب الخامس عشر
﴿ الورع ﴾

الورع: أصله جبن وضعف، وقد يستعمل في كل واحد منهما لكن ، جعل في عرف الشرع لترك التسرع الى تناول أعراض الدنيا وذلك على ثلاثة أضرب:

واجب: وهو الاحجام عن المحارم ، وذلك للناس كافة.
ونَدْب: وهو الوقوف عن الشبهات وذلك للأواسط،

وفضيلة: وهو الكف عن كثير من المباحات والاقتصار على أقل

---

١ ـ القصص ٧٩ - ٨٠
٢ ـ التوبة ١١١

الضرورات ، وذلك للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وقد قال صلى الله عليه وسلم: (لا يكون العبد من الصالحين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس) وقال باعتبار المنزل الثاني لما قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم (ما أيسر الورع اذا شككت في شيء فدعه) .

الفصل الرابع
﴿ فيما يتعلق بالقوى الغضبية ﴾

الباب الأول
﴿ ما يتبع من القوى الغضبية ﴾

الحمية: قوة الغضب متى تحركت تحرك دم القلب فتولد منه ثلاثة أحوال ، وذلك لأنها إما تتحرك على من فوقه ، أو على من دونه ، أو نظيره ، فان كان ذلك على من فوقه ممن يظن انه لا سبيل له الى الانتقام تولد منه انقباض الدم وذلك هو الجزع . وإن كان على من دونه ممن يظن انّ له سبيلاً الى الانتقام منه تولد منه انقباض الدم ، وتردده بين الانقباض والانبساط وذلك هو الحقد ، ولكون الغضب والغم بالذات واحداً واختلافهما بالاضافة ، سئل ابن عباس رضي الله تعالى عنه فقال : مخرجهما واحد واللفظ مختلف ، فمن نازع قادراً عليه أظهره غضباً ، ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزناً ، ومنه قول الشاعر:

* فحزن كل أخي حزن أخو الغضب *

والانبساط: دم القلب للحقد يحمي وجهه تارة وذلك إذا كثر واشتد غضبه ، كنار في غار فيسود جوّه ، والانقباض دم الجزع عن ظاهر الجلد واجتماعه في القلب يصفرُّ وجههُ حتى ربما يهلك من ذلك ، والتردد دم الحقد بين هذه الأحوال يحمر ويصفر ويسود ، والحُرْدُ هو الغضب لكن يستعمل إذا كان معه قصد المغضوب عليه، ولذلك يقال: حرد حرد الأسد.

الباب الثاني
﴿ أنواع الصبر ومدحه ﴾

الصبر ضربان: جسمي ونفسي.

فالجسمي: هو تحمل المشاق بقدر القوة البدنية ، ونهايته المعلومة وأكثرها لذوي الجسوم الخشنة وليس ذلك لفضيلة تامة قال:

والصبر بالأرواح يعرف فضله * صبر الملوك وليس بالأجسام

وذلك في الفعل، كالمشي ودفع الحجر، وفي الانفعال كالصبر على المرض واحتمال الصرف والقطع ،

والثاني: نفسّي وبه تعلق الفضيلة، وذلك ضربان: صبر عن تناول مشتهى، ويقال له العفة ، وصبر على تحمل مكروه أو محبوب ، وذلك تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقعه ، فاذا كان ذلك في نزول مصيبة فانه مما استعد به اسم الصبر ، ويضاده الجزع والهلع والحزن، وإن كان في احتمال غنى فقد سمي ضبط النفس ويضاده (١) الدَّقَعْ والبَطَرْ

وان كان في محاربة سمي شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب، سمي حلماً، ويضاده التذمر ، وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة الصدر ، ويضاده ضيق الصدر والضجر والتبرم ، وإن كان في امساك كلام في الضمير سمي كتمان السر ، ويضاده الافشاء ، وإن كان في الامساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهداً ، وهذا يضاده الحرص والشره ، ولكون الصبر عاماً قال عز وجل: « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس»[1] فذكر انهم يصبرون في البأساء أي الفقر ، وفي الضراء أي المصيبة ، وحين البأس أي المحاربة ، قال بعضهم : يقال ضبط النفس في الأشياء الملذة ، والصبر يقال في الأشياء المحزنة، وقال بعضهم: بل هما من الأسماء المترادفة على معنى واحد ، إن قيل ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الصبر نصف الايمان)، قيل لما كان جميع المحامد ضربين . ترك الشر ويعبر عنه بالصبر ، وفعل الخير ويعبر عنه بالشكر . صار الصبر الذي هو ترك الشر نصف الايمان.

الباب الثالث
﴿ الشجاعة ﴾

الشجاعة :

إن اعتبرت وهي من النفس ، فصرامة القلب على الأهوال وربط

الجأش في المخاوف ، وإن اعتبرت بالفعل فالاقدام على موضع الفرصة ، وهي فضيلة بين التهور والجبن ،

وتولدها من الغضب والفزع إذا كانا متوسطين ، فان الغضب قد يكون مفرطاً ، كمن يحتدم سريعاً من أشياء صغيرة ، وقد يكون مفرطاً كمن لا يغضب على حرمه وشتم أبيه وأمه ، وقد يكون متوسطاً على ما يجب في وقت ما يجب وبقدر ما يجب ، وكذلك الفزع يكون مفرطاً فيتولد منه الجبن الهالع . ومفرطاً فيتولد منه الوقاحة والغمارة كمن لا يفزع من شتم أبيه وتضييع حرمه وأصدقائه ، وقد يكون متوسطاً كما يجب، وبقدر ما يجب ، لكونهما أعني الغضب والفزع على حالتين محمودة ومذمومة ، صارا يحمدان تارة ، ويذمان تارة ، فان الغضب في نحو قوله عز وجل: « وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ »[1] والفزع في نحو قول الشاعر: * غضبت لظلمه الخ. محمودان والتهور: هو الثبات المذموم في الأمور المعطبة.

وأنواع الشجاعة.

خمسة سبعية ، كمن أقدم لثور ان غضب وتطلب غلبة وبهيمية: كمن حارب توصلا الى مأكل أو منكح ، وتجريبية: كمن حارب مراراً فظفر فجعل ذلك أصلا يبنى عليه، وجهادية: كمن يحارب ذبا عن الدين ، وحكمية: وهي ما تكون في كل ذلك عن فكر وتمييز وهيئة محمودة بقدر ما يجب على ما يجب ، ألا ترى كيف يحمد من أقدم على كافر غضباً لدين الله ، أو طمعاً في ثوابه ، وخوفاً من عقابه ، أو اعتماداً

١ - الفتح ٦

على ما رأى من إنجاز الله تعالى وعده في نصرة أوليائه ، فان كل ذلك محمود ، وإن كان محض الشجاعة أن لا يقصد بالاقدام حَوْز ثواب ودفع عقاب . فقد قيل : مَنْ عَبَدَ الله بعوضٍ فهو لئيم ،

والفرق بين المقدم في الحرب لمحض الحكمة واخلاص الدين ، وبين المقدم لغير ذلك . أن المقدم لغير الحكمة والاخلاص يخاف الموت أكثر مما يخاف المذمة ، والمُقْدم للحكمة والاخلاص بالضد من ذلك فإنه يختار الموت الحميد على الحياة الذميمة . ولذلك قال عليّ رضي الله تعالى عنه : أيها الناس إن لم تُقْتلوا تموتوا، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على فراش.

ومن الشجاعة المحمودة: مجاهدة الانسان نفسه أو غيره ، وكل واحدة منهما ضربان : مجاهدة النفس بالقول ، وذلك بالتعلم . وبالفعل، وذلك بقمع الشهوة وتهذيب الحمية . ومجاهدة العين بالقول . وذلك بتعيين الحق وتعليمه . وبالفعل وذلكِ مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب.

الباب الرابع
﴿ أسماء أنواع الفزع والفرق بينهما وما يحمد منهما ويذم ﴾

الفزع والجزع إخوان ، لكن الفزع ما يعتري الانسان من الشيء الخفيق، والجزع ما يعتري من الشيء المؤلم ، والفزع لفظ عام

سواء كان عارضاً عن أمارة أو دلالة ، ومتى كان عن شيء يضر فهو الفرق والذعر ، ومتى كان الخوف محبوباً، فهو الاشفاق ولهذا قال تعالى حكاية عن أهل الجنة: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ»(1).

والخوف: توقع مكروه عن امارة، والخشية خوف يشوبه تعظيم المخشى مع المعرفة به، ولذلك قال تعالى: « مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ»(2)

والوجل: استشعار عن خاطر غير ظاهر ليس له أمان قال الله تعالى :«وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ »(3) الآية والرهبة مع تحرز واضطراب لتضمن الاحتراز قال تعالى: « وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ »(4)

والهيبة: رَهبة جالبة للخضوع عن استشعار تعظيم ولذلك يستعمل في كل محتشم قال الشاعر:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة * علي ولكن ملء عين حبيبها

وهذه الأشياء قد تذم باعتبار الأمور الدنيوية ، وتحمد باعتبار الأمور الأخروية ، قال الله تعالى: « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم»(5) وقال: «وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ »(6) وقال: «إِنَّمَا يَخْشَى

---

1 ـ الطور 26
2 ـ ق 33
3 ـ المؤمنون 60
4 ـ البقرة: 4
5 ـ الحج 35
6 ـ البقرة 40

ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ »[1] .

والخوف من الله تعالى ليس يشارُ به الى ما يخطر في البال من الرعب ، كاستشعار الانسان الرعب من الأسد . وإنما يشار به الى ما يقتضيه الخوف، وهو الكف عن المعاصي ، ولذلك قيل : لا تعدن جائعاً من لا يترك الذنوب وقال تعالى: «إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ»[2] أي لا تفعلوا ما يقتضيه الخوف منه وافعلوا ما يقتضيه خوفي ، إن قيل كيف مدح المؤمن بالحزن والخوف مع قوله :«أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ »[3] قيل : أما الممدوح فهو مقتضاهما ، وذلك باقامة العبادات ، وأما المنفيان عنهم ، فهما اللذان يكونان من الأشرار .

الباب الخامس
﴿ مداواة الغم و إزالة الخوف ﴾

حق الانسان أن يعلم أن الدنيا جمة المصائب ، ريقة المشارب ، تثمر للبرية أضعاف البلية ، فيها مع كل لقمة غصة ، ومع كل جرعة شرقة ، فهي عدوة ومحبوبة ، كما قال أبو نواس

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ❁ له عن عدو في ثياب صديق

---

١ - فاطر ٢٨
٢ - آل عمران ١٧٥
٣ - يونس ٦٢

وكما روي عن الحسن انه قال : ما مثلنا مع الدنيا إلا كما قال كثير:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة * لدنيا ولا مقلية ان تقلت

فما أحد فيها إلا وهو في كل حال غرض لاسهم ، ثلثه سهم بلية ، وثلثه سهم رزية ، وثلثه سهم منية.

تناضله الآفات من كل جانب * فتخطأه يوماً ويوماً تصيبه

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقد محبوب ، أو فوت مطلوب ، ولا يسلم منهما انسان لأن الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد ، فمن أحب أن يعيش هو وأهله وأحبابه فهو غير عاقل لأنه يريد أن يَمْلك ما لا يُمَلّكْ ، ويوجد له ما لا يوجَد ، فحق المرء أن يخلي قلبه من اعتبار ما يرى من الارتجاع لودائعها من أربابها ، وحلول تواذعها بأصحابها ، وما أحسن قول ابن الرومي :

ألم تر رزء الدهر من قبل كونه * كفاحاً إذا فكرت في الخلوات

فما لك كالمرمي من نائل له * بنبل أتته غير مرتقبات

فان قلت مكروه أتى فجأة به * فما فوجئت نفس مع الخطرات

ولاعوقبت نفس بسلوى وقد رأت * عظات أتتها ثم بعد عظات

إذا بعثت أشياء قد كان مثلها * قديماً فلا تعتدها بغتات

ثم من حقه أن يقلل من اقتناء ما يورثه الحزن ، فقد قيل لحكيم لم لا تغتم ؟ فقال : لأني لم أقتن ما يغمني فقده ، فقد أخذه من الشاعر حيث قال :

فمن سره أن لا يرى ما يسوءه * فلا يتخذ شيأ يخاف له فقداً

وقيل لحكيم هل للانسان أن يعيش آمناً؟ قال: نعم إذا احترس من الخطيئة وقنع بحلاله ، ولم يحزن لما هو واقع به لا محالة.

واعلم ان الجزع على ما فات لا يلد ما يشعث، ولا يبرم ما انتكث كما قال * وهل جزع أحد عليّ فاجزعا *

فأما غمه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه: . اما في شيء ممتنع كونه ، أو واجب كونه ، أو ممكن .

فان كان على ما هو ممتنع كونه ، فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبل الواجب كونه كالموت الذي هو حتم في رقاب العباد ،

وإن كان ممكناً كونه، فان كان من الممكن الذي لا سبيل الى دفاعه كإمكان الموت قبل الهرم . فالحزن له جهل واستجلاب غم الى غم ،

وإن كان من الممكن الذي يصح دفعه، فالوجه أن يحتال الى دفاعه بفعل غير مشوب بحزن فان دفعه وإلا تلقاه بصبر ، وليتحقق قوله عز وجل: « مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ »[1] فمن علم أن ما جرى في حكمه وسبق في علمه لا سبيل الى أن لا يكون هانت عليه النوب.

واعلم أن الذي يغر الناس حسن ظنهم باغترار الآفات، واغترارهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات ، ولو تأملوها لتحققوا انها

١ ـ الحديد ٢٢

كما قال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه: ما قال الناس لقوم طوبى لكم إلا وقد خبأ الدهر لهم يوم سوء ، شعر:

إن الليالي لم تحسن الى أحد * إلا أساءت اليه بعد إحسان

وأما سبب الاغتمام بالموت فلا ينفك من أربعة أوجه .

إما لشهوة بطنه وفرجه أن تفوت.

وإما على ما يخلفه من ماله .

وإما على جهله بماله .

وإما خوفاً مما قدمه من عصيانه .

فإن كان ذلك لخوفه على شهوة بطنه وفرجه أن تفوت، فليعلم ان ذلك كمشته داء ليقابله بداء مثله ، فان الانسان لا يستلذ بالطعام حتى يجوع ، والجوع داء مهروب منه وشبعه داء مهروب منه ، فمثل من يحب الجوع ليستطيب بعده الأكل ، كمن يستطيب القعود في الشمس لينال الحرّ ، ثم يستطيب القعود في الظل ، فمحبة ذلك رقاعة لا تحدّ ولا تعد.

وإن كان ذلك على ما يخلفه من ماله، فذلك لجهله بخساسة الأعراض الدنيوية، وكونها تجمع كل بلية وبنفاسة الأملاك الحقيقية التي وعد المتقون بها.

وإن كان لجهله بما له فلعدم مداولته العلم والمعرفة الحقيقية التي تريه حال ما للانسان بعد الموت، كما قال حارثة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : كأني أنظر الى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون، والى أهل النار يتعاوون فيها.

وإن كان خوفاً لما قدمه من عصيانه فدواؤه المبادرة بالتوبة وكفاه إن كان ذا بصيرة ما جعله الله له سبيلاً من تدارك ما فرط منه وما وعد التائبون.

الباب السادس

﴿ أحوال الناس في محبة الموت والاحتيال لقلة المبالاة به ﴾

الناس في ذلك على ثلاثة أضرب:

الأول: حكيم يعلم أن الحياة تسترقه والموت يعتقه، وان الانسان في هذا العالم وإن طال فيه لبثه فهو لحظة برق لمعت في آفاق السماء، ثم عادت للاختفاء، وانه في دنياه كمبعوث الى ثغر يحوطه وبلد يسوسه، يراعي ما استرعى ويسر بدعائه إذا دعي، ولا يكاد يود خروجه منها إلا بقدر ما يفوته من خدمة ربه والازدياد من تقربه والاشفاق مما يقول، ويقال له كما قال بعض الصالحين، وقد رؤي منه جزع عند الموت فقال: جزعي أن أسلك طريقاً لم أعهده، وأقدم على رب لم أره، ولم أدر ما أقول وما يقال لي.

الثاني: والناس رجُلٌ ألف هذا العالم وإن كرهه، فسبيله سبيلُ من ألف بيتاً مظلماً قذراً ولم ير غيره، فهو يكره الخروج منه وإن كان قد كره دخوله فيه كما قال:

دخلنا كارهين لها فلما * ألفناها خرجنا مكرهينا

ومـــا حب البـــلاد بنـــا ولكن * أمـر العيش فرقـة من هوينا

وحقٌ ما قيل : لو رضي الناس بأرزاقهم رضاهم بأوطانهم ، لما شكا أحدٌ فقره ، فهـذا متـى خرج من دنياه ، واطلـع على ما أعـد للصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر،سُرَّ بخلاصه كما حكى الله سبحانه وتعالى عمن استقربه القـرار في جنـة النعيم حيث قالوا: « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ »(1)

والثالث: رجل أعمى البصيرة متلطخ السريرة عما ارتكبـه من أنواع الجريمة رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها ، ويئس من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، فاذا خرج منها الى دار الخلود أضر ذلك به * كما تضر رياح الورد بالجعل ، فاذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالـم العـلا في مصاحبـة الملأ الأعلى ومنادمـة أولي العـلا فيعمى ، كما قال تعالى: « وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ »(2) ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر). فان من تربـى في هذا العالـم بغذائـه من العلـم والعمـل الصالح جدير بأن لا يشتاق اليه بعد خروجه منه ، وإن خرج كارهاً كما لا يشتاق الى بطن أمه بعد الخروج منه . ويدلك على انه خرج من بطن أمه كارهاً بكاؤه قال بعض العلماء: أول ما يسئل الصبي عن غمه عند سقوطه لما يضغطه من مضيق خروجه ويصيبه من ألـم الهواء فيتوجع ،

---

١ ـ فاطر ٣٤

٢ ـ الاسراء ٧٢

والوجع يورثه الغم والغم يحمله على البكاء ، وقال: ان للصبي كل ما يكون للحيوان غير التعلق بالألم واللذة والجوع والعطش ، وقال ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها * يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وانها * لأفسح مما كان فيه وأرغد

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما أحد إلا والموتُ خير له من الحياة، لأن الله تعالى قال في الأخيار: «وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لِّلۡأَبۡرَارِ»[1] وقال في الأشرار: «إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗا»[2] وقيل : الصالح إذا مات استراح من الدنيا ، والطالح إذا مات استراحت منه الدنيا ، قال بعض الصالحين : من قال لغيره صانك الله من نوب الأيام وصروف الزمان فانه يدعو عليه بالموت ، لأن الانسان لا ينجو من ذلك إلا بعد خروجه من دار الكون والفساد . وقال بعض الصوفية ، حق ملك الموت أن يحبه المسلم من بين الملائكة، فانه يفصل حياته الأبدية من حياته البدنية، ولهذا أمرنا أن نقول في دعائنا : اللهم صل على جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ، وان جبريل ومكائيل سبب لانبائنا من ذلك العالم بما فيه خلاصنا من دار الكون والفساد ، فاذن حقه عظيم وشكره لازم.

وقد حكي أن قوماً من الأوائل كانوا يعظمون زُحَلْ، وقالوا: انه لا يعين على الحياة العرضية ، بل هو سبب إنقاذنا من الدنيا الدنية.

---

١ ـ آل عمران ١٩٨
٢ ـ آل عمران ١٧٨

وقال بعض الأولياء في مناجاته: إلهي إن سألتك الحياة في دار المات فقد رغبت في البعد عنك ، وزهدت في القرب منك ، فقد قال نبيك وصفيك : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، وقال بعضهم : إنْ كان في قلة الحياة الدنيوية غنى ففي انقطاع الحاجة كلها الغنى الأكبر ، ولا انقطاع لها إلا بمفارقة الدنيا التي هي سبب فاقتنا والعبودية لغير الله تعالى ، وقبيح بالعاقل صحبة الفاقة والتخصص بعبودية غير رب العزة ، والموت سبب نقص ذلك الانسان ، ومن رغب عن كماله فهو من الذين خسروا أنفسهم ، ومن كره الموت أخرج من الدنيا كارهاً فيكون كعبد آبق ردّ الى مولاه مأسوراً ، وقيد الى حضرته مقهوراً ، وشتان ما بين عبد دعاه مولاه فأتاه طوعاً ، وعبد آبق أسر فأتى به قسراً وحق العاقل أن يكثر من ذكر الموت، فذكره للموت لا يقرب أجله ، ويفيده ثلثي القناعة بما رزق والمبادرة بالتوبة والنشاط في العبادة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : (أكثر واذكر هاذم اللذات، فانه ما ذكره أحد وكان في ضيق إلا وسعه عليه ، ولا في سعة إلا ضيقها عليه). وقيل ذكر الموت يطرد فضول الأمل، ويكف عرق المنا فيهون المصائب، ويحول بين الانسان والطغيان .

الباب السابع
﴿ السرور والفرح ﴾

السرور: انشراح الصدر بلذة فيها طمأنينة الصدر عاجلاً

وآجلاً وذلك في الحقيقة لا يكون إلا إذا لم يخف زواله ، لا يكون إلا في القنيات الأخروية ، ولذلك قيل : لا سرور في الدنيا على الحقيقة ،

والفرح: انشراح الصدر بلـذة عاجلـة غـير آجلـة، وذلك في اللذات البدنية الدنيوية ولهذا قال عز وجل: « لـكيلا تأسـوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»[1] والفرح يدعو الى النشاط والنشاط الى المرح، والمرح الى الأشر، والأشرمقدمة البطر ، وأكثر ما يحدث ذلك في الأحداث والصبيان يقدر ما يغلب عليهم من الغفلة ، وقد ذمه سبحانه وتعالى بقوله: « وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَـا »[2] وقـال: « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ»[3]وقال تعالى: « ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ»[4] وقال تعالى: « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »[5]

وقد يسمى الفرح سروراً والسرور فرحاً، لكن على نظر من لا يعتبر الحقائق ويتصور أحدهما بصورة الآخر، ولذلك قيل من طلب السرور كان خارجاً منه لم ينله.

الباب الثامن
﴿ العذر والتوبة ﴾

المذنب إذا عوتب أو خاف العنف لا ينفك عن وجهين :

---

١ ـ الحديد ٥٧
٢ ـ الرعد ٢٦
٣ ـ القصص ٧٦
٤ ـ غافر ٧٥
٥ ـ المؤمنون ٥٣

أما أن يكون مصراً ، أو معتذراً .

فأما المصر فقد يستحسن في بعض الأحوال التجافي عنه ، وقد سمع رجل حكيماً يقول : ذنب الاصرار أولى بالاعتفاء ، فقال : صدق ليس فضل من عفا عن السهو القليل ، كفضل من عفا عن العمد الجليل .

وأما المعتذر: فهو المظهر لما يمحو به الذنب وجميع المعاذير لا تنفك عن ثلاثة أوجه:

إما أن يقول: لم أفعل.

أو يقول: فعلت لأجل كذا فبين ما يخرجه عن كونه ذنباً .

أو يقول: فعلت ولا أعود ، فمن أنكر وأنبأ عن كذب ما نسب اليه فقد برئت ساحته ، وإن فعل وجحد فقد يعد التغابي كرماً ، وإياه قصد الشاعر بقوله

تغابي وما بك من غفلة * لفرط الحياء وفضل الكرم

ومن أقر فقد استوجب العفو لحسن ظنه بك ، قال بعض البلغاء: تجاوز عن مذنب لم يسلك بالاقرار طريقاً حتى أخذ من رجائك رفيقاً ، وإن قال فعلت ولا أعود فهذا هو التوبة ، والانسان حقه أن يقتدي بالله في قبولها .

وللتوبة شرائط فرضاً ونفلاً .

ففرضها: ترك الذنب مع عدم العود اليه ،

ونفلها: التأسف لما سلف من الذنب والاستغفار له ، وترك

بعض المباحات مقابلة لما فات من العصيان .

واعلم أن للمذنب التائب إذا تاب توبة نصوحاً فضيلة على من لم يذنب من ثلاثة أوجه :

الأول: لأنه جرب العيوب والذنوب ، وعرف مداخل الشيطان على الانسان ، فيكون أهدى الى الاحتراز فقد قيل لحكيم : فلان لا يعرف الشر ، فقال : ذاك أجدر أن يقع فيه ،

والثاني: أن المذنب التائب محتشم قد غلب الخوف على قلبه فيأتي مولاه خزياناً منكسراً ، ومن لم يذنب ربما يعجب بنفسه ، ويذل بفعله وليس خدمة عبد عصى ملكاً وخرج عليه خارجياً، ثم عاد اليه وجلا فتجوفي عنه كخدمة مدل بطاعته ،

والثالث: ان التائب حلب الدهر بشطريه خيره وشره وحلوه ومره فهو أرفق بالمذنبين ، وأوفق لهم وأصلح للرياسة ممن يظن ان الذنب خارج عن الطبيعة الانسانية فيعجب بنفسه ويزري بغيره .

الباب التاسع
﴿ الحلم والعفو ﴾

الحلم: إمساك النفس عن هيجان الغضب .

والتحلم: إمساكها عن قضاء الوطر منه إذا هاج ، ولما كان الحلم عن تأثير العقل وغير منفك عنه صار يعبر به عن كل عقل ظهر فعلاً

كقوله عز وجل في ذم الكفار على سبيل التعجب منهم: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ»[1] ومتى استعمل الحلم في البارىء تعالى فانما يراد العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال يعرض له ، ولن يتم حلم الانسان إلا بامساك الجوارح كلها ، اليد عن البطش، واللسان عن الفحش ، والعين عن فضولات النظر ، وأقرب لفظ يستعمل في ضد الحلم التذمر،

وأما العفو والصفح: فهما صورتا الحلم ومخرجاه الى الجود فالعفو ترك المؤاخذة بالذنب ، والصفح ترك التثريب ، واشتقاقه من تجاوز الصفحة التي أثبت فيها ذنوبه أي الاعراض بصفحة الوجه عن التلفت الى ما كان منه ، وهو محمود إذا كان على الوجه الذي يجب، فقد قال تعالى: «فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ»[2] فحض تنبيهاً على ما يحمل منه،وقد حث الله تعالى على ذلك بقوله :«وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ»[3] فأمر بالحلم والعفو وقال تعالى:«وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ»[4] وقال تعالى: «فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ»[5] وقال: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ»[6] والعفو إنما يستحب فيما إذا كانت الإساءة مخصوصة بالعافي كمن أخذ ما له أو شتم عرضه. فأما إذا كانت الإساءة عائدة بالضرر على الشرع ، أو على جماعة الناس، فانه إن كان فيها أدنى شبهة فللسلطان العفو ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (ادرؤا الحدود بالشبهات) ، فان لم تكن ذات شبهة فليس عفواً ، ولذلك قال

١ ـ الطور ٣٢
٢ ـ الحجر ٨٥
٣ ـ آل عمران ١٣٤
٤ ـ النور ٢٢
٥ ـ المائدة ١٣
٦ ـ الشورى ٤٠

الله تعالى في الزنا: « وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ »[١]

وحق المعاقب أن لا يكون سبعاً في انتقامه بل لا يعاقب حتى يزول سلطان غضبه لئلا يقدم على ما ليس بواجب ،

ولذلك جرت سنة السلطان بحبس المجرم حتى ينظر في جرمه ويعيد النظر فيه ،

قال بعضهم ينبغي للسلطان أن يؤخر العقوبة حتى ينقضي سلطان غضبه ، ويعجل مكافأة المحسن ، ويستعمل الأناة فيما يحدث ، فتأخير العقوبة فيه إمكان العفو ان أحب ذلك ، وفي تعجيل المكافأة بالاحسان مسارعة الأولياء الى الطاعة ، أتى الاسكندر بمذنب فصفح عنه فقال : بعض جلسائه لو كنت إياك لقتلته فقال: فاذ لم أكن أنا إياك ولا أنت إياي فكيف قتله ، وانتهى الى بعض أصحابه فوجده يغتابه فقال بعض جلسائه: لو انهكته عقوبة ، فقال : اذن أبسط عذرا ولساناً في اغتيابي.

واعلم أن لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ، ولذة التشفي يلحقها ذم الندم والعقوبة ألأم حالات ذي القدرة وهي طرف من الجزع ، ومن رضي أن لا يكون بينه وبين الظالم إلا ستر رقيق فلينتصف،وقد نبه الله تعالى على ذلك بلطيف من المقال فقال:« وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا »[٢]

---

١ ـ النور ٢
٢ ـ الشورى ٤٠

فسمى مجازاة المسيء باساءته إساءة وقال تعالى: « فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ »[1] فسمى المجازي على الاعتداء معتدياً تنبيهاً على انه قد كاد يكون إياه ،

والعقوبات بين الناس أقبحها ما كان فيما لم يظهر بالفعل ، فقد قال بعض الملوك: إنما نملك الأجساد دون الضمائر، ونفحص عن الظواهر لا عن السرائر ، ثم من سلم ظاهره احتمل جرائمه ، فقد يهفو المرء وآيته سليمة، ويزل وطريقته مستقيمة .

الباب العاشر
﴿ ثوران الغضب وفضل كظمه ﴾

الغضب بمنزلة نار ما يشتعل ، والناس يختلفون فيه ، فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود ، وبعضهم كالغضي بطيء الخمود بطيء الوقود ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود ، وبعضهم بعكس ذلك وهو أحمدهم ما لم يكن مفضياً به الى زوال حميته وفقدان غيرته ، واختلافهم تارة يكون بحسب الأمزجة ، فمن كان طبعه حاراً يابساً يكثر غضبه، ومن يكون بخلافه يقل ، وتارة يكون باختلاف العادة في الناس من تعود السكون والهدوء وهو المعبر عنه بالذلول والهين واللين ، ومنهم من تعود الانزعاج والطيش فيحتد بأدنى ما يطرقه، ككلب يسمع صوتاً فينبح قبل أن يعرف ما هو .

---

١ ـ البقرة ١٩٤

وأكثر الناس غضباً الصبيان والنساء ، وأكثرهم ضجراً الشيوخ ، وأجل الناس شجاعة وأفضلهم مجاهدة وأعظمهم قوة من كظم الغيظ ، وعلى ذلك دل قوله عز وجل: «وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ»[1] وقال عليه الصلاة والسلام وقد مر بقوم يرفعون حجراً : (ألا أخبركم بأشدكم، من ملك نفسه عند الغضب).

واعلم أن نار الغضب متى كانت عتيقة تأججت واضطرمت واحتد منه غليان الدم في القلب وامتلأت الشرايين والدماغ دخاناً مظلماً مضطرباً يسوء منه حال العقل ويضعف به فعله ، فكما ان الكهف الضيق إذا ملىء حريقاً اختنق فيه اللهب والدخان وعلا منه الاجيج فيصعب علاجه واطفاؤه، ويصير كل ما يدنو منه مادة لقوته ، وكذلك النفس إذا اشتعلت غضباً عميت عن الرشد وصمت عن الموعظة فتصير مواعظة مادة لغضبه ، ولهذا حكي عن ابليس انه قال: متى أعجزني ابن آدم فليس يعجزني إذا غضب، فانه ينقاد لي في كل ما أبتغيه ويعمل بما أريده وأبتغيه ، وقيل الغضب: حزن ساعة وربما أدى الى تلف وهو اختناق حرارة في القلب، وربما كان سبباً لأمراض صعبة مؤدية الى التلف ، وأسباب العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاج والتيه والضيم والاستهزاء وطلب ما فيه التنافس وشهوة الانتقام ، وحق من اعترته غضبيته أن يتفكر فان كان المغضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطته إذ هو ممكن من الانتقام منه على سكون الجأش ، فان كان

---

١ ـ آل عمران ١٣٤

غضبه على من لا سبيل له فلا معنى لتعذيبه نفسه في الوقت بل حقه أن يصبر حتى يتمكن منه ثم يفعل بالواجب . وقال حكيم: سد طرس الغضب قبل تلهب ناره في لحمك ودمك، فانما يمكن اطفاؤها قبل انتشارها، فأما إذا انتشرت فلا سبيل الى إطفائها ، وقال سلطان لحكيم: كيف لي ان لا أغضب؟ فقال: بأن تكون كل وقت ذاكراً انه يجب أن تطيع لا أن تطاع فقط، وأن تخدم لا أن تخدم فقط ، وأن تحمل لا أن تحمل فقط ، وأن تتحقق بأن الله تعالى يراك دائماً، فاذا فعلت ذلك لم تغضب ، وإن غضبت غضبت قليلاً .

الباب الحادي عشر
﴿ الغيرة والجوار ﴾

الغيرة: ثوران الغضب حماية على إكرام الحرم، وأكثر ما يراعى في الحرم والنساء، وجعل الله سبحانه هذه القوة في الانسان سبباً لصيانة الماء وحفظاً للأنساب ، ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها ، وقد يستعمل ذلك في صيانة كل ما يلزم الانسان صيانته في السياسات الثلاث التي هي سياسة الرجل نفسه ، وسياسة منزله وأهله ، وسياسة مدينته وضيعته، ولذلك قيل: ليست الغيرة ذب الرجل عن امرأته ولكن ذبه عن كل مختص به ، وقيل الغيرة: الذب عن كل ضعيف، وتسمى كراهة النعمة عند من لا يستحقها غيرة ، والغيرة وان كانت قوة إنسانية فواجب كونها في كل جيل ، فقد كثرت في العرب، حتى ان من دخل دار أحدهم والتجأ الى

فنائه عدواً فعله حرمة وجواراً وذماراً، بل أن تعلق ذلك بالوحشيات والهوام حتى كان يسمون بذلك مجير الجراد، ومجير الغزال، ومجير الذئب ، وسمي الغضب المقتضي للغيرة الحفيظة فقالوا: أحفظني فلان أي أغضبني الغضب الذي أثار مني قوة الحفظ.

الباب الثاني عشر
﴿ الغبطة والمنافسة والحسد ﴾

الذي ينال الانسان بسبب خير يصل الى غيره على سبيل التمني أن يكون له مثله هو الغبطة ، وإن كان في ذلك سعي منه في أن يبلغ هو مثله من ذلك الخير أو ما فوقه فمنافسة ، وكلاهما محمود وإن كان مع ذلك يتمنى زوال ما بصاحبه من غير استحقاق لزواله فحسد،

والحسد: تمني زوال نعمة مستحقة من غير أن يكون طالباً ذلك لنفسه، ولذلك قيل: الحاسد قد يرى زوال نعمتك نعمة عليه ، قال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن يغبط والمنافق يحسد). فحمد الغبطة ، وقال تعالى: «وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ»[1] فحثنا على التنافس إذ هو الباعث لنا على طلب المحاسن وذلك كقوله تعالى: «سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ»[2] وقال صلى الله عليه وسلم : (ثلاثة لا ينجو منها أحد ، الظن والطيرة والحسد ، وسأخبركم بالمخرج من ذلك إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض ولا تستن ، وإذا حسدت فلا تبغ)،

١ ـ المطففين ٢٦
٢ ـ الحديد ٢١

أي إذا أصابك غم بخير يناله غيرك فلا تبغ إزالته عنه.

واعلم أن الحسد من وجه غاية البخل، لأن الحاسد يبخل بمال الله، والبخيل بمال نفسه، ولذلك قيل الحاسد بخيل بما لا يملكه، ومن وجه هو أظلم ظالم، لأنه يظلم غيره في إزالة حاله، ويظلم ربه فيما قدره، وقيل: الحسد والحرص ركنا الذنوب، ومنه نتج ذنب ابليس وآدم.. فابليس حسد آدم فصار لعيناً، وآدم حرص على ما نهى عنه فأخرج من الجنة، فهما شجرتان تجتني منهما سائر الرذائل، فمن قطع أسبابهما نجا.

إن قيل ما وجه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فجعله في حق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها) قيل: عنى بالحسد ههنا الغبطة، وقد تسمى بالحسد من حيث انهما الغم الذي ينال الانسان من خير يناله غيره ولا يناله هو، وعلى ذلك يقول الانسان لولده: لا تحسد فلاناً فيما يتعلمه أي لا تتمن حاله،

واعلم أن الحسد ضرب من الحماقة، لأن اغتمامه بما يناله ذووه وأهل بلده يقتضي انه ربما يغم بما يناله أهل الصين والهند، على أن الخير الذي يناله ذووه وأقاربه هو أنفع له مما يناله الأباعد.

الفصل الخامس
﴿ في العدالة والظلم والمحبة والبغض ﴾

الباب الأول
﴿ ذكر العدالة وفضيلتها ﴾

العدالة: لفظ يقتضي ذكر المساواة ولا يستعمل إلا باعتبار الاضافة، وهي في التعارف إذا اعتبرت بالقوة هيئة في الانسان يطلب بها المساواة، وإذا اعتبرت بالفعل، فهي القسط القائم على الاستواء، وإذا وصف الله تعالى بالعدل فليس يراد به الهيئة، وإنما يراد به أن أفعاله واقعة على نهاية الانتظام، والانسان في تحري فعل العدالة يكون تام الفضيلة إذا حصل مع فعله هيئة متنزه لتعاطيه، وقد يقع فعل العدالة من الانسان ولا يكون ممدوحاً به نحو أن يقسط مرآة، أو توصلا الى نفع دنيوي، أو خوف عقوبة السلطان.

والعدالة: تارة يقال هي الفضائل كلها، من حيث لا يخرج شيء من الفضائل عنها، وتارة يقال: هي أجمل الفضائل من حيث أن صاحبها يقدر أن يستعملها في نفسه وفي غيره، وهي ميزان الله المبرأ من كل زلة وبها يستتب أمر العالم ولذلك قال الله عز وجل: «ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ»[1] وقال: « وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ

١ ـ الشورى ١٧

ٱلْمِيزَانَ »[1] وعبر عن العدالة بالميزان إذ كان من أثرها ومن أظهر أفعالها للحاسة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (بالعدل قامت السماء والأرض) ، أي لو كان شيء من موجودات العالم وأصولها زائداً على الآخر، أو ناقصاً عنه لم يكن منتظماً هذا النظام ومن فضله ان الجور الذي هو ضده لا يتسبب إلا به، فلو أن لصوصاً تشارطوا فيما بينهم شرطاً فلم يراعوا العدالة فيه لم ينتظم أمرهم ،

ومن فضلها أن كل نفس تتلذذ بسماعها وتتألم من ضدها ، ولذلك يستحسن الجائر عدل غيره إذا رآه أو سمع به ، وقيل: العدل اتحاف الله . أي من حيث العدالة لا خوف عليه ولحسن العدالة والمساواة تتألم النفس من كل ما كان مركباً في العالم ليس له نظام ، فيكره العرج والعور ويتشاءم به ، ولتحري المساواة جعل الله أعضاء الانسان الواقعة في الأطراف زوجين اثنين، وفي الأوساط واحداً ، وللاقتداء بذلك تحرى النقاشون بازاء كل منقوش في جانب منقوشاً مثله في الآخر، لئلا تصير الصورة معوجة العدالة وسط أطرافها كلها جور ، فالجور: الخروج من وسط بزيادة أو نقصان، ولذلك صار الجور والخطأ بالاضافة الى العدل والصواب من حيز ما لا نهاية له.

والعدل والصواب من حيز المتناهي وإدراكها صعب عسر، ولصعوبة ذلك قال عليه أفضل الصلاة والسلام: (استقيموا ولن تحصوا) وتمدح سبحانه وتعالى بقوله: « وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا »[2] تنبيهاً على انه المتحقق بالعدالة والصواب من كل شيء، وقال بعض

١ الرحمن ٧

٢ - الجن ٢٨

الصوفية : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : له يا رسول الله بلغني أنك قلت شيبتني سورة هود وأخواتها فما الذي شيبك منها؟ قال: قوله تعالى: «فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ»[1] ولما كانت طريق الوصول عسرة صار طالبها إذا تحراها بجهده، وان أخطأ فيها معذوراً بل مأجوراً ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (من اجتهد فأخطأ فله أجر ومن اجتهد فأصاب فله أجران).

الباب الثاني
﴿ أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه ﴾

العدل ضربان : عدل مطلق يقتضي العقل حسنه، ولا يكون منسوخاً في شي من الأزمنة ولا يوصف بالجور في حال ، وذلك جذب الاحسان الى من أحسن اليك ، وكف الأذية عمن كف أذاه عنك.

وعدل مفيد: يعرف كونه عدلاً بالشرع ، ويمكن أن يكون منسوخاً في بعض الأزمنة، وذلك مقابلة السوء بمثله ، كأحوال القصاص ، وأرش الجنايات ، وأخذ مال المرتد . وهذا النحو يصح ان يوصف على المجاز في بعض الأحوال بالجور ، ولذلك قال عز وجل :«وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا»[2] فسمى جزاء السيئة سيئة من حيث انه لو لم يكن معتبراً بالسيئة المتقدمة كانت هي سيئة ، وعلى ذلك: « إن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ »[3]

---

١ ـ هود ١١٢
٢ ـ الشورى ٤٠
٣ ـ هود ٣٨

وبالنظر الى النوع الأول والاعتبار به ، قال بعض المتكلمين : يعرف العدل والجور بالعقل قبل الشرع .

وبالنظر الى الأول والاعتبار به قال بعضهم : لا يعرف إلا بالشرع ، وبالجملة ان الشرع مجمع العدالة، وبه تعرف حقائقها ولو توهمناه مرتفعاً لكان يؤدي الى أن لا يكون عدالة على الحقيقة في شيء من جزئيات الأفعال، ولا يكون في كثير من كلياتها ،

والعدالة المحمودة: هي التي تتحرى لا رياء ولا سمعة، ولا رغبة ولا رهبة، وإنما تكون عن تحر للحق عن سجية،

والذي يجب أن يستعمل الانسان معه العدالة خمسة:

الأول: بينه وبين رب العزة بمعرفة أحكامه

والثاني: من قوى نفسه وهو أن يجعل هواه مستسلماً لعقله فقد قيل أعدل الناس من أنصف عقله من هواه.

والثالث: بينه وبين أسلافه الماضين في إنفاذ وصاياهم، والدعاء لهم.

والرابع: بينه وبين معاملته من اداء الحقوق والانصاف في المعاملات من المبايعات والمقارضات والكرامات.

والخامس: بث النصيحة بين الناس على سبيل الحكم، وذلك الى الولاة وخلفائهم.

وأما أحكام العدل في الأرض فثلاثة : حاكم من الله تعالى وهو

الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والعامل والآمر به، وهو كل وال عدل ، والناض المعتبر به وأعلاه الدينار ومعناه بالفارسية الدين أورده ، والناض من وجه كالحاكم، ومن وجه كالآلة للمحاكم يعتبر إذا قيس عمل بعمل ،

ولما كانت الشريعة مجمع العدالة ومنبعها صار من امتنع من انتظامها والتزامها أظلم ظالم، ولهذا قال عز وجل: «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم الظالمين»(١) ولكون الكفر ظلماً قال عز وجل: «وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَاراً»(٢) فقابل المؤمن بالظالم.

الباب الثالث

﴿ ما يحسن ترك العدالة فيه ﴾

ترك العدالة أي الظلم عمداً مذموم في جميع الأحوال ، والخارج منها الى الظلم مستوجب بقدر خروجه عنها سخطاً من الله عز وجل، إلا أن يتغمده الله تعالى بعفوه،

وأما الخارج عنها الى الانظلام، أي إلتزام الظلم فقد يحمد،

والانظلام من حيث الكمية ثلاثة أضرب:

---

١ ـ الانعام ٤٤

٢ ـ الاسراء ٨٢

انظلام في المال وهو الاستخذاء للظالم في أخذ ماله. وانظلام في الكرامة وهو الاستخذاء في بخس منزلته من التعظيم. وانظلام في النفس وهو استخذاء لمن يؤمله، وكل واحد يكون محموداً ومذموماً.

ومن حيث الكيفية ضربان: محمود ومذموم،

فالمحمود: التغابن في حق له في المال، أو في الكرامة، أو في النفس بقدر ما يحسن وهو المعبر عنه بالانخداع، والتغافل الذي فيه العقل مكيال، ثلثه فطنة، وثلثاه تغافل، وإياه قصد معاوية رضي الله تعالى عنه بقوله: من خدعك فانخدعت له فقد خدعته، وقال الشاعر * ممن يغر على الثناء فيخدع * وذلك إذا كان في المال فمسامحة، وإذا كان في النفس فعفو، وإذا كان في الكرامة فتواضع،

وأما على الوجه المذموم ففي المال والرأي غبن، وفي النفس والكرامة هوان ومذلة، وقد تقدم ان الاحسان والافضال أشرف من العدالة إذا كان الحكم بينك وبين غيرك، وأما إذا حكمت بين اثنين فليس إلا العدالة، وإنما الاحسان الى المتحاكمين. ولهذا قال تعالى: «ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بِٱلۡعَدۡلِ»[1] وقال فيمن له الحق: «وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بينكم»[2].

وقال يحيى بن معاذ إصحبوا الناس بالفضل لا بالعدل، فمع العدل الاستقصاء واني لأرجو أن لا يحاسب عباده بالعدل وقد أمرهم

---

١ ـ النساء ٥٨

٢ ـ البقرة ٢٣٧.

أن يعامل بعضهم بعضاً بالفضل ، وقد عظم الله تعالى أمر الافضال والاحسان فقال: « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ »[١] قال: وهل يأمر الحكيم بأمر ثم لا يفعله ، وكيف يترك الحكيم التفضل ويقتصر على العدالة وقد بين أن التفضل أفضل ، وكيف لا يرجى فضله وأفعاله كلها عدل وعدله كله تفضل ، لأنه مبتدىء بما لا يلزمه ، والابتداء بما لا يلزم تفضل ، وهل يجوز أن يترك التفضل انتهاء وقد تحراه .

الباب الرابع
﴿ ذكر الظلم ﴾

الظلم: هو الانحراف عن العدالة ولذلك حدّ بأنه : وضع الشيء في غير موضعه المخصوص ، وقد تقدم ان العدالة تجري مجرى النقطة من الدائرة فتجاوزها من جهة الافراط، العدوان والطغيان، واليه أشار تعالى بقوله: «قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا»[٢] والإنحراف عنها في بعض جوانبها جور ، والظلم أعم الأسماء ، ولما كان الظلم ترك الحق الجاري مجرى النقطة من الدائرة، صار العدل عنها إما بعيداً وإما قريباً ، فمن كان عنه أبعد كان رجوعه اليه أصعب، ولذلك قال عز وجل: « وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا »[٣] تنبيهاً على انه متى أمعن بهم في البعد عن الحق صعب عليهم حينئذ الاهتداء ولأجل من جعلهم الشيطان كذلك قال تعالى: « أولئك ينادون من مكان بعيد»[٤]

---

١ - يونس ٢٦
٢ - النساء ١٦٧
٣ - النساء ٦٠
٤ -

وأما المستعمل معهم الظلم فخمسة ، وهم الذين يجب أن تستعمل العدالة معهم وقد تقدم ذكرهم.

الأول: رب العزة سبحانه ، الثاني: قوى النفس ، الثالث: أسلاف الرجل ، الرابع: معاملوه من الأحياء ، الخامس: الناس إذا تولى انسان الحكم بين بعضهم بعضاً . وقال بعض العلماء: شر الناس من جار على نفسه ثم من جار على ذويه، ثم من جار على كافة الناس، وأفضلهم من عدل مع كافة الناس ، ثم مع عشيرته ، ثم مع نفسه وهذا قول أورد بنظر عامي، فان الظالم لا يكون ظالماً لغيره حتى يكون ظالماً لنفسه . فانه أول ما يهمّ بالظلم فقد ظلم نفسه، فاذن الظالم أبدأ مبتدئاً بنفسه بالظلم ، والعادل في الناس إذا همّ بالعدل وتحراه فقد عدل مع نفسه قبل أن يعدل مع غيره ،

قال بعضهم: الظلمة ثلاثة ، الظالم الأعظم، وهو الذي لا يدخل تحت شريعة الله تعالى وإياه قصد تعالى بقوله: « إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »[1]

والأوسط: وهو الذي لا يدخل تحت حكم السلطان.

والأصغر: وهو الذي يتعطل عن المكاسب والأعمال فيأخذ منافع الناس ولا يعطيهم منفعة . ومن خرج عن تعاطي العدالة بالطبع والخلق والتخلق والتصنع والرياء والرغبة والرهبة، فقد انسلخ من الانسانية ، ومتى صار أهل صقع كلهم كذلك تهارشوا أو تغالبوا وأكل قويهم ضعيفهم ولم يبق فيهم أثر قبول ، فقد تقدم ان عادة الله في أمثالهم إهلاكهم عن آخرهم .

١ ـ لقمان ١٣

الباب الخامس

﴿ الأسباب التي يحصل منها الأضرار ﴾

جميع ذلك أربعة أسباب:

الأول: الشرارة كمن يضر بغيره مستلذاً بنفعه وذلك أخس الوجوه.

الثاني: الشهوة وهي أن يرى انه لا يمكنه إدراك شهوته إلا بأن يضر غيره كعامة المتلصصة العاتين في الأرض.

الثالث: الخطأ وهو أن لا يقصد الإضرار بمن ضره بوجه بل قصد فعلاً آخر فاتفق منه ذلك كمن رمى قرطاساً فأصاب رجلاً فهو معذور من وجه.

الرابع: الشقاوة كمن أصابه رمح فأوقعه على انسان فمات ذلك الانسان فذلك معذور ومرحوم.

الباب السادس

﴿ ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة ﴾

المكر والخديعة يتقاربان، وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله في باطنه خلاف ما يقتضيه ظاهره وهو ضربان:

أحدهما مذموم وهو الأشهر عند الناس والأكثر ، وذلك أن يقصد فاعله إنزال مكروه بالمخدوع وإياه قصد صلى الله عليه وسلم بقوله: (المكر والخديعة في النار) والمعنى يؤدي بقاصدهما الى النار.

والثاني بعكس ذلك وهو أن يقصد فاعلهما الى استجرار المخدوع والممكور به الى مصلحة لهما ، كما يفعل بالصبي إذا امتنع من فعل خير ، قال بعض الحكماء: المكر والخديعة محتاج اليهما في هذا العالم وذلك ان السفيه يميل الى الباطل ولا يقبل الحق ولا يميل اليه لمنافاته لطبعه فيحتاج أن يخدع عن باطله بزخارف مموهة خدعة الصبي عن الثدي عند الفطام، ولهذا قيل: مخرق، فان الدنيا مخاريق وسفسط فان الدنيا سوفسطائية ، وليس هذا حثا على تعاطي الخبث بل هو حث على جذب الناس الى الخير بالاحتيال ، ولكون المكر والخديعة ضربين سَيئاً وحَسَناً قال الله تعالى: «والذين يمكرون ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ »[1] وقال تعالى: « فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ»[2] وقال: « أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ »[3] فخص في الآيات السيء من المكر تنبيهاً على جواز المكر الحسن ، ووصف نفسه تعالى بالمكر الحسن فقال: « وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ»[4]

---

١ ـ فاطر ١٠
٢ ـ فاطر ٤٣
٣ ـ النحل ٤٥
٤ ـ آل عمران ٥٤

وأما الكيد: فارادة لاستتار ما يراد به لكن أكثر ما يستعمل ذلك في الشر، ومتى قصد به شر فمذموم، ومتى قصد به خير فمحمود، وعلى الوجه المحمود قال تعالى: «كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ»[1] وعلى ذلك الاستدراج منه قال تعالى: «سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ»[2] فاستدراجه تعالى تغطية السبيل على الانسان وتمكينه منه ليطلبه بالآلات التي أعطاه وذلك تكليف له لما تعذر عليه وإن كان فيه مشقة ولتمكينه من إدراك ذلك قال تعالى: «أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ»[3]

فمن جاهد في سبيله واعمل فكرته حتى ظفر به فسلكه على ما يجب وكما يجب سهل عليه الوصول وكان ذلك منه منة ولطفاً وإحساناً، ومن عطل إمعانه من الفكرة والبصر والسمع حتى أضل طريقه كان ذلك خذلاناً وعذاباً له، وعلى نحو ما تقدم وصف تعالى نفسه بالحيلة والمماحلة فقال تعالى: (وهو شديد المحال) وهذه ألفاظ لولا ان الباريء تعالى أطلقها في مواضع مخصوصة قاصداً بها معاني صحيحة لما تجاسر بشر عرف الله تعالى أن يخطر ذلك بباله فضلاً عن أن يجريه في مقاله، وإن قصد بها المعنى الصحيح تنزيهاً له وتعظيماً فيجب أن تتلى في القرآن حيثما وردت ولا يتعدى بها، وقد ذكر المفسرون أن كثيراً من الأوصاف الشريفة كالرحيم والغفور والودود ما كان يتجاسر أن تطلق عليه سبحانه لولا السمع، لما في هذه الأسماء من الكيفية

---

١ ـ يوسف ٧٦

٢ ـ القلم ٤٤

٣ ـ البلد ٨

والكمية والانفعال في معنى اللغة والله تعالى منزه عن ذلك كله وهذا فصل كبير يختص به غير هذا الكتاب .

الباب السابع
﴿ ماهية المحبة وأنواعها ﴾

المحبة : ميل النفوس الى ما تراه أو تظنه خيراً وذلك ضربان :

أحدهما: طبيعي وذلك في الانسان والحيوان، وقيل قد يكون بين الجمادات كالالفة بين الحديد وحجر المغناطيس ،

والثاني: اختياري وذلك يختص به الانسان ، فاما ما يكون بين الحيوانين فألفة .

وهذا الثاني أربعة أضرب:

الأول: للشهوة وأكثر ما يكون ذلك بين الاحداث.

والثاني: للمنفعة ومن جهة ما يكون بين التجار وأرباب الصناعات المهينة.

والثالث: ما يكون مركباً من ضربين كمن يحب آخر للنفع ، وذلك يحبه للشهوة.

والرابع : للفضيلة كمحبة المتعلم للعالم، وهذه المحبة باقية على مرور الأوقات وهي المستثناة بقوله تعالى: « ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ

لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ »[1].

وأما الضروب الأخر: فقد تطول مدتها وتقصر بحسب دوام أسبابها والصداقة، أخص من المحبة وقلما تقع بين جماعة ولا تستعمل إلا في الحيوان.

وأما العشق فمحبة بافراط، وذلك اما بحسب اللذة فيكون مذموماً، أو بحسب الفضيلة فيكون محموداً، ولا يكون للنفع فان النافع يراد لغيره والفضيلة واللذة يرادان لأنفسهما.

الباب الثامن
﴿ فضيلة المحبة ﴾

أحد أسباب نظام أمور الناس المحبة، ثم العدالة فلو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا عن العدالة، فقد قيل: العدالة خليفة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة، ولذلك عظم الله المنة بايقاع المحبة بين أهل الملة فقال: « لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ »[2] وقال: « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا»[3] أي محبة للقلوب تنبيهاً على أن ذلك أجلب للعقائد، وهو أفضل من المهابة، فان المهابة تنفر والمحبة تؤلف،

---

١ - الزخرف ٦٧
٢ - الأنفال ٦٣
٣ - مريم ٩٦

وقيل: طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة ، لأن طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج تزول بزوال سببها ، وكل قوم إذا تحابوا تواصلوا وإذا تواصلوا تعاونوا وإذا تعاونوا عملوا وإذا عملوا عمروا[1] وإذا عمروا، ولفضل وقوع المحبة شرعاً شرع الله اجتماع أهل الملة الواحدة في مساجدهم خمس مرات لإقامة صلاتهم ، واجتماع أهل ملتهم في بلد كل أسبوع مرة في الجامع ، واجتماع أهل المدينة وأهل السواد كل سنة مرتين في الجبانة واجتماع أهل البلدان النائية في العمر مرة بمكة كل ذلك ليتأكد باجتماعهم الأنس، وليقع بسبب ذلك الود.

الباب التاسع
﴿ فضيلة الصداقة ﴾

الصديق محتاج اليه في كل حال إما عند سوء الحال فيعاونونه ، وإما عند حسن الحال، فليؤانسوه وليضع معروفه عندهم ، ومن ظن انه يمكن الاستغناء عن صديق فمغرور ، ومن ظن أن وجوده سهل فمعتوه ، ولكثرة نفعه سئل حكيم عن الصديق فقال : هو آخر بالشخص، إلا أنه أنت بالنفس ، ولعزة وجوده سئل آخر عنه فقال: هو اسم على غير معنى حيوان غير موجود، فمن وجد إخواناً ذوا ثقة وجد بهم عيوناً وآذاناً وقلوباً كلها له فيرى الغائب بصورة الشاهد ، واختيار من تركن اليه لتصادقه صعب إذ قد يتشيع لذلك الناقص فتظنه فاضلاً، فيكون كمن يحسب الشحم فيمن شحمه ورم .

الباب العاشر
﴿ في ذكر المحب في الناس ﴾

من حببه الله الى الناس فقد أنعم عليه نعمة وَسيعَةً ، كما أن من بغضه اليهم فقد جعل له نقمة فظيعة ، والسبب فيمن يكون محبا الى الخلق أن من رعاه الله فصفى جوهره وطاب وحسن عمله حصل له نور ليتزيا في مشاعر من يراه فيحبه . وإياه قصد تعالى بقوله لموسى عليه السلام: « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي »[1] وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا أحب الله عبدا ألقى محبته في الماء فلا يشربه عبد إلا أخبه ، وإذا بغض عبدا ألقى بغضه في الماء فلا يشربه أحد إلا بغضه) ولما ألقى الله تعالى على نبينا من المحبة قلما كان يأتيه من يبغضه فيهم بقتله إلا إذا رآه وقلب في آفاق وجهه طرفه وألقى الى كلامه سمعه وأعجب به ففارقه على جميل.

الباب الحادي عشر
﴿ الحث على مصاحبة الأخيار والحث على مفارقة الأشرار ﴾

حق الانسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار فهي قد

---

١ ـ طه ٣٩

تجعل الشرير خيراً ، كما أن مصاحبة الاشرار قد تجعل الخير شريراً ، قال بعض الحكماء: مَنْ جالس خيراً أصابته بركته ، فجليس أولياء الله لا يشقى ، وإن كان كلباً ككلب أصحاب الكهف حيث قال جل وعز: « وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ »[1] ولهذا أوصت الحكماء بمنع الأحداث من مجالسة السفهاء ، وقال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه: لا تصحب الفاجر فيزين لك فعله ويعدانك مثله ، وقيل: جالسوا من تذكركم الله رؤيته ، ويزيد في خيركم نطقه ،

وقالوا: اياك ومجالسة الشرير فان طبعك يسرق من طبعه وأنت لا تدري بل قال صلى الله عليه وسلم: (مثل الجليس الصالح كمثل الداري[2] ان لم يجدك من عطره يعلقك من ريحه ، ومثل الجليس السوء كمثل القين إن لم يحرقك بشرره يؤذك بدخانه) .

وقال صلى الله عليه وسلم: (المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخالل) ، أي يجذبه خليله الى دينه ومن قوة هذا المعنى في النفوس شاع على الألسنة قول الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدي

وليس[3] أعداء الجليس جليسه خلقه بمقاله وفعاله فقط بل وبالنظر اليه ، فالنظر في الصور يؤثر في النفوس أخلاقاً مناسبة الى خلق المنظور اليه ، فان من دام نظره الى مسرور سر، ومن دام نظره الى محزون حزن ، وذلك ليس في الانسان فقط بل في الحيوان وسائر النبات ، فان

---

١ ـ الكهف١٨

الجمل الصعب قد يصير ذلولاً بمقارنة الذلول ، والذلول يصير صعباً بمقارنة الصعاب ، والريحانة الغضة تذبل بمقارنة الزابلة ، ولهذا يلقط أصحاب الفلاحة الرمم عن الزروع لئلا تفسدها ، ومعلوم ان الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة إذا قربت منهما ، وذلك مما لا ينكره ذو تجربة . وإذا كانت هذه الأشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ ، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضوعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها . فقد قيل سمي الأنس أنساً لأنه يأنس بما يراه ان خيراً وإن شراً ،

وللانسان في المعاشرة ثلاثة أحوال : إما أن يكون شكساً أي قاسي الطبع ، وأما أن يكون ملقاً أي سلس الطبع ، أو مساعداً أي تاركاً للخلاف على مقتضى العقل وهو المحمود ،

وحق الانسان في المعاشرة أن يتقوى من جهة الفكرة بالمطابقة في الكلام ، ومن جهة الغضب بالتحالم ، ومن جهة الشهوة بالجود ، وأن يتعرى من أضداد ذلك ، وأن يجامل المعاشرين والمعادين والمتشمتين بالاخوان ويصابرهم ويكاسرهم طمعاً في رجوعهم اخواناً واتقاء من شرورهم حتى يكون ظريفاً . فان الظرف عبارة عن استجماع آلة العشرة من الطلاقة .

الباب الثاني عشر
﴿ فضيلة تفرد الانسان عن الناس ورذيلته ﴾

قد كثر اختلاف الناس في مفاضلة التفرد والاختلاط ، فبعضهم

آثر التفرد عن الناس ، وبعضهم الاختلاط بهم ، وأورد كل فريق منهم في ذلك أخباراً، وذلك بسبب اختلاف نظريهما وابتلاء أحدهما بمصاحبة من لم تحمد مصاحبته ، ومصاحبة الآخر بمن مصاحبته حميدة ،

والأصل: ان اجتماع بعضهم مع بعض أمر ضروري لتعلق بعضهم ببعض ، ولهذا لما سمع عمر رضي الله تعالى عنه قائلاً يقول : اللهم أغنني عن الناس . قال يا رجل أراك تسأل الموت قل: اللهم أغنني عن شرار الناس، فالناس لا يستغني بعضهم عن بعض ،

وقيل: التفرد مكروه إلا لثلاثة سلطان لانشاء تدبير المملكة ، وحكيم لاستنباط الحكمة ، ومتنسك لمناجاة رب العزة ، فان التفرد يبطل الانسانية ولا يظهر من صاحبه فضيلة ، ومن ظن التفرد خيراً فلأجل أن ليس يظهر منه سر وذلك يشاركه فيه الموتى ، وفضيلة الانسان أن يكون خيراً لا أن يكون شريراً، وان كان زماننا كما قيل:

إنا لفي زمن ترك القبيح به * من أكثر الناس إجمال وإحسان

فحق الفاضل العاقل أن يجتمع مع العامة في ظواهر أحكام الشرع ، وإقامة وظائف العبادات ، وإنالتهم من الفضيلة بقدر الوسع ويترفع عن منزلتهم في المعارف والأخلاق والأفعال الجميلة ، ولمراعاة حكم الظاهر قال عليه الصلاة والسلام: (عليكم بالسواد الأعظم) ولمراعاة الترفع عن منزلتهم في المعارف والأخلاق قيل: المروءة التامة مباينة العامة بل قيل : من استأنس بالله استوحش من الناس ، وذلك لمخالفته إياهم في الخلق ، وللنهي عن الاغترار بكثير منهم والركون

اليهم ، سيا من ليس قصده الآخرة وطلب الحق قال تعالى: « إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »[1] وقال تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ »[2]

الباب الثالث عشر
﴿ العداوة ﴾

العدو: هو الذي يتحرى اغتيال الآخر، ويضاده فيما يؤدي الى ضرره، ومنه تعدى فلان أي فعل فعل العدو وهو من قولهم مكان ذو عدو أي متنافي الأجزاء[2] ناب لمن حله.

والعدواة ضربان: باطن لا يدرك بالحاسة ، وظاهر يدرك بالحاسة ،

فالباطن اثنان : احدهما الشيطان وهو أصل كل عدوّ ويعادي معادن جوهرته ، وقد حذرنا الله تعالى منه غاية التحذير فقال: « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا »[3] وقال: « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ »[4] الآية. وقال: « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ »[5]

---

١ ـ فاطر ١٤
٢ ـ الأعراف ١٩٤
٣ ـ فاطر ٦
٤ ـ يس ٦٠
٥ ـ البقرة ١٦٨، ٢٠٨

والثاني: **الهوى المعبر عنه بالنفس** في قوله تعالى: «إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ»[1] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك)، وكذلك الغضب إذا كان فوق ما يجب، ولكون هذه القوة في الانسان إذا أثيرت طريقاً للشيطان في وصوله الينا وكونها كالخليفة لها سماها النبي صلى الله عليه وسلم باسمه فقال: (الهوى شيطان والغضب شيطان) وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: « هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ »[2] وأما الظاهر من الأعداء فالانسان وذلك ضربان : ضرب هو عدو مضطغن للعداوة قاصد الى الأضرار إما مجاهرة وإما مساترة وذلك اثنان.

واحد يعادي كل أحد وهو انسان سبعي الطبع خبيث الطينة مبغض لكل من لم يحتج اليه في العاجل بغيض الى كل نفس يهارش كل من لا يخافه كما قال الشاعر:

يسطو بلا سبب وتلـــك طبيعة الكلب العقور

ومثله هو الذي عنى تعالى بشياطين الأنس.

والثاني عدو خاص العداوة وذلك إما بسبب الفضيلة أو الرذيلة كمعاداة الجاهل العالم،

وإما بسبب نفع دنيوي كالتجاذب في رياسة ومال وجاه ،

وإما بسبب لحمة ومجاورة مورثة للحسد كمعاداة بني الأعمام

---

١ ـ يوسف ٥٣
٢ ـ القصص ١٥

بعضهم لبعض وذلك في كثير من الناس كالطبيعي ، وقال رجل لآخر، اني أحبك فقال: قد علمت ذلك قال: ومن أين علمت قال: لأنك ليس لي بشريك ولا نسيب ولا جار قريب ، وأكثر المعاداة بين الناس تتولد من شيء من ذلك.

والضرب الثاني: عدو غير مضطغن بالعداوة ولكن يؤدي حاله بالانسان الى أن يقع بسببه في مثل ما يقع من كيد عدوه فسمى عدواً لذلك كالأولاد والأزواج ولذلك قال عز وجل: « إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ »[1] وقال عليه الصلاة والسلام: (ليس عدوك الذي إن قتلته آجرك الله في قتله وإن قتلك أدخلك الجنة ولكن أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك وامرأتك التي تضاجعك وأولادك الذين من صلبك) وجعل عليه الصلاة والسلام هؤلاء أعداء الانسان لما كانوا سبباً لإهلاكه الأخروي لما يرتكبه من المعاصي من أجلهم فيؤدي ذلك الى هلاك الأبد الذي هو شر من إهلاك المعادي المناصب إياه.

واعلم انه لكون بعض الناس مشاركاً للشيطان في المعاداة سمى الله تعالى الأعداء شياطين في قوله: « شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا »[2] وقد سمى كل ما يتأذى به شيطاناً حتى قالوا: ما ورود الفقير إلا شيطان مجنون يؤذي بروح الانسان ، والفقير هو اسم بئر فجعل ورودها شيطاناً يتأذى به والله سبحانه أعلم.

---

١ ـ التغابن ١٤
٢ ـ الانعام ١١٢

الفصل السادس
﴿ فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والانفاق والجود والبخل ﴾

الباب الأول
﴿ في حاجة الناس الى اجتماعهم للتظاهر ﴾

اعلم انه لما صعب على كل أحد أن يحصل لنفسه أدنى ما يحتاج اليه إلا بمعاونة عدة رجال له، فلقمة طعام لو عددنا تعب محصليها من الزراع والطحان والخباز وصناع آلاتها لصعب،حصره احتاج الناس أن يجتمعوا فرقة فرقة فيتظاهروا، ولأجل ذلك قيل الإنسان مدني بالطبع أي لا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه بل يفتقر بعضهم إلى بعض في مصالح الدين والدنيا ، وعلى ذلك نبه صلى الله عليه وسلم بقوله: (المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً) وقال: (مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا تألم بعضه تداعى سائره)، وقيل: الناس كجسد واحد متى عاون بعضه بعضاً استقل، ومتى خذل بعضه بعضاً اختل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني

﴿ تسخير الله تعالى همم الناس إلى الصناعات المختلفة وعناية كل واحد بما يتحراه ﴾

لما احتاج الناس بعضهم الى بعض ، سخر الله كل واحد من كافتهم لصناعة ما يتعاطاها ، وجعل بين طبائعهم وصنائعهم مناسبات خفية ، واتفاقات سماوية ، يؤثر الواحد بعد الواحد حرفة من الحرف ينشرح صدرها بملابستها ، وتطيعه قواه بمزاولتها ، فاذا جعل اليه صناعة أخرى فربما وجد متبلداً أو متبرماً بها ، وقد سخرهم الله تعالى لذلك لئلا يختاروا بأجمعهم صناعة واحدة فتبطل الأقوات والمعاونات ، ولولا ذلك لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ، ومن البلاد إلا أطيبها ، ومن الصناعات إلا أنظفها ، ومن الأعمال إلا أرفعها ، ولتناجزوا على ذلك ، ولكن الله تعالى بحكمته جعل كلا منهم مجبراً في صورة مخير. فالناس إما راض بصنعة لا يريد عنها حولا ، كالحائك الذي يرضى بصنعته ويعيب الحجام، والحجام الذي يرضى بصنعته ، ويعيب الحائك، وبهذا انتظم أمرهم كما قال تعالى: «فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »(١) وأما كاره لها يكابدها مع كراهيته إياها ، كأنه لا يجد لها بدلاً وعلى هذا دل قوله عليه الصلاة والسلام: « كل ميسر لما خلق له» بل صرح تعالى بقوله: « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم

---

١ ـ المؤمنون ٥٣

مَعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا »[1] وقال: « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ »[2] وقال: « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ »[3] ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (لن يزال الناس ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا) فالتباين والتفرق والاختلاف في نحو هذا الموضع سبب الالتآم والاجتماع والاتفاق ، كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتفرقها التي لولاها لما حصل لها نظام ، فسبحان الله ما أحسن ما صنع ، وأحكم ما أسر ، وأتقن ما دبر ، ولهذا قيل: من حق من قيض له صناعة مباحة فرزق منها أن يراعيها على ما يجب وكما يجب ، وعليه قوله عليه الصلاة والسلام: (من رزق من شيء فليلزمه) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثالث
﴿ كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس ﴾

حصول الفقر وخوفه المنتجان للحرص، هما الباعثان على الجد واحتمال الكد ومنفعة الناس ، إما باختيار وإما باضطرار ، ولهذا قيل: رب ساع لقاعد ، وهو أن الناس لو كفى كل واحد أمره لأدى ذلك الى فساد العالم من حيث أنه لم يكن أحد يتولى لغيره مهنة يعجز عن القيام بمصالح نفسه كلها ، فيؤدي ذلك الى فقر جميعهم وقد قيل : قيام

---

١ ـ الزخرف ٣٢
٢ ـ الفرقان ٢٠
٣ ـ الاسراء ٨٤

العالـم بالفقر أكبر من قيامه بالغنى ، لأن الصناعات القائمة بالغنى ثلاث الملك والتجارة والكتابة ، وسائرها قائم بالفقر ، فلـو لم يكـن الفقر وخوفه فمن كان يتولى الحياكة والحجامة والـدباغة والـكناسة ؟ ومن كان ينقل المير والملابس من الشرق الى الغرب ومن الجنوب الى الشمال ؟ وعلى منفعة الفقر نبه الله تعالى بقوله : «وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ»[1] ومن تدبر صنع الله تعالى في ذلك وتأمل ما أشار اليه في هذه الآيات التي ذكرها لم تعرض لها الشبهة التي تعرض لمن يقول : إذا كان الله جواداً واسعاً فلم خص بعضهم بالغنى وجعل أكثرهم فقراء ؟ ومن حق الغني الذي لا يفنى غناه والجواد الـذي لا يعرف لجوده منتهى أن لا يخص بالعطية بعضاً دون بعض ، وذاك أن الجواد هو الذي يعطي كل أحد بقدر استئهاله على وجه يعود بمصلحته ومصلحة غيره وقد فعل ذلك بالعباد.

الباب الرابع

﴿ مناسبة بدن الإنسان لصناعته ﴾

إن الله تعالى فرق همم الناس للصناعات المتفاوتة ويسر كلا لما خلق له وجعل آلاتهم الفكرية والبدنية مستعدة لها ، فجعل لمن قيضه لمراعاة العلـم والمحافظة على الديـن قلـوباً صافية ، وعقولاً بالمعارف لائقة ، وأمزجة لطيفة ، وأبداناً لينة مستصلحة ، ومن قيضه لمراعاة

١ ـ الشورى ٢٧

المهن الدنيوية والمحافظة عليها كالزراعة والبناء جعل لهم قلوباً قاسية وعقولاً كنزة وأمزجة غليظة وأبداناً خشنة ، وكما أنه محال أن يصلح السمع للرؤية والبصر للسمع ، كذلك محال أن يكون من خلق للمهنة يصلح للحكمة ، وقد جعل تعالى كل جنس من الفريقين نوعين : رفيعاً ووضيعاً :

فالرفيع من تحرى الحذق في صناعته وأقبل على عمله وطلب مرضاة ربه بقدر وسعه ، وأدى الامانة بقدر جهده ، ولم يشتغل عن عبادة الله تعالى كما قال تعالى : «رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ»[1] وقال عليه الصلاة والسلام: « ان الله يحب الصانع الحاذق ومدح الملائكة بوقوفهم حيثما ما وقفوا وبأحكامهم لما ولـوافقال تعالى:«لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»[2].

الباب الخامس
﴿ وجوب التكسب ﴾

التكسب في الدنيا وإن كان معدوداً من المباحات، لكنه واجب من وجه ، وذلك إذا لم يمكن الانسان الاستقلال بالعبادة إلا بازالة ضروريات حياته فازالتها واجبة ، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فواجب كوجوبه . وإذا لم يكن الى إزالة ضرورياته سبيل إلا بأخذ

١ - النور ٣٧ ٢ - التحريم ٦

تعب من الناس ، فلا بد إذن أن يعوضهم تعباً له وإلا كان ظالماً . فمن توسع في تناول عمل غيره في مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك فلا بد أن يعمل عملاً بقدر ما يتناوله منهم،وإلا كان ظالماً لهم قصدوا إفادته أو لم يقصدوها ، فمن رضي بقليل من عملهم فلم يتناول من دنياهم إلا قليلاً يرضى بقليل عمل ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (من رضي من الله بقليل الرزق رضي الله منه بقليل العمل) ومن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعاً فانه لم يأتم بالله في قوله:«وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ»[1] ولم يدخل في عموم قوله تعالى: «وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ»[2] ولهذا ذم من يدعي التصوف فيتعطل عن المكاسب ، ولم يكن له علم يؤخذ عنه ولا عمل صالح في الدين يقتدي به ، بل يجعل له همة عارية بطنه وفرجه ، فانه يأخذ منافع الناس ويضيق عليهم معايشهم ولا يردّ اليهم نفعاً، فلا طائل في مثلهم إلا أن يكدروا الماء ويغلوا الأسعار ، ولهذا الشأن كان عمر رضي الله تعالى عنه إذا نظر الى ذي سيماء سأل أله حرفة، فاذا قيل لا سقط من عينه ، واستحسن النبي صلى الله عليه وسلم من وفد عبد قيس لما سألهم ما المروءة ؟ فقالوا: العفة والحرفة ، ومن الدلالة على قبح فعل من هذا صنيعه أن الله تعالى ذم من يأكل مال نفسه أسرافاً وبداراً ، فما حال من أكل مال غيره على ذلك ، ثم لا ينيلهم عوضاً ولا يرد اليهم بدلاً ، فحق كل مضطر الى كسب أن يقتصر على ما يسد فقر وقته ، ولا يحمل هم غده على يومه قال الشاعر :

١ ـ المائدة ٢

٢ ـ التوبة ٧١

فمن ينفق الساعات في جمع ماله * مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ومن اقتصر على ذلك فقد صار من المتوكلين الذين عناهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً).

الباب السادس
﴿ مدح السعي وذم الكسل ﴾

من تعطل وتبطل انسلخ من الإنسانية، بل من الحيوانية وصار من جنس الموتى . وذلك أنه خص الإنسان بالقوى الثلاث ليسعى في فضيلتها ،

فإن فضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب التي تنميه ، وفضيلة القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدة التي تحميه ،

وفضيلة القوة الفكرية تطالبه بالعلم الذي يهديه ، فحقه أن يتأمل قوته ويسبر قدر ما يطيقه ، فيسعى بحسبه لما يفيده السعادة ، ويتحقق أن اضطرابه سبب وصوله من الذل إلى العز ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الضعة الى الرفعة ، ومن الخمول الى النباهة ، وإن من تعود الكسل ومال إلى الراحة فقد الراحة . فحب الهوينا يكسب التعب ، وقيل : إن أردت أن لا تتعب فاتعب لئلا تتعب ، وقيل إياك والكسل والضجر فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً ، وإن ضجرت لم تصبر على حق ، كما قال الشاعر:

فان التواني أنكح العجز بنته * وساق اليها حين أنكحها مهراً
فرشاً وطيئاً ثم قال لها اتكي * فقصركما لا شك أن تلدا فقرا

وقال يزيد بن المهلب: ما يسرني إني كفيت أمر الدنيا كله لئلا أتعود العجز . وإن الفزع يبطل الهيئة الانسانية ، فكل هيئة بل كل عضو ترك استعماله يبطل . كالعين إذا غمضت ، واليد إذا عطلت ، ولذلك وضعت الرياضات في كل شيء، ولما جعل الله تعالى للحيوان قوة التحرك لم يجعل له رزقاً إلا بسعي ما منه. ولئلا تتعطل فائدة ما جعل بقوة التحرك ، ولما جعل للانسان الفكرة ترك من كل نعمة أنعمها تعالى عليه جانباً يحصل بفكرته ، لئلا تبطل فائدة الفكرة فيكون وجودها عبثاً ، وتأمل حال مريم عليها السلام وقد جعل لها من الرطب الجني ما كفاها مؤنة الطلب ، وفيه أعظم معجزة فإنه لم يخلها من أن أمرها بهزها فقال تعالى: (وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ)[1] وكما ان البدن يتعود الرفاهية بالكسل ، كذلك النفس بترك التفكر والنظر فتتبلد وتتبله وترجع الى رتبة البهائم . فحق الإنسان أن لا يَذهب عامة أوقاته إلا في إصلاح أمر دينه ودنياه وموصلاته الى آخرته ، مراعياً لها . قال الحجاج إن امرؤ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ويستغفر من ذنبه أو يتفكر في أمر معاده لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة . وإذا تأملت قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سافروا تغنموا) ونظرت اليه نظراً عالياً علمت أنه حثك على التحريك الذي يثمر لك جنة المأوى ، ومصاحبة الملأ الأعلى ، بل مجاورة الله تعالى ، وذلك يحتاج إلى خمسة أشياء :

---
١ - مريم ٢٥

معرفة المعبود المشار اليه بقوله: « فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ »[1]

ومعرفة الطريق المشار اليه بقوله: « قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ »[2]

وتحصيل الزاد المتبلغ به المشار اليه بقوله: « وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ »[3]

والمجاهدة في الوصول كما قال تعالى: « وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ »[4] . فبهذه الأشياء يأمن الغرور الذي خوفه الله تعالى منه في قوله: « وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ »[5] وهذه من المعالي التي دونها هول العوالي ولا ضير لمن رامها ان يتدرع الصبر فقد أصاب من قال:

فقل لمرجى معالي الأمور * بغير اجتهاد رجوت المحالا

الباب السابع

﴿ تقاسيم الصناعات ومراتبها وفضيلة بعضها على بعض ﴾

الصناعات ثلاثة أضرب: إما أصول لا قوام للعالم بدونها . وهي أربعة أشياء : الحياكة والزراعة والبناية والسياسة ،

---

١ - الذاريات ٥٠
٢ - يوسف ١٠٨
٣ - البقرة ١٩٧
٤ - الحج ٧٨
٥ - لقمان ٣٣، فاطر ٥

وإما مرشحة لكل واحد من ذلك وخادمة ، كالحدادة للزراعة ، والحلاجة والغزالة للحياكة ،

وأما ثمرة لكل واحد من ذلك ومرتبة له ، كالطحانة والخبازة للزراعة، والقصارة للحياكة ، ومثل ذلك بالاضافة الى العالم مثل أجزاء الشخص الى الشخص سواء بسواء فإنه على ثلاثة أضرب:

إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ،

وإما مرشحة لتلك الأصول وخادمة كالمعدة والعروق والشرايين ،

وأما مكملة لها ومزينة كاليد والحاجب. وأشرف أصول الصناعات السياسية وهي أربعة أضرب:

الأول سياسة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم.

والثاني الولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم.

والثالث الحكماء وحكمهم على باطن الخواص.

والرابع الوعظة والفقهاء وحكمهم على باطن العامة ، وأشرف هذه السياسات الأربع بعد النبوة، إفادة العلم وتهذيب الناس به وبيان ذلك.

أن أشرف الصناعة يتبين من أوجه **إما بحسب النسبة الى القوة**

المبرزة لها كالفضل في معرفة الحكمة على معرفة اللغات ، فان الأولى متعلقة بالقوة العقلية ، وهذه متعلقة بالقوة الحسية ، والعقل أشرف من الحس.

وإما بحسب عموم النفع كفضل الزراعة على الصناعة،

وإما بحسب الموضوع المعمول فيه ، كشرف الصياغة على الدباغة ، وقد علم أن الحكمة تدرك بالقوة الفكرية وهي أشرف قوة ، وانه يتوصل به الى جنة المأوى وذلك أبلغ نفع.

وموضوعه الذي تعمل فيه نفوس البشر وهو أفضل موضع يعمل فيه بل موجود في هذا العلم ، وإفادة العلم من وجه صناعة ، ومن وجه عبادة ، ومن وجه أجل خلافة الله ، فان الله مع استخلافه قد فتح على قلبه العلم الذي هو أخص صفاته تعالى، فهو خازن لأجل خزائنه ، وقد أذن له في الانفاق على كل أحد ممن لا يفوته الانفاق عليه وكل ما كان إنفاقه أكثر على ما يجب، وكما يجب كان جاهه عند مستخلفه أوفر . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن
﴿ في أن أصول الصناعات مأخوذة عن الوحي ﴾

أصول الصناعات والمكاسب مأخوذة عن وحي ، وذلك أن نقص الانسان وحاجة بعضهم الى بعض ظاهر، والناقص محتاج الى الكامل ، فلا يخلو إما أن يتصور أخذ واحد عن واحد بلا غاية وهو

محال ، وإما أن ينتهي الى واحد من البشر علمه الصناعات إما بسماع من الملأ الأعلى ، أو بإلهام ، أو منام ، وهذا هو الحد فمعلوم لذي اللب أن قوى العقاقير وطبائع الحيوانات مما لا يمكن إدراك خواصها بافهام البشر وبحريتهم ، ورؤساء كل صناعة يقرون بذلك . فأهل النجوم يقولون : مبادي النجوم من هرمس ، وهو قبل ادريس عليه السلام ، وكذلك أصحاب الطب يدعون مثل ذلك في معرفة الأدوية ، ثم اختصاص كل واحد من الموجودات بفعل له على حدته أو بحساب العقل عن توهم ما هو أصلح لذلك الفعل منه يحقق انه صدر عن حكمة الهية .

الباب التاسع
﴿ في شأن الناض المتعامل به وحكمة الله تعالى فيه ﴾

اعلم أن الناض [١] أحد أسباب ما به قوام الحياة الدنيوية ، ومتى توهمنا مرتفعاً تعسر على الناس توجيه معاشهم ، وقد تقدم ان الناس يحتاج بعضهم الى بعض ولا يمكنهم التعايش ما لم يتظاهروا ويتولى كل واحد منهم عملا يصير به معيناً للآخر مواسياً له ، ولما كان كل من واسى غيره من حقه أن يقابل بقدر مواساته ، قيض الله سبحانه لهم هذا الناض علامة منه جل ثناؤه ليدفعه الإنسان الى من يوليه نفعاً فيحمله الى من عنده مبتغاه فيأخذ منه بقدر عمله ، ثم إذا جاء ذلك الآخر بتلك العلامة أو مثلها الى الأول وطلب منه مبتغى هو عنده دفعه

١ الدراهم والدنانير بلغة اهل الحجاز. ا هـ المختار

اليه لينتظم أمرهم ، ولهذا قيل : الدرهم حاكم صامت ، وعدل ساكت ، وخاتم من الله نافذ ، وقيل : لهذا المعنى سمي في لغة الفرس ديناراً أي الدين أتى به ، والدين فارسية معربة . ولما كان ذلك حاكماً عظم الله تعالى وعيد من احتبسه ومنع الناس عن التعامل به فقال : «وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ»[1] الآية. وذلك انه يصير باحباسه إياهما كمن حبس حاكمين للناس بهما تتمشى أمور معايشهم ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر بطنه في نار جهنم). لأنه يؤدي الى منع الناس التصرف في معاملتهم .

الباب العاشر
﴿ في مدح المال وذمه ﴾

المال إذا اعتبر بكونه أحد أسباب قوام الحياة الدنيوية فهو عظيم الخطر كما تقدم ، وإذا اعتبر بسائر القنيات فهو صغير الخطر ، إذ القنيات ثلاثة نفسية ، ومدنية ، وخارجة ، والخارجة أدونها ، وأدون الخارجات الناض ، لأنه خادم غير مخدوم ، وسائر القنيات خادم من وجه ومخدوم من وجه ، لأن النفس يخدمها البدن ، والبدن يخدمه المأكل والملبس ، وهما يخدمهما المال ، فالمال من حقه أن يكون خادماً لغيره من القنيات وأن لا يكون شيء من القنيات خادماً له ، وإن كان كثير

---

١ ـ التوبة ٣٤

من الناس لجهلهم يجعلون جاههم وأبدانهم ونفوسهم خدماً للمال وعبيداً . وهم الذين ذمهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (تعس عبد الدينار) ولعظم موقع المال عند من لا يتجاوز المحسوسات قال: حكاية عن بعض أنبيائه فيما خاطب به أمته: «ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا»(١) ولعظم منافعه في الأمور الدنيوية قال تعالى: « وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ »(٢) ونبه على حقارة قدره بالاضافة الى أحوال الآخرة فقال: « لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ »(٣) وخوف من أعجب باقتنائه فقال: « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ »(٤) وقال تعالى: « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا »(٥) فحق الانسان أن يعد المقتنيات الدنيوية آلات موضوعة في خان سفر يصلح للانتفاع بها ما دام نازلاً في ذلك الخان ، فيتناول منها مقدار البلغة ، ويتسلى عنها عند الرحلة ، ويستهجن لنفسه أن يكذب ويغضب ويحزن ويرتكب القبايح في سببها .

واعلم أن الناض الذي هو العين والورق حجر، جعله الله سبحانه سبباً للتعامل به كما تقدم آنفاً وخادماً كما ذكرناه ، فقبيح بالحر المتوشح لنيل الفضائل والاقتداء بالباريء جل ثناؤه والوصول الى الغنى الأكبر، أن يتهافت على المال بأكثر مما يحتاج اليه ، ويجعل نفسه أقل رقيق له وأخسه كما قيل * فرق ذوي الأطماع رق مخلد * ويكون معكفاً منه على حجر يعبده كما قال تعالى: « يعكفون على أصنام

١ - نوح ١٠
٢ - النساء ٥
٣ - المنافقون ٩
٤ - المؤمنون ٥٦
٥ - المدثر ١١

لهم»[1] وأرى أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام لما سأل الله تعالى فقال: «وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ»[2] لم يرد إلا أن يحرسه وذريته عن الأعراض الدنيوية الصارفة عن الله ، فمثله عليه الصلاة والسلام وأولاده يتنزه أن يشفق من اعتقاد في حجر هو صانعه ويستحق عبادته ، وقال في موضع آخر إشارة الى ما يعم هذا المعنى وغيره : «يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا»[3] وقال بعض الحكماء: مثل الانسان وشغفه بهذه الأعراض الدنيوية كراكب في سفينة الى أفضل بلد فانتهى الى جزيرة ذات أسود وأساود ، فأمروا بالخروج والتهيء للطهارة ، وأن يكونوا على حذر فرأوا حجراً مزبرجاً مزيناً فشغفوا به ، وتباعدوا عن المركب ونسوا مقصودهم ومركبهم ، وبقوا لاهين حتى سارت السفينة فثارت عليهم الأسود والأساود فلم يغن عنهم حجرهم ، فصاروا كما قال تعالى عمن هذه حاله: «مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ»[4]

الباب الحادي عشر
﴿ المال والأدب في اقتنائه والوجوه التي منها يحصل ﴾

قد تقدم أن المال من الخيرات المتوسطة ، لأنه كما قد يكون سبباً للشر يكون سبباً للخير ، لكن لما كان في أكثر الأحوال يوجب كرامة

---

١ - ابراهيم ٣٥
٢ - مريم ٤٢
٣ - الحاقة ٢٨

أصحابه وتعظيم أربابه حتى صدق الشاعر في قوله :

النــاس أعــداء لكل مدقع * صفــر اليدين وأخــوة للمكثر

وحتى قيل : رأيت ذا المال مهيباً . قال صلى الله عليه وسلم : (نعم المال الصالح للرجل الصالح) واستصوب قول طلحة رضي الله تعالى عنه في دعائه : اللهم ارزقنا مجداً ومالاً فلا يصلح المجد إلا بالمال ولا يصلح المال إلا بمراعاة المجد . وقال بعض الحكماء : اطلبوا العلم والمال بحق الرياسة فالنـاس خاص وعـام ، فالخـاص يفضـلك بمـا تحسن ، والعام بما تملك ، واكتسابه من الوجه الـذي ينبغي صعـب وتغريقه سهل كما قال الشاعر * له مصعد صعب ومنحدر سهل * ومن رام اكتسابه من وجه صعب عليه ، فالمكاسب الجليلة قليلة عند الحر العادل ، ومن رضي بكسبه من حيث ما اتفق فقد سهل عليه ، والفاضل ينقبض عن اقتناء المال ويسترسل في إنفاقه ولا يريده لذاته بل لاكتسابه المحمدة به ، ولا يجمع المال عنده مدّخراً كما قال الشاعر :

لا يألف الدرهـم المضروب صرته * لـكن يمـر عليهــا وهــو منصـرف
انـا إذا اجتمعـت يومـاً دراهمنـا * ظلـت الى طرق المعـروف تنصرف

وغير الفاضل يسترسل في اقتنائه وينقبض في إنفاقه ، ويطلـب لذاته لا لادخار الفضيلة به ،

والمال يحصل من وجهين : أحدهما : بسبب منسوب الى الجد المحض والبخت الصرف من غير اكتساب من صاحبه ، كمن ورث مالاً أو وجد كنزاً أو قبض له من أولاد شيئاً ،

والثاني: أن يكتسب الانسان كمن يشتغل بتجارة أو صناعـة

فيدّخر منها مالا ، وهذا الضرب لا يستغنى فيه عن الجد ولهذا قيل:

عليّ السعــي فيما فيه نفعي * وليس عليّ إدراك النجاح

فحـظ الجـد أكثـر من حظ الـكد بخـلاف الأخــلاق والأعمال الأخروية التي حظ الكد فيها أكثر ، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله: « مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ »[1] الآية واشترط في العاجلة مشيئة للمعطي وإرادته للمعطى له ، ولم يشترط السعي لها مع الايمان ، ولم يشترط إرادته ومشيئته وان كان ذلك لا يتعدى منهما ، فحق العاقل أن يعنى بما إذا طلبه ناله ، وإذا ناله لم يخف زواله ، ويقلل المبالاة بما إذا قدر له أتاه طلبه أم لا . وقال بعض الحكماء: ان البخت بمنزلة امرأة صماء عمياء ورهاء في حجرهـا جواهـر ، وهـي قاعـدة على حجـر مدور ، ويتبعها ناس كثير يلتمسون ما عندها ، وهي لا تسمع قولاً ولا ترى وجهاً ، وقد اعتزل عنها قوم قليلو العدد وقعدوا حجرة وفي كل ساعة تولى قبضة مما في حجرها واحداً من القوم كأنها المعنية بقول الشاعر:

لا تمدحن حسنا في المجد ان مطرت * كفـاه جودا ولا تذممـه إن رزما

فليس يبخل إشفاقاً على نشب * ولن يجـود بفضــل المال معتزماً

لكنهـا خطـرات من وساوسه * يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً

وتارة تعرج على من أعطته فتسلبه سلبـاً ، وتدوسـه بحجرهـا دوساً وأما الفضائل الأخروية فكما قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعـطيه كلك، فان أعطيتـه كلك فأنـت من إعطائـه إياك بعضـه على خطر ، وقال تعالى: « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ »[2]

---

١ ـ الأسراء ١٨

٢ ـ النجم ٣٩

الباب الثاني عشر
﴿ إخفاق العاقل و إنجاح الجاهل ﴾

الحكمة تقتضي أن يكون العاقل الحكيم في أكثر الأحوال مقلاً ، وذلك انه لا يأخذ المال إلا كما يجب ، من الوجه الذي يجب ، في الوقت الذي يجب ، ثم إذا أخذه وتناوله ، لم يدخره عن مكرمة ، والجاهل عليه الجميع من حيث لا يبالي فيما يتناوله بارتكاب محظور واستباحة محجور ، واستنزال الناس عما في أيديهم بالمكر ، ومساعدتهم على ارتكاب الشرّ طمعاً في نفعهم ، وكثيراً ما يرمي منهم في جملة الموصوفين، بقوله تعالى: «فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ»[1] شاكين بختهم فبعضهم يغضب على الفلك ، وبعضهم على القدر،وبعضهم يتجاوز الأسباب فيعاتب الله تعالى حتى قال بعضهم في ذلك شعر :

لقوله نحن قسمنا بينهم زال المرا
ولو تولى غيره * قسمة أرزاق الورى
جرت خطوب بيننا * لكنه تحت العرا

وذلك لحرصهم على ارتكاب القبايح ، وجهلهم بما يقيض الله سبحانه وتعالى من المصالح وقول الشاعر :

١ ـ البقرة ٢٠٠

هذا الـذي ترك الألبـاب حائرة * وصـير العالـم النحـرير زنديقاً

فان الذي يصير بذلك زنديقاً لو يسمى بالجاهل الشرير أولى من أن يسمى العالم النحرير ، فقد قال حكيم سوأة لمن أعطى العلم فجزع لفقد الذهب والفضة : أعطى السلامة والدعة فجزع لفقد الألم والتعب .

الباب الثالث عشر
﴿ تحقيق كون المال في أيدي الناس ﴾

إن الله تعالى أوجد أعراض الدنيا بُلْغَة ، فاعتدها الناس عقدة ، وصير الدنيا مرتحلاً وممراً ، فصيرّوها موطناً ومقراً ، إلا قليلاً أنزلوها حيث أنزلها الله تعالى وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ»[1] تاجروا بها ربهم كما قال تعالى : «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ»[2]الآية . وأعراض الدنيا من وجه عارية في أيدي الناس مستردة كما قال :

وما المال والأهلـون الا ودائع * ولا بد يومـاً أن ترد الودائع

ومن وجه منحة منحها الانسان لينتفع مدة بدرها ، وَينتفع بها غيره ، ومن وجه وديعة في يده ، وخص له في استعمالها والانتفاع بها بعد أن لا يسرف فيها ، لكن الانسان بجهله ونسيانه لما عهد اليه بقوله:

---

١ ـ سبأ ١٣
٢ ـ الصف ١٠

«وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا»(1) اغتر بها فظن أنها جعلت له هبة مؤبدة فركن اليها ولم يؤد أمانة الله تعالى ، ثم لما طولب بردها تصورت له وضجر فلم يبرح عنها إلا بنزع روحه أو كسر يده ، وبعضهم وهم الأقلون حفظوا ما عهد اليهم ، فتناولوها تناول العارية والمنحة والوديعة فأدوا فيها الأمانة وعلموا أنها مستردة ، فلما خرجت منهم لم يغضبوا ولم يجزعوا ، وردوها شاكرين لما نالوه منها ، ومشكورين لأداء الأمانة فيها ، وقد ذكر بعض العارفين في ذلك مثلاً فقال : إنما مثل أرباب الدنيا فيما أعطوه من أعراضها كرجل دعا قوماً إلى داره وأخذ طبق ذهب عليه بخور ورياحين ، فكان إذا دخل أحدهم ناوله إياه لا ليتملكه بل ليشمه ويناوله لمن بعده ، فمن كان جاهلاً ظن انه يملكه فلما استرجع منه ضجر ، ومن كان عالماً تناوله فشمه ثم أعاده بانشراح صدر.

الباب الرابع عشر
﴿ تفاوت أحوال المتناولين لأعراض الدنيا ﴾

طلب الدنيا وتناولها على ثلاثة أضرب:

الأول: من يتناولها على أي وجه اتفق ، راكناً الى المال غير متفكر في المآل ، وإياه قصد تعالى بقوله: « يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ »(2)

---

1 ـ طه ١١٥
2 ـ الهمزة ٣

الثاني: من يتناولها على وجه يجب عليه تناوله ، وذلك إذا اقتصر على ما لا يمكن التبلغ بأقل منه من الوجه الذي يجب كما يجب ، ولوجوب تناول هذا القدر قيل : مباحات الصوفية فريضة ، وفريضتها مباحة ، يعني انه لا يقدم على تناول مباح حتى يضطر اليه .

وروي من طلب رزقه على ماسن فهو في جهاد ، وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود: (إن المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى اللقمة التي يضعها في في امرأته) ولم يَعْن أن كل أحد يؤجر في ذلك ، وإنما أراد تخصيص المؤمنين الذين يُراعون حكم الله عز وجل في مكاسبهم وانفاقهم ، ويتحرون به عبادة الله تعالى .

والضرب الثالث: من يتوسع في تناولها ولا يراعي فيه لكن يكون فيه وكيلا لله فيقتصر منه لنفسه على تناول بلغته ، ويجعل الباقي مصروفاً الى ما دعى اليه فهذا أفضل ممن تقدم ذكره ، فانه يصير بذلك من خلفاء الله تعالى ، فمن تناول الدنيا على أحد هذين الوجهين فقد ارتسم لله عز وجل في قوله تعالى: «وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ»[1] الآية وبالاعتبار بمثلهم قال تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ»[2] وقال: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ»[3] الآية. فجعلها لهم ثم قال: إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ»[4] أي من تحرى عبادة الله تعالى في تناول الدنيا فانه يبلغ بذلك المقصود في قوله: « وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ»[5] وقال: « لَيْسَ عَلَيْكُمْ

---

١ ـ القصص ٧٧
٢ ـ الاعراف ٣٢
٣ ـ الأنبياء ١٠٥
٤ ـ الأنبياء ١٠٦
٥ ـ النجم ٤٢

جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ »[1] والفضل هو الاحسان فنبه بذلك على أن تناول المال إذا تحرى به الوجه الذي يجب كما يجب فهو فضل وإحسان، وقال في مدح قوم يتناولون الدنيا كما يجب: « رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ »[2] الآية.

الباب الخامس عشر
﴿ في بيان ما ورد من الآيات المتفاوتة الظاهر في شأن الدنيا ﴾

من تصور الوجوه الثلاثة التي تقدم ذكرها في تناول الدنيا سقطت شبهته فيما ورد من الآيات والأخبار المتفاوتة في الظاهر، من ذم الدنيا وأعراضها تارة، ومدحها تارة، وذلك ان ما جاء في ذمها فاعتباراً بمن رضيها حظا لنفسه، وجعلها قاضية مراده، كما قال تعالى: «وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا »[3]

وما جاء في مدحها فاعتباراً بتناولها وإنفاقها على ما يحمد، وعلى ذلك قال علي رضي الله تعالى عنه: الدنيا دار نجاة لمن نهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، والناس فيها رجلان بائع نفس فموبقها ومبتاع نفس فمعتقها، وعلى هذين الوجهين مدح تارة عمارة الأرض فقال تعالى: «وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا»[4] وقال صلى الله عليه وسلم: (من

١ - البقرة ١٩٨
٢ - النور ٣٧
٣ - يونس ٧
٤ - هود ٦١

غرس غرساً لم يأكل منه طائر ولا بهيمة إلا كان له صدقة)، وذم مرة عمارتها فقال تعالى: « أو لم يسيروا في الأرض» الى قوله: « وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا »[1] وقال صلى الله عليه وسلم: (الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها).

الباب السادس عشر
﴿ في مراعاة أمور الدنيا والآخرة ﴾

الناس في ذلك ثلاثة أصناف:

صنف منهم المنهوكون في الدنيا بلا التفات منهم الى العقبى، وهم المسمون عبدة الطاغوت، وشر الدواب ونحوها من الأسماء،

وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة، يراعون العقبى من غير التفات منهم إلى مصالح الدنيا،.

وصنف متوسط قد أعطوا الدارين حقهما، وهذا الصنف هم عند الحكماء الأفضلون، لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة،

ومنهم عامة الأنبياء، لأن الله عز وجل بعثهم لإقامة مصالح المعاد والمعاش، ولأن أمورهم مبنية على الاعتدال الذي هو أشرف الأحوال وأجدر أن تكون ثلاثتهم داخلين في قوله تعالى: « كُنتُمۡ أَزۡوَٰجًا ثَلَٰثَةً »[2] فالمراعي للدنيا والآخرة على ما يحسن وكما يحسن من

١ ـ الروم ٩
٢ ـ الواقعة ٧

السابقين ، وجعل قوم السابقين هم النساك الذين رفضوا الدنيا محتجين فيه بقوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»[1] وخفي على هذا الجاهل أن أعظم عبادة الله تعالى ما كان عائداً بمصالح عباده ، وروى ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: (الخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله). ولأنه كما يقبح أن يشتغل الانسان بأمر دنياه وبدنه فيضيع أحد جزأيه المركب عليه ، كذلك يقبح أن يضيع الجزء الآخر الذي هو بدنه، لأنه يصير مضاد الله تعالى في أبطال ما أوجده وأتقنه.

فإن قيل فقد قال بعض الحكماء الناس ثلاثة: رجل شغله معاده عن معاشه، فذلك من الفائزين ، ورجل شغله معاشه عن معاده، فذلك من الهالكين ، ورجل مشتغل بهما فذلك من المخاطرين ، قال : وقد علم أن الفائزين أحسن حالاً من المخاطرين ، قيل أن المنازل الرفيعة لا تنفك عن مخاطرة، ولم يقصد هذا القائل بذلك إلا تفضيل الفائز ، إنما الخوف أن يترشح لخلافة الله تعالى من هو قاصر عنها ، ويقوي ذلك ما روي ان بعض أولاد الملوك ممن تقوى في العلم والحكمة اعتزل الملك وزهد في الدنيا فكتب اليه بعض الملوك ، قد اعتزلت ما نحن فيه، فان عرفت ان ما أنت فيه أفضل فعرّفنا لنذر ما نحن فيه ولا تحسبني أقبل منك قولاً بلا حجة ، فكتب إليه : أنا عبد لملك رحيم ، بعثنا الى حرب عدوّ ، وعرفنا ان المقصد بذلك قهره أو السلامة منه ، فلما قربوا من الزحف صاروا ثلاثة أثلاث :

---

١ ـ الذاريات ٥٦

متحرر: طلب السلامة فاعتزل عنه فاكتسب السلامة، وإن لم يكتسب المحمدة.

ومتهوراً: قدم على غير بصيرة فجرحه العدو فهزمه، فاكتسب بذلك سخط ربه.

وشجاع: قدم على بصيرة فقاتل وأبلى واجتهد، فهو الفائز التام الفوز، وأنا لما وجدتني ضعيفاً رضيت بأدنى الهمتين وأدون المنزلتين، فكن أيها الملك من أفضل الطوائف تكن أكرمهم، والسلام على من اتبع الهدى.

الباب السابع عشر

﴿ بيان أحوال من يجوز له الاستكثار من أعراض الدنيا ومن لا يجوز له ذلك ﴾

الاعتبار في تناول الدنيا والاستكثار منها أو الاستقلال، الزهد فيها أو الرغبة، لا تناول الكثير والقليل، بل تناولها من حيث ما يجب، ووضعها كما يجب، قال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه: لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى يسمى زاهداً، ولو أنه ترك جميع ما في الأرض، ولم يرد بتركه وجه الله تعالى لم يسم زاهداً، ولا كان لله تعالى في ذلك عابداً، فليكن أخذك الذي تأخذه وتركك الذي تتركه لله عز وجل لا لغيره،

واعلم أن الحكيم إذا تناول أعراض الدنيا جرى مجرى حاذق

تناول حية قد عرف ضرها ونفعها وأمن سمها، فيتحرى بتناولها الوجه الذي ينتفع هو به ، وينفع غيره فهو مباح له تناولها ، وغير الحكيم إذا تناولها فهو كجاهل استحسن الحية واستلان مسها فظن انها مستصلحة لأن يتقلد بها فجعلها سخاباً في عنقه فلدغته وقتلته وما أحسن قول الشاعر:

هي دنيا كحية تنفث السم * وإن كانت المجسة لانت

فكما لا يجوز للجاهل برقية الحية أن يتناولها ، كذلك لا يجوز للجاهل أن يقتدي بالحكيم في تناول أعراض الدنيا ، وكما أنه محال أن يسلك الأعمى من غير قائد طريقاً وعراً يسلكه البصير إذ هو غير آمن أن يقع في وهدة ، كذلك محال أن يسلك الجاهل مستبداً برأيه في تناول أعراض الدنيا طريقاً يسلكه الحكيم العالم ، إذ هو غير آمن أن يقع في هاوية، وأيضاً فالدنيا غانية رعناء كما قال :

شيم الغانيات فيها فلا أد * ري أفي الغانيات تحسبي أم لا

فكما أن الغانية لا يجوز أن يدخل عليها ويخلو بها من الرجال إلامن كان مجبوباً يؤمن عليها ، فكذلك الدنيا لا يجوز أن يتمكن منها إلا المقطوع عنها بالعفة والزهد لئلا تغره، وذلك كأمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه حيث قال : يا حمراء ويا بيضاء احمري واصفري وغري غيري هذا جنائي وجناؤه فيه إذ كل جان يده الي فيه ، ومن تصور ذلك علم أن الله تعالى قد أباح الدنيا لأوليائه علماً منه انهم لا يتناولونها إلا على ما يجب وكما يجب ، وإذا تناولوها وضعوها كما يجب حيث ما يجب ، وعلى هذا قال تعالى : « إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ

عِبَادِهِ »[1] وقال: « أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ »[2] الى غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها.

الباب الثامن عشر
﴿ ما ينال أرباب الدنيا من العقوبات الدنيوية ﴾

لله تعالى عقوبتان في معاقبة من تناول ما لا يجوز له تناوله من الدنيا، أو تناول من الوجه الذي يجوز لكنه لم يوف حقه ،

إحدى العقوبتين ظاهرة للبصر والبصيرة ، وذلك كعقوبة من غصب مالاً مجاهرة أو سرقة ، وكمن منع حق الله تعالى من الزكاة ، فإن عقوباتهم ظاهرة أمر السلطان باقامتها .

والثانية: عقوبة خفية عن البصرمدركة ببصائر أولي الألباب ، كعقوبة من تناول مالاً من حيث لا يجوز له تناوله ، أو منعه من حيث لا يجوز منعه إلا على وجه فيه حدّ أمر السلطان باقامته . فهذا عقوبته ما روي أي امرىء سكن قلبه حب الدنيا بلي بثلاث ، شغل لا يبلغ مداه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا يدرك منتهاه ، وما قال عليه الصلاة والبسلام: (من كانت الدنيا أكبر همه شتت الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يبال الله به في أي واد من الدنيا هلك) وعليه: « إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ

---

١ ـ الاعراف ١٢٨
٢ ـ الانبياء ١٠٥

كَـٰفِرُونَ»[١] وقوله تعـالى: « وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا»[٢] ليس يعني قلة المعيشة، وإنمـا يعنـي ما يقـاسي من الهمـوم والغموم التي تكدر العيش.

الباب التاسع عشر
﴿ ذكر الإنفاق المحمود والمذموم ﴾

الانفاق ضربان محمود ومذموم:

فالمحمود منه: ما يكسب صاحبه العدالة وهو بذل ما أوجبت الشريعة بذله، كالصدقة المفروضة والإنفاق على العيال،

ومنه ما يكسب صاحبـه أجـراً وهـو الانفـاق على من ألزمـت الشريعة الانفاق عليه.

ومنه ما يكسب الحرية وهو بذل ما ندبت الشريعة إلى بذله فهذا يكسب من الناس شكراً، ومن ولي النعمة أجراً.

فالمذموم ضربان: إفراط وهو التبذير والاسراف، وتفريط وهـو التقتير والامساك، وكلاهما يراعى فيه الكمية والكيفية، فالتبذير من جهة الكمية، أن يعطي أكثر مما يحتمله حاله،

ومن حيث الكيفية أن يضعه في غير موضعه والاعتبار في الكيفية

---

١ ـ التوبة ٥٥
٢ ـ طه ١٢٤

أكثر منه بالكمية ، فرب منفق درهماً من ألوف هو في إنفاقه مسرف، وببذله مفسد ظالم كمن أعطى فاجرة درهماً أو اشترى خمراً ، ورب منفق ألوفاً لا يملك غيرها هو فيه مقتصد ، وببذله محمود كما روي في شأن الصديق رضي الله تعالى عنه ، وقد قيل لحكيم متى يكون بذل القليل إسرافاً والكثير اقتصاداً؟ قال : إذا كان بذل القليل في باطل والكثير في حق ، والتقتير من جهة الكمية أن ينفق دون ما يحمله حاله .

ومن جهة الكيفية: أن يمنع من حيث ما يجب وينفق حيث لا يجب ، والتبذير عند الناس أحمد،لأنه جود لكنه أكثر مما يجب ، والتقتير بخل والجود على كل حال أحمد من البخل، لأن رجوع المبذر الى السخاء سهل وارتقاء البخيل اليه صعب ، ولأن المبذر قد ينفع غيره وان أضر بنفسه ، والمقتر لا ينفع نفسه ولا غيره وقد يقال ، إن التبذير في الحقيقة أقبح لما فيه من الاسراف ولأن بجانبه حقاً مضيعاً، ولأنه يؤدي بصاحبه الى أن يظلم غيره ، ولهذا قيل: المبذر أغدر من الظالم، لأنه جهل بقدر المال الذي هو سبب استبقاء الناس ، والجهل رأس كل شر ،

والمتلاف: ظالم من وجهين لأخذه من غير موضعه وصرفه كذلك ، ولكثرة مذام الإسراف ذمه الله تعالى أكثر من البخل فقال: « ولا تبذر تبذيراً » وقال عز وجل: « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ»[2] الآية . أي ملوماً من جهة سائلك فلم تجد ما تعطيه ومحسوراً عن بلوغ مرادك قال المتنبي :

---

١ - الاسراء ٢٦

٢- الاسراء ٢٩

فلا ينحلل في المجـد مالك كله * فينحـل مجـد كان بالمال عقده
فلا مجـد في الـدنيا لمن قل ماله * ولا مال في الـدنيا لمن قل مجده

وليس الاسراف متعلقاً بالمال فقط ، بل بكل شيء وضع في غير موضعه اللائـق به . ألا ترى ان الله تعـالى وصف قوم لوط بالاسراف لوضعهم البذر في غير المحـرث فقـال: « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ »[1] ووصف فرعون بقوله: « إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ »[2] وقوله: « وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ »[3]

الباب العشرون
﴿ حقيقة السخاء والجود والبخل ﴾

السخاء: هيئة للانسان داعية الى بذل القنيات حصل معه البذل أو لم يحصل. ويقابله الشح.

والجود: بذل المقتنى، ويقابله البخل ، وهذاهو الأصل وإن كان كل واحد منهما قد يستعمل في موضع الآخر ، ويدلك على هذا الفرق انهم جعلوا الفاعل من السخاء والبخـل على بنـاء الأفعـال الغـريزية فقالوا: شحيح وسخي ، وقالوا : جواد وباخل ، وأما قولهم بخيل فمصروف عن لفظ الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم ، ولـكون السخاء غريزة لم يوصف الباري تعالى به، وقد عظم الله أمر الشح

---

١ ـ الاعراف ٨١، ٩ ايس
٢ ـ الدخان ٣١
٣ ـ يونس ٨٣

وخوف منه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (ثلاث مهلكات شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه)، فخص المطاع لينبه على أن وجود الشح في النفس ليس مما يستحق به الذم إذ هو ليس من فعله، وإنما ذم بالانقياد له فقال: « وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ »[1] وقال: «وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ»[2] وقال عليه الصلاة والسلام: (لا يجتمع شح وإيمان في قلب عبد).

الباب الحادي والعشرون
﴿ فضيلة الجود وذم البخل ﴾

الجود على ألسنة الورى محمود ولذلك قيل : كفى بالجود حمداً أن اسمه مطلقاً لا يقع إلا في حمد، وكفى بالبخل ذماً إن اسمه مطلقاً لا يقع إلا في ذم،

وقيل لحكيم: أي فعل البشر أشبه بفعل الباري تعالى؟ فقال: الجود،

وقال عليه الصلاة والسلام: (الجود شجرة من أشجار الجنة من أخذ بغصن من أغصانها أداه الى الجنة، والبخل شجرة من أشجار النار من أخذ بغصن من أغصانها أداه الى النار)، ومن شرفه أن الله

---

١ ـ الحشر ٩، التغابن ١٦
٢ ـ النساء ١٢٨

تعالى قرن ذكره بالايمان ووصف أهله بالفلاح ، والفلاح اسم جامع لسعادة الدارين فقال: «الذين يؤمنون بالغيب» الى قوله: « هم ٱلْمُفْلِحُونَ »[1] وحق للجود أن يقرن بالايمان فلا شيء أخص به وأشد مجانسة له منه فمن صفة المؤمن انشراح الصدر: « فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا»[2] وهما من صفات الجواد والبخيل، لأن الجواد يوصف بسعة الصدر للانفاق ، والبخيل يوصف بضيق الصدر للامساك ، وقال عليه الصلاة والسلام: (أي داء أدوأ من البخل).

والبخل ثلاثة أضرب : بخله بماله ، وبخله بمال غيره على غيره ، وبخله على نفسه بمال غيره ، وهو أقبح الثلاثة ،

والباخل بما في يده باخل بمال الله على نفسه ، فقد تقدم أن المال عارية في يد الانسان مستردة ولا أحد أجهل ممن لا ينقذ نفسه من العذاب الأليم الدائم بمال غيره، سيما إذا لم يخف من صاحبه تبعة ، ولا ملامة، والكفاية الإلهية متكفلة بالتعويض للمنفق فقد قال عليه الصلاة والسلام : (اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً). وقال: (أن الله عز وجل ينزل المعونة بقدر المؤونة) وروي (من وسع وسع عليه).

---

١ ـ البقرة ٣.

٢ ـ الانعام ١٢٥.

الباب الثاني والعشرون
﴿ أنواع الجود والمجود به ﴾

الجود خمسة أضرب:

جود الله تعالى : وهو البذل على كل أحد بقدر استحقاقه،

وجود الملوك: وهو بسط المال على العفاة غنيهم وفقيرهم ،

وجود السوقة: وهم دون الملوك وهو بذل المال للسؤال ،

وجود الصعاليك: وهو البذل للندامى والشرب، وجود عوام الناس وهو الاحسان الى الأقاريب ، والمحمود من ذلك كله الجود الإلهي وهو الجود على كل بقدر استحقاقه ، فالمعطي ما يحتاج اليه لمن لا يحتاج اليه مسرف مضيع ، والمعطي لغيره شيئاً لرهبة واق نفسه ، والمعطي لرغبة له لمثوبة، أو لمحمدة دنيوية تاجر، وأما قول بشار:

فتى يشتري حسن الثناء بماله * ويعلم أن الدائرات تدور

فليس بغاية في الوصف بالجود التام لمن وصف بتجارة محمودة وأحسن منه قول ابن الرومي:

وتاجر البر لا يزال له * ربحان في كل متجر تجره
أجر وحمد وإنما طلب الا جر ولكن كلاهما اعتوره

وقد أجاد بشار بقوله

ليس يعطيك للرجاء ولا للـ خوف لكن يلذ طعم العطاء

الفصل السابع
﴿ في ذكر الأفعال ﴾

الباب الأول
﴿ في أنواع الأفعال ﴾

الأفعال ضربان: إلهي وانساني .

فالالهي أربعة أضرب: إبداع ، وتكوين ، وتربية وإحالة ، وجميع ذلك يسمى خَلْقاً من حيث كان وجود كل واحد بمقدار .

والخلق: في الأصل التقدير المستقيم.

فالأول : **الإبداع** وهو إيجاد الشيء دفعة لا عن موجود ولا ترتيب ولا عن نقص الى كمال ، وليس ذلك إلا للباري تعالى، وإن كانت العرب تستعمل الابداع فيمن يحفر بئراً في مكان لم يحفر فيه قبل ،

والثاني: **التكوين** وهو إيجاد الشيء عن عدم بترتيب ومن نقص الى كمال ، والمتكلمون قد يستعملون التكوين موضع الابداع ولما هفوا عن حقيقة التكوين استشنعوا قول من قال: السماء ليست بمكونة وقدروا انه يقول : ليست بمبدعة ولا مخلوقة ، وإنما أراد هذا القائل فيما

ذكره أصحابه ودل عليه كلامه ان الله تعالى أبدعها إبداعاً كما قال الله تعالى: «بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ»[1] ولم يخلقها خلقة ناقصة في ابتداء نشأتها، ثم كملها شيئاً فشيأ كالحيوان والانسان والنبات.

والثالث: تربية الشيء وهي تغذيته، وذلك استخلاف ما تحلل من أبدان ما وجد من كون ليبقى المدة المضروبة له وبه، وقيل له تعالى رب العالمين.

والرابع: إحالة الشيء وهي التغايير اللاحقة للكائنات في كيفياتها من لون وطعم ورائحة.

والفعل الانساني ثلاثة أضرب: نفساني فقط، وهو الأفكار والعلوم وما ينسب الى أفعال القلوب،

وبدني: وهو الحركات التي يفعلها الانسان في بدنه كالمشي والقيام والقعود، وصناعي: وهو ما يفعله الانسان بمشاركة البدن والنفس كالحرف والصناعات.

الباب الثاني
﴿ الفرق بين الفعل والعمل والصنع ﴾

الفعل: لفظ عام يقال لما كان باجادة، أو غيرها بعلم أو غيره بقصد أو غيره، ولِما كان من الانسان والحيوان والجمادات.

---

١ ـ البقرة ١١٧.

وأما العمل: فيقال لما كان من الحيوان دون ما كان من الجمادات وبقصد وعلم دون غيره وقال بعض الأدباء: العمل مقلوب عن العلم، وان العلم فعل القلب والعمل فعل الجارحة، وهو يبرز عن فعل القلب الذي هو العلم وينقلب عنه.

وأما الصنع: فانه يكون من الانسان دون سائر الحيوان، ولا يقال إلا لما كان بإجادة ولهذا يقال للحاذق المجيد والحاذقة المجيدة صنيع وصناع، والصنع قد يكون بغير فكر لشرف فاعله. والفعل قد يكون بلا فكر لنقص فاعله. والصنع أخص المعاني الثلاثة، والفعل أعمها، والعمل أوسطها، فكل صنع عمل وليس كل عمل صنعاً، وكل عمل فعل وليس كل فعل عملاً. وفارسية هذه الألفاظ تنبي عن الفرق بينها فانه قيل للفعل: كار وللعمل كردار وللصنع كنش.

الباب الثالث

﴿ أنواع الصناعات ﴾

هي ضربان: علمي وعملي، فالعملي ما يستغنى فيه عن الاستعانة بالجوارح من اليد أو الرجل كالمعارف الالهية والحساب، والعملي ما يستعان فيه بالجوارح وهو ضربان: الأول ينقضي بانقضاء حركة الصانع كالرقص، والثاني: شيء يبقى له أثر معقول لا محسوس كالطب وضرب محسوس كالكتابة.

الباب الرابع
﴿ الأفعال الارادية وغير الارادية ﴾

الفعل الذي يظهر من غير الله تعالى إما تسخيري وإما غير تسخيري، فالتسخيري يظهر لا بقصد ممن يظهر منه، وقد يكون ذلك من الجماد والحيوان ، وهو نوعان:

نوع بتسخير الله تعالى، كاحراق النار وتبريد الثلج.

وضرب بتسخير البشر كطحن الرحى. وأما غير التسخيري فضربان: ضرب يكون من فاعله مبدأ الارادة وهو ثلاثة:

الأول: بحسب التميز كمن تناول الخير دون الشر مؤثراً له.

والثاني: بحسب الغضب كمن يبطش بمن يقدر عليه.

والثالث: بحسب الشهوة كمن تناول ما اشتهاه ، والذي لا يكون منه مبدأ الارادة ولا منتهاها ، كمن رمى غرضاً فأصاب رجلاً.

وضرب يكون منه مبدأ الارادة لا منتهاها ، كمن حصل في سفينة فخاف الغرق فكلف أن يلقي متاعه في الماء ليتخلص، والأفعال من الجمادات تقع بالتسخر فقط ، ومن الحيوانات تقع بالتسخر وبالنزاع الذي تقضيه القوة الشهوية ومن بعض الحيوانات تقع بهما وبالغلبة التي تقيضها القوة الغضبية، ومن الانسان تكون بكل ذلك وبالفكرة التي تقتضيها القوة العاقلة .

الباب الخامس
﴿ ما يستحق به اللوم وما لا يستحق ﴾

الأفعال ضربان: ضرب إرادي وغير إرادي ، والارادي ضربان : ضرب عن روية . وضرب لا عن روية ، والذي عن روية ضربان ، أحدهما الذي عن روية تظن في غاية الشرف ، وهو ما يكون بحسب النفس الناطقة، ويسمى الاختيار وهو طلب ما هو خير له ، ويستحق أبداً به الحمد إذا كان على الحقيقة اختياراً.

والثاني: عن روية فيما ليس هو في غاية الشرف ، وذلك إما بحسب القوة الغضبية ، وهو دفع ما يضره . وإما بحسب القوة الشهوية وكل واحد منهما إذا كان بقدر ما يوجبه العقل يستحق به الحمد، وإذا كان زائداً أو ناقصاً يستحق الذم .

والإرادي الذي عن غير روية واختيار ضربان:

أحدهما: ما يفعله في نفسه.

والثاني: بغيره،وكل ضربان. نفع وضر، فما قصد به نفع نفسه، فقد يستحق به الحمد والشكر معاً.

وما قصد به ضر نفسه، فقد يستحق به الذم والعتب عليه، وغير الإرادي ثلاثة أضرب:

الأول: يكون قسرياً ومبدؤه من خارج، ولا يكون من أربابه

معونة بوجه كمن رفعته ريح فسقط على آنية فكسرها .

والثاني: أن يكون الجائيا كمن أكرهه سلطان على فعل ما، وهذا متى كان الملجأ اليه قبيحاً جداً، والسبب الملجىء اليه خفيفاً يستحق مرتكبه الذم ، كمن يضرب على أن يقتل انساناً ومتى كان الملجأ اليه ليس بحميد بل قبيح وكان السبب الملجىء اليه عظيماً لا يستحق مرتكبه الذم كمن يوضع على حلته السيف فهدد بأن يقتل إن لم يتكلم بكلام قبيح وكلاهما يقال له: الاكراه.

والثالث: الخطأ وهو ما يكون مبدؤه من صاحبه وذلك نوعان:

أحدهما: ما تولد عن فعل وقع منه وله أن يفعله كمن يرمي هدفاً فيصيب انساناً، وذلك يستحق به ملامة ما لم يقع من صاحبه تقصير في الاحتراز.

والثاني: ما يتولد عن فعل ليس له أن يفعله، كمن شرب فسكر فحمله سكره على أن كسر إناء وضرب إنساناً ، فان ذلك يستحق الملامة ، وإن لم يكسر الإناء وضرب الانسان فقد ارتكب محظوراً ، أدى به إلى وقوع ذلك منه ، فالضرب الأول يقال له : أخطأ فهو مخطىء .

والثاني: يقال له خَطِىء فهو خاطىء، ولهذا قال أهل اللغة خطىء في العمد وأخطأ في غيره :

الباب السادس

﴿ الأسباب التي يمكن نسبة الفعل اليها ﴾

أكثر الأسباب التي يحتاج الفعل اليها في وجوده عشرة أشياء :

فانه يحتاج الى فاعل يصدر عنه الفعل كالنجار، والى عنصر يعمل فيه ، كالخشب، والى عمل كالنجر.

والى زمان ومكان يعمل فيهما .
والى آلة يعمل بها كالمنجر والمنحت.
والى غرض قريب كاتخاذ النجار الباب.
والى غرض بعيد كتحصين البيت به .
والى مثال يعمل عليه ويقتدي به .

والى مرشد يرشده، وكل قد ينسب اليه الفعل فيقال: أعطاني زيد إذا باشر الاعطاء، وأعطاني الله لما كان هو الميسر له ، وربما جمع بين السبب البعيد والقريب فيقول: أعطاني الله وزيد قال الشاعر:

حبانا به جدنا والاله * وضرب لنا أجذم صارم

فنسب الى الأول وهو الله عز وجل، والى السبب المتأخر وهو الضرب.

وإلى المتوسط وهو الجد وقال تعالى: « ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ

مَوْتِهَا»[1] وقال تعالى: «قُلْ يَتَوَفَّـٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ»[2] فأسند الأول الى الآمر به والثاني الى المباشر له ، وقال الشاعر في صفة الدرع وألبسنيه الهالكي * وقال: كساهم محرّق فنسب الفعل الى عاملها ، وفي الثاني: الى مستعملها وقال في صفة نبال :

* نبال كستها ريشها(٢) مضرحية * فنسب كسوتها الى الطائر الذي أخذّ ريشه فجعل لها ، وقيل : يداك أوكتا وفُوْكَ نَفَخْ . فنسب الفعل الى الآلة المتصلة ، ويقال: سيف قاطع فنسب الى الآلة المنفصلة ، وقيل: ضرب فيصل وفاصل ، وطعن حائف . فنسب الى الحدث وقيل سرّ كاتم ، وعيشة راضية ، فنسب الى المفعول وقال عز وجل: «حَرَمًا ءَامِنًا»[3] فنسب الى المكان وقيل : يوم صائم وليل ساهر ، قال.

* وما ليل المطيّ بنائم * فنسب الى الزمان ، فلما كانت أفعالنا على ذلك صح في الفعل الواحد أن ينسب لأحد الأسباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين وعلى ذلك قوله:

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى * حسن اللقاء حرمت من لم تحرم

فأثبت له الفعل ونفاه عنه معاً بنظرين مختلفين ، ويقال: هذا الخشب قطعته أنا لا السكين، ويقال قطعه السكين ولم أقطعه ، وفلان هداه الله وهداه الرسول وهداه القرآن وهداه فهمه ، فنسب الى كل ذلك وقال: وأضله الله لما كان تعالى هو السبب الأول في وجوده

---

١ ـ الزمر ٤٢
٢ ـ السجدة ١١
٣ ـ القصص ٥٧

ووجود الآلة ، وإن لم يكن تعالى هو الداعي الى الضلال ، ويقال : أضله الشيطان لما كان هو الداعي الى الضلال ، وأضلته نفسه لما تركت الاحتراز،

وهذا فصل من تأمله لم يعتمد في تثبيت المعاني على مثلها من الألفاظ فينظر من اللفظ الى المعنى، بل ينظر في مثل هذا من المعنى الى اللفظ.

واعلم أن من أجل هذا الذي قدمنا ، قال قوم من المحصلين لا شيء من الأفعال فاعله واحد في الحقيقة إلا الله عز وجل ، فان فعله عز وجل يستغني عن الزمان والمكان والمادة ، ومثال يحتذيه ومن عداه من الفاعلين لا بد له من كل ذلك أو بعضه ، ولهذا لا يصح أن ينسب الابداع الى غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازاً ويصح أن ينسب فعل الله تعالى الى كل ما تقدم ذكره.

قال الشيخ أبو القاسم الراغب رحمه الله تعالى: هذا آخر ما قصدت تبيينه من هذا المعنى وأختم القول بحمد الله والثناء عليه ، والتضرع اليه ، في أن ينفعني واخواني فيما تحريته ، ويجعلني ممن تذكر فذكر ، وتبصر فبصر ، واتعظ فوعظ ، وتيقظ فأيقظ ، فأعظم الهجنة أن يأمر من لا يأتمر ، ويزجر من لا ينزجر ، وأن يدعي الحكمة من يرى القذى في عيون إخوانه فينكرها ، ويرى الجذع المعترض في أجفانه ولا يغيرها، فنصح غيره وغش نفسه فهو

كمن كسى الناس من عري وعورته * للناس بادية ما أن يواريها

وكالمسن يسن الحديد ولا يقطع ، وكالصخر الصلد يمر به الماء

الناقع ولا ينتقع هو به قال عليه الصلاة والسلام: (ان الله ينصر هذا الدين بقوم) لا لهم (ونرغب) اليه تعالى أن يجعلنا برحمته ممن ائتم بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (بادر خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك)، فما أعظم في الحياة الحسرة والندامة ، إن لم يتغمدني الله برحمته التي وسعت كل شيء فسهّل المجاز، ويسر لي بالجواز، فقد حان حصادي ولم يصلح فسادي، وصلّ يا ربي على خاتم النبيين، واجعله لي من الشافعين، آمين .

بعد حمد الله على آلائه	والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه
يقول مصححه الراجي عفو الباقي	عبد الهادي موسى البولاقي

قد تم بعون الله طبع كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة للشيخ العلامة اللوذعي الفهامة ذي المجد والفيض الرباني أبي القاسم الراغب الأصفهاني الذي لم يسبق بمثاله، ولم ينسج ناسج على منواله، فكم أودع فيه من غرر النفائس، وأبرز من حسان مخدرات العرائس وأورد من حكم شريفة ونكات بديعة منيفة وآيات قرآنية وأحاديث نبوية فكان حقيقاً بطبعه وتيسير سبيل نفعه لدى دار الكتب العلمية في بيروت ذات التحريرات الفائقة الباهرة والحمد لله رب العالمين

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة